

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

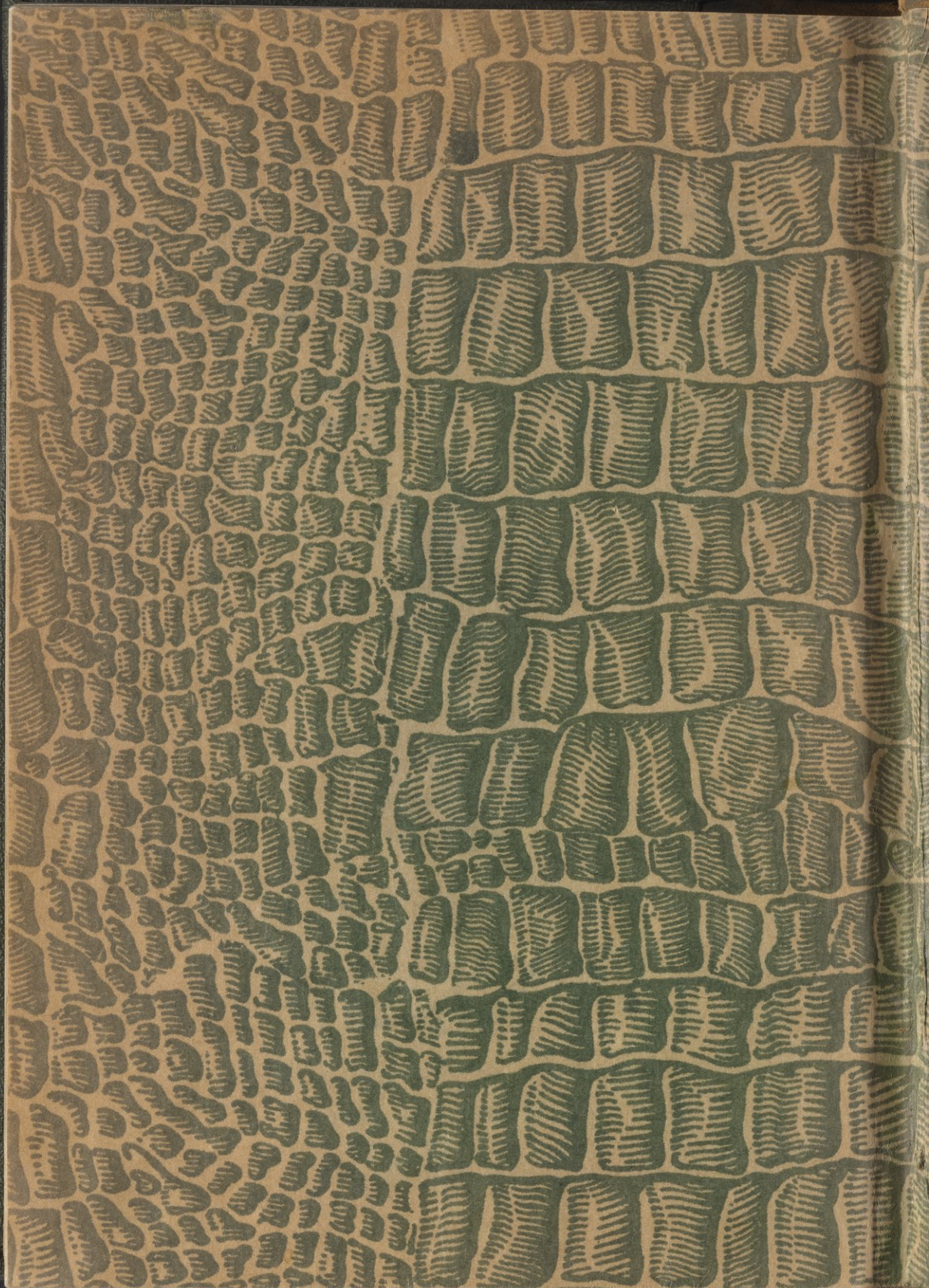


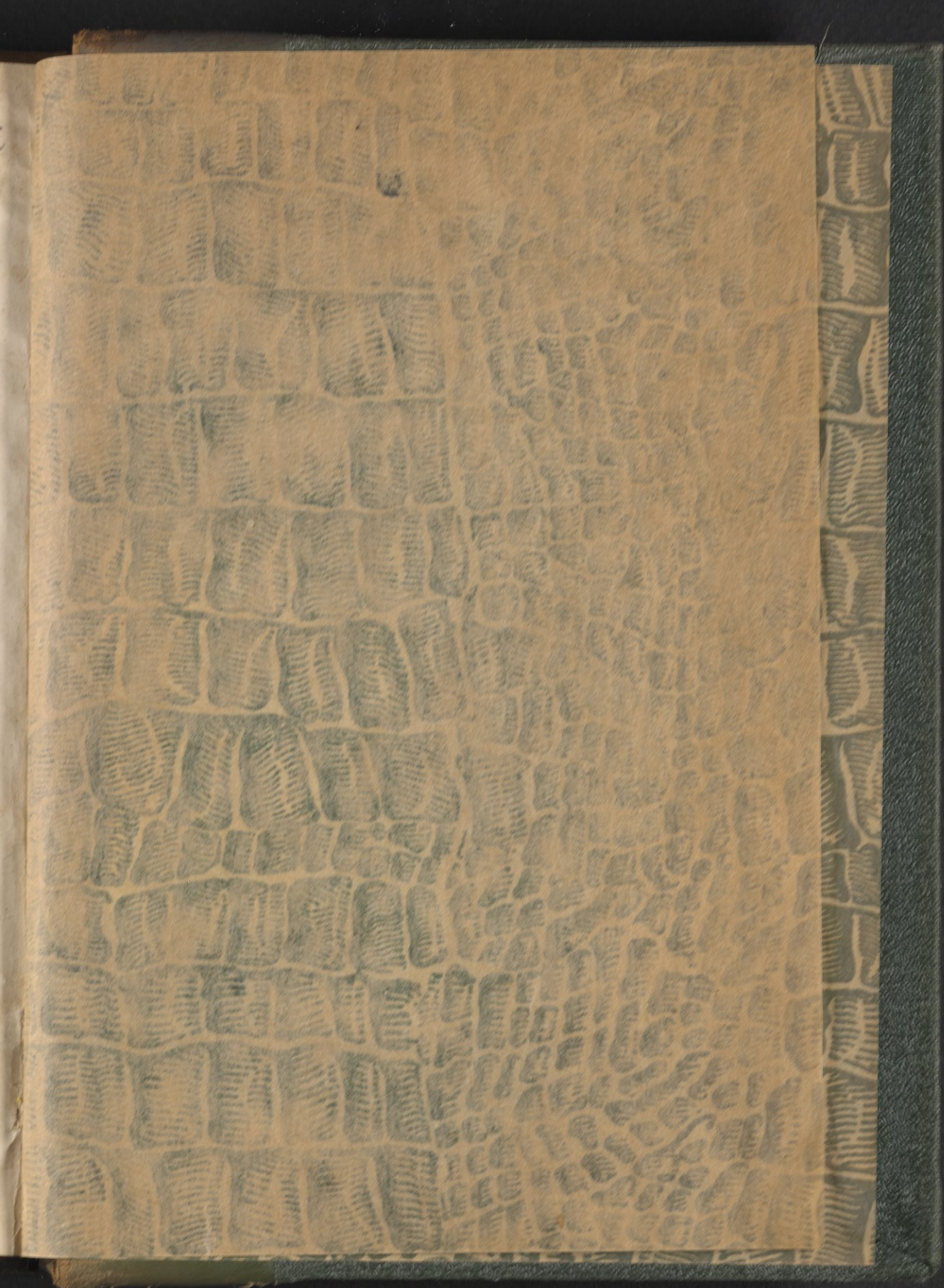
3 8534 01144 9414

Ex Libris
American University
at Cairo



Gift of
Carnegie Endowment for International Peace





DS
49
T45
1934

Thābit, Muhammad.
Jawlah fī rubū' al-sharq al-Adnā

جولت في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر و أفغانستان



من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

مدرس الآداب بمدرسة الامير فاروق الثانوية

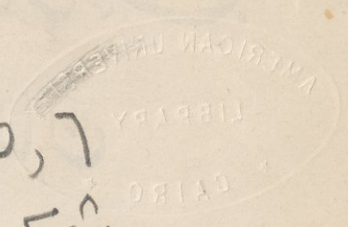
سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

مطبوعة بمصر بالجالاتليفون ٤١٤٥٥

03-82299
put 21-5-03

916/2
T32b

910,7
ع. ٢٥



17253

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

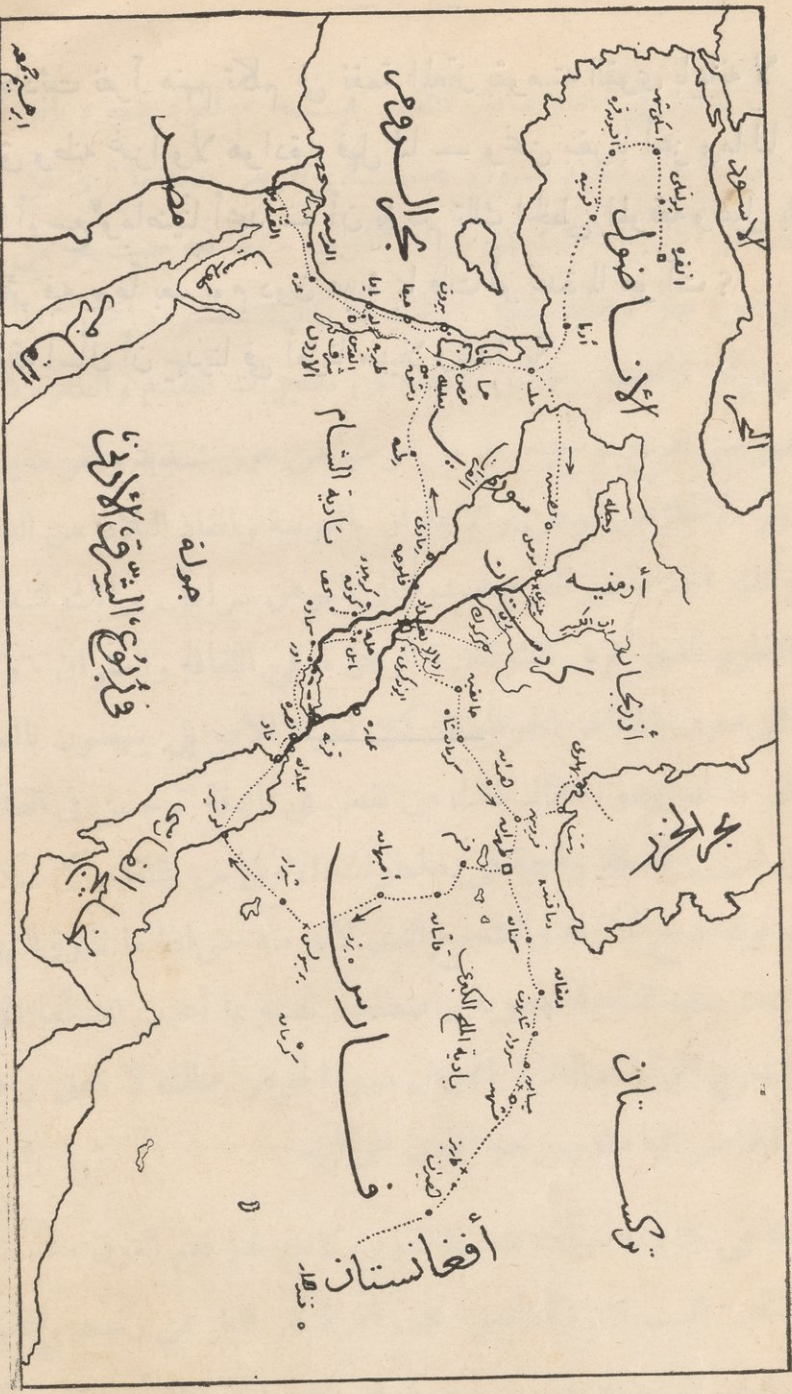
كانت جولتي هذا العام في ربوع الشرق الأدنى تلك الاقطار التي تربطنا بها روابط وثقتها أو اصر التاريخ والاجتماع والدين . وزادتها رسوخاً صلة رحم قديمة و اخلاص عميق وعطف متبادل تذكي ناره رغبة مشتركة في النهوض وظموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة ظلت ولا تزال تنن تحت أخطاء أبنائها ونهم الطامعين فيها

جبت أرجاءها في جولة عاجلة كانت أجدر بالمقام الطويل والدرس العميق لكنني رغم ذلك قد وقفت من أمرها على الكثير مما يروقنا شأنه ويهمنا خبره . ولقد لمست بعض معاني التأخر الذي طالما عيرنا به الغرب حتى أضحي لديهم الشرق مثلاً في التدهور والامتهان . مما كان ينغص علينا عيشنا ويهدنا في الحياة . لكنني الفيت خلال ذلك قبساً من نور النهوض ترفعه في تلك الظلمات يد قيضها الله لكثير من نواحي هذا الشرق فبدأت تعمل على تبديد ظلم الاجنبي ومحو سيطرته السياسية والمالية تلك التي كانت

ولا تزال تتأمر على أحماد عناصر التقدم فيه ثم تعود فتعيّره بأنه ناشئ
تعوزه الكفافية في القيام بشؤون نفسه وتقرض عليه ما ترى من نفوذ
وسلطان هو آيل به لا شك إلى زوال القومية والبقاء به حيث هو من خمود
ذكر وجمود عقل وقناعة بقليل . ولشد ما كانت دهشتي و إعجابي لما تأتبه
كل من تركيا الناهضة وفارس الناهضة من معجزات التقدم والطفرة بالبلاد
الى العلى من جميع نواحيه رغم ما يحوطها من عوز شديد وفقير مقيت .
لكن هو الاخلاص للوطن والاعتزاز بالقومية وانقاذ البلاد من الدخيل
كل اولئك اخذ بناصر القوم فعدوا الى النهوض سرعاً . وانك لتدهش
لمدى التطور الذى تم فى تلك الفترة الوجيزة فى الثقافة والعمران . وأنت
لا تراهم يعنون بالمظاهر الجوفاء تاركين لباب الامر بل ينهضون بالصميم
منه رغم ما قد يبدو خلال ذلك من نقص فى الدقة وحسن فى الطلاء .
وعندى أن العجلة واجبة فى الخطوات الاولى من التقدم كى تكسب
الشعب قوة الدفع اللازمة والتشجيع الذى لا بد منه حتى اذا ما تذوق للنهوض
معنى انتعشت فيه الناحية المعنوية واضطلعت نفسه بما أعدت له . أما الاخذ
بسنة التدرج الوئيد والعناية بالعرض دون الجوهر فتلك لا تتفق وحركة
العصر الحاضر العاجلة وروحه المادى الوثاب

حقاً هى ظروف تهيأت فتحينها القوم وكانت لهم نعم العون . استغلوا
خيرها لخير البلاد وتساندوا تحت أمره نفر قليل ممن رجحت عقولهم
واسلبوا لهم القياد مضحين مؤيدين فى غير تحفز لنقد ولا أهبة لهدم . كنت

كلما حدثت نقرأ منهم تكلم في نعمة المعتز بقوميته القوي بايمانه لا يقبل
في حق وطنه غمزاً ولا هوادة . فهل لنا — ونحن بنفرتنا أعز وما لنا أوفر
وعلمنا أوسع وماضينا أجد — أن نترسم تلك الخطى الموقفة ونهمل بلادنا
كما تتعثر فيه يوماً بعد يوم دون عبرة بما فات أو عدة لما هو آت ؟
الله أسأل أن يهدينا في أمرنا سبيلاً رشداً .



خط السير والبلدان التي حللناها

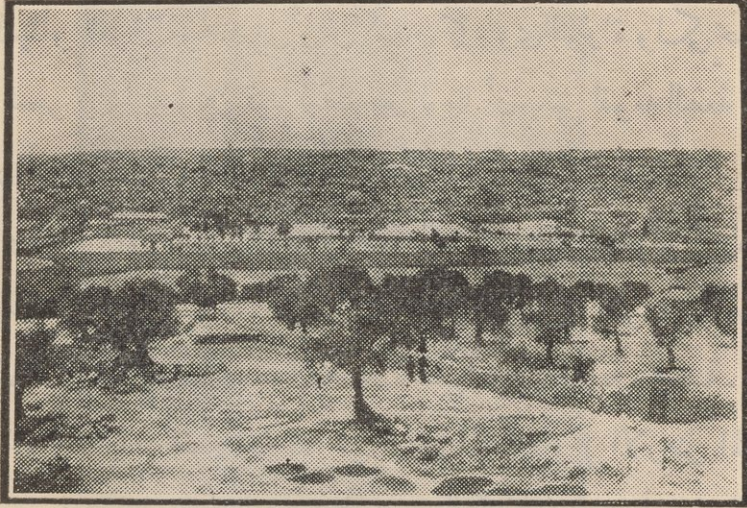
جولة في ربوع الشرق الأدنى

الى فلسطين الارض المقدسة

كننا في القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس في سباحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طورسيناء وفي القنطرة الشرقية أقلنا القطار في منتصف الليل وأوغل بنا في الصحراء وفي باكورة الصباح تفتحت عيوننا على :

غزة : مولد الامام الشافعي وهي بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة ثم أخذ الزرع يتزايد في بقع متناثرة في الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصا على المنحدرات التي كان يكسوها شجر الفاكهة في صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجارى الاسمنت للرى وقد كانت ثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة. ثم وصلنا محطة : اللد : وكان الشجر حولها وفيرا وهنا غيرنا القطار الذي قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل في وديان ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذى زرع وكان القطار يجد صاعدا خلال كل أولئك في جهد كبير وقد زود بقاطرتين معا وفي منتصف العاشرة دخلنا :

بيت المقدس : فآويت الى نزل (أوليفيت) الجميل يديره صاحبه
الوطني الذي شرّاه من الانجليز ويقوم عليه خير قيام . اما القدس فبلد
كأنه أقيم على مجموعة تلال في ارتفاع ٢٤٠٠ قدم طرقة تسير في ليات بحجية
وتهوى آنا وتصعد آنا في منحدر وعر وقد يرتقى الواحد من طريق الى آخر
بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلها والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن
تربتها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثرا للتراب في أرضها ويوتها من صخر
الجير يبدو في الوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر وللقوم مهارة خاصة في
نحته واقامته بحيث يبدو فخما جذابا رغم أنه لا يغشاه في ظاهره ملاط
وغالب المساكن من طابقين الا بعض المنشآت الحديثة . وكما كان يدهشني
اختلاف الازياء والاجناس بكثرة لم أعهد لها في أي بلد آخر مما أيد أن ذاك
المكان المقدس أضحي بلدا عالميا فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة
ولكل زيه الخاص فالعربي القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس
يلبسون الطربوش وسراويل تحبك حول الساق وتنتفخ حول العجز والبعض
يلبس القفطان وعليه الحزام المعوج الجذاب نساء ورجالا ولعل أعجب الازياء
تبدو في طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعر رؤوسهم
ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الاذنين في شكل يسترعى الانظار والنساء
يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل ومن أخص ما ترى فتياهم الذين
يحملون وراء ظهورهم سلالا كبيرة تكاد تخفي قامة الغلام منهم ويسيرون
على غير هدى عليهم يحدون مرتزقا في حمل متاع الغير في تلك السلال ونعمة

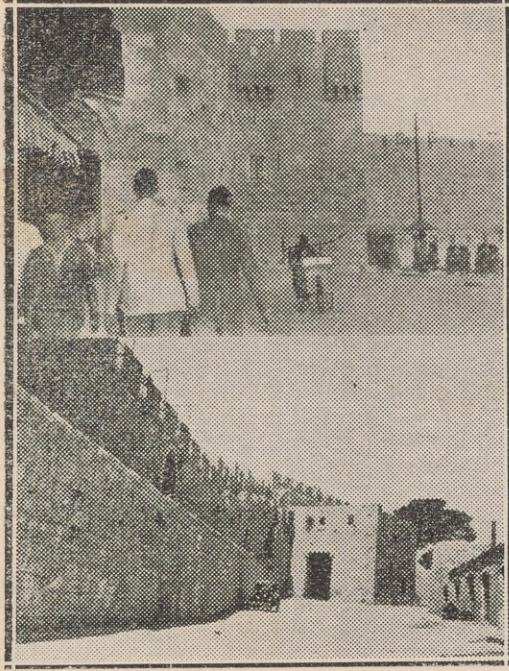


منظر عام للقدس من جبل الزيتون

الحديث عجيبة قد تمير الضحك إذ يميلون الحروف ويمدونها ويتصرفون في حروف
الجر تصرفا مدهشا وبخاصة (الباء) فيقولون أن فلانا نزل بيافا وسمعت
أحدهم يقول لرجل زلت قدماه أمام حانوته (ليش بتوقع بيمكن العمى
بيصيبك) في مد عجيب فتقبلها المخطيء ومضى في سبيله لأنى لاحظ أنهم لا
يميلون الى النزاع والمشاكسة وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت
أحدهم شيئا الا وحاول أن يهديني في رغبة وبشاشة فان قلت (متشكر)
أسرع قائلا (أستغفر الله) وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح
حتى سمعت أحدهم يقول لجاره (أين خفة الدم المصرى يجتمع الى الجمال
الشامى)

نبذة تاريخية : في القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر ابراهيم
من كالدنيا أو العراق موطنه الى أرض كنعان كما روى التوراة ولكي يحسم النزاع
الذي شجر بين آله وبين قوم لوط خير لوطا أن يلتقي لقومه البقعة التي يريد
فاختار أرض الاردن الخصبة فهاجمه أهل البلاد وأسروه فسارع ابراهيم اليه
ونجاه ولما عاد الى معسكره قدم له حليفه الكنعاني ملك سالم (أو اوروسالم أو
جيروسالم) الخبز والنبيد وقد ورد ذكر اوروسالم في القرن الخامس عشر
قبل الميلاد في الواح خطت بالبابلية عثرنا عليها في تل العمارنة وفي سنة ١٢٥٠ ق م
احتل بنو اسرائيل القسم الاكبر من أرض الميعاد أو (الارض الموعودة)
وفي ١٠٥٠ ق م اغتصب القدس داود من الكنعانيين وهم أجداد السوريين
الحاليين واتخذها عاصمته ومحا اسمها الكنعاني وأسماها مدينة داود وقد زاد
في تجميلها سليمان وبنى فيها معبدا فاخر ا بمساعدة صديقه (حرام) ملك (صور)
وغزاها شيشاق فرعون مصر سنة ٩٧٠ ق م ثم تتالت الغزوات وحملت
كنوز المعبد الى بابل وأسر ملك القدس وفي ٧٢٢ ق م دمر ملك بنى اسرائيل
هناك وفي ٥٨٦ ق م حوصرت المقدس ودمر المعبد وأخذ اليهود أسرى
الى بابل بأمر بختنصر وبذلك انتهت ملك يهوذا

ولما هزم كورش الفارسي بابل أعاد لليهود أملا كههم سنة ٥٣٨ ق م
وبعد هزيمة دارا أمام الاسكندر الاكبر اجتاحت جيش مقدونيا سوريا
وكتب الاسكندر لقسارسة القدس يدعوهم الى تقديم الطاعة فرفضوا
لكنه لما تحرك نحو القدس لاقاه شيخ القسس فيها محتفلا مرحبا فدخلها فاتحا

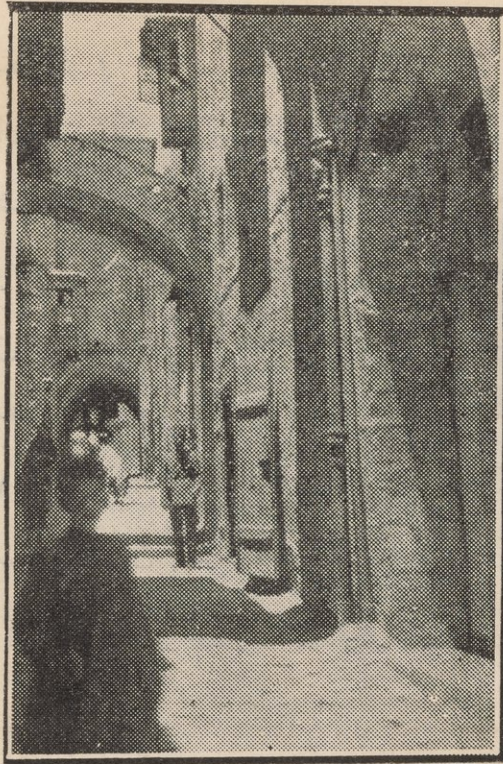


سور القدس

وترى باب الخليل وتحتة باب يافا أو برج داود وفي مكانه كان يقيم قصر هيرود
وبعد موت الاسكندر ظلت الثقافة الاغريقية هي السائدة زمنا وحلت
اللغة الآرامية وهي لغة السوريين الاقدمين محل العبرية وما لبث ملك سوريا
أن باغت المدينة سنة ١٦٨ ق م ودمرها ودنس المعبد لانه الزم اليهود أن
يذبحوا الخنزير في المذبح المقدس فأهاجت تلك الالهانة اليهود وحمزتهم
أن يشوروا على سادتهم ملوك سوريا وكان قائدهم يهوذا الذي هزم جيوش
سوريا سنة ١٦٤ ق م

عاود السوريون الحصار بعد ذلك ولما جاء يوليوس قيصر في طريقه الى مصر أقام من قبله ملكاً عربياً على أرض يهوذا فقتل ثم أعقبه ابنه (هيرود) ففتح القدس بمعاونة الروم واشتهر بمبانيه العظيمة وبخاصة لما أعاد بناء المعبد وفي عهده بلغت القدس أوج عظمتها لذلك سمي (هيرود الاعظم) وبينما كانت القدس تنه نغاراً تحت ملكها العربي وضعت مريم المسيح بمعجزة في فندق حقير من بيت لحم وكان ذلك سنة ٤ ق م وكان ذلك في الثالثة والثلاثين من حكم هيرود الاعظم ولما ذهب عقلاء القوم يقدمون خضوعهم لذلك المولود غضب هيرود وأمر بجميع الاطفال أن يذبحوا ليتخلص من المسيح فأوحى الى يوسف أن يهرب بالطفل وأمه الى مصر فظلوا بها حتى مات هيرود وفي سنة ٣٠ م حوكم المسيح أمام خليفة هيرود الذي قضى عليه بالصلب

لبث الروم يقاتلون القدس مراراً ليقمعوا ثورة اليهود بها وكان أشد حصار وقع زمن تيتوس حتى قيل أن الحاجة دفعت بالامهات أن يأكلن أطفالهن ولما دخلها تيتوس دمر المعبد أولاً والمدينة كلها تدميراً تاماً فحقت كلمة المسيح فيها (لن يستقر حجر على حجر في القدس الخيثة) وفي ٣٣٠ م لما أن أصبحت النصرانية الدين الرسمي لروما بنى قسطنطين كنيسة في مكان كنيسة القيامة واخرى في مكان الصلب وثالثة في بيت لحم وبعد ذلك حاول اليهود إعادة معبدهم لكنهم فشلوا واصبحت القدس مزاراً للحجاج من المسيحيين وفي سنة ٦١٤ فتحها كسرى وذبح تسعين الف مسيحي لكنهم



وسط طريق الآلام حيث أُسار المسيح عليه السلام يحمل الصليب
هزم ووقع في الأسر وما لبث أن داهمها الإسلام في واقعة اليرموك وأمن
عمر النصارى وبني مسجد الصخرة وسمى البلدة بيت المقدس وفي عهد
عبد الملك بن مروان أقيم المسجد بشكله الحالي (سنة ٦٩١) لينقص من
نفوذ مزاحمه عبد الله خليفة مكة ولا يزال المسجد يحمل اسم عمر. أعقب
ذلك نفوذ الفواطم الذين قسوا على المسيحيين ثم جاء بعدهم السلاجقة ثم
العباسيون وفي ١٠٩٣ عاد الفواطم واستبدوا بالنصارى فكان ذلك سببا في
بدء الحروب الصليبية

ولما انتصر النصارى فى الحرب الاولى اقتسموا الغنائم وكان أفخرها كنوز المسجد والصليب الاول وفى الثانية تغلب بطل الاسلام صلاح الدين وأسر النصارى بشهامته وحسن معاملته وفى الثالثة هلك من خيرة شبان أوروبا وملوكها وأمرائها نحو نصف المليون أمام المسلمين ولم يستطيعوا انتزاع القدس من صلاح الدين . ولعل أغرب الحروب الصليبية حرب الاطفال وفيها شحن الاوروبيون سبع سفن كبيرة بالاطفال اقلعت من مرسليا سنة ١٢١٢ الى الاراضى المقدسة لكن خمسا منها رست على الاسكندرية فأخذ الاطفال اسرى واثنان كسرتا وغرق من فيها .

وفى الحرب السابعة كانت خسارة النصارى بالغة اذ أسر ملك فرنسا نفسه فى مصر .

وفى ١٥١٧ خضعت بلاد الشام ومصر لسليم الاول سلطان تركيا وظلت القدس ملكا للاتراك الى سنة ١٩١٨ حين فتحها لورد اللبنى فاضحت انجليزية فكأن الحكم الاسلامى ساد البلاد بين ٦٣٦ ، ١٩١٨

وفلسطين اليوم قسمان : شرق الاردن وعاصمته عمان وهى فيلد لفيما القديمة ويحكمها الامير عبد الله . وفلسطين ويحكمها مندوب سام وعاصمتها القدس التى يبلغ سكانها نحو الخمسة والستين الفا ومجموع سكان البلاد كلها دون المليون منهم ٦٧٠ الفا من المسلمين و ١٧٥ الفا من اليهود و ٩٠ الفا من المسيحيين أما سكان شرق الاردن فدون ثلث المليون رغم أن مساحتها ضعف مساحة فلسطين وأغليتهم الساحقة من المسلمين

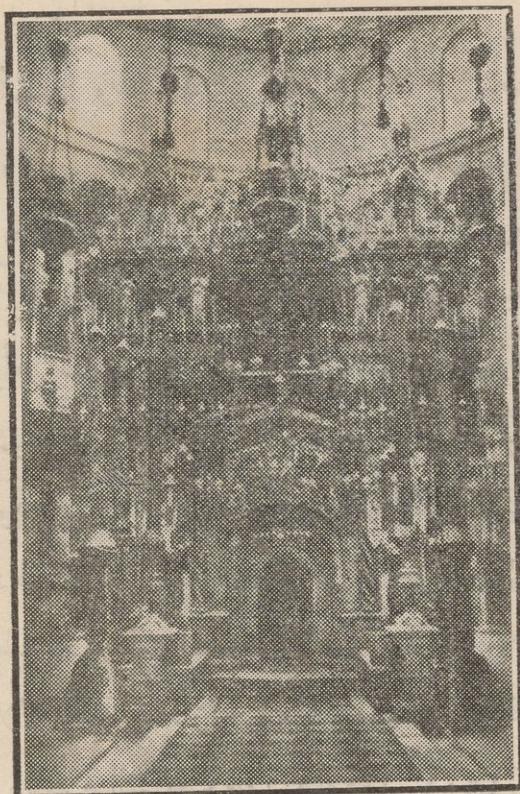


ادام كنيسة القيامة

في القدس : بدأت زيارتي بباب الخليل وهو أجمل ابواب أسوار القدس
وسمى كذلك لان الطريق الى الخليل يبدأ منه وقد كتب علي مدخله
(لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله) وكان يسمى قديماً باب المحراب أى محراب
داود ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سينهزم وينجح تحت هذا الباب
وبعد أن جرت الباب سرت في درب حجري منحدر كثير الليات يسمونه

(سوق البازار) ويحكى أسواق الغورية عندنا الا في أرضه الحجرية المدرجة
ومنه عرجنا على :

طريق الآلام : وفيه حمل المسيح الصليب الكبير وقطع به الطريق كله
وقد أعياه ثقله فوقف اثنتى عشرة مرة متوجعاً وقد عرف القوم تلك النقطة
ووضعوا علامات تميزها وفي الموقف الرابع قابلت العذراء ابنا المسيح وهو
يسير الى القتل وفيها أقام الارمن كنيسة وفي المحطة السادسة تقدمت
القديسة فيرنوشيا فمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على
منديلها وفي الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلاً : لا تبكوا على بل
أبكوا ضحايا القدس من الشباب وفي الحادية عشرة أمر المسيح أن يخلع
ثيابه قبل الصلب ثم وثق الى الصليب ودقت فيه أطرافه وفي الثانية عشرة
رفع الصليب وثبت في الحائط بثقوب رأيناها واضحة والى يسارها شق طويل
ملء بالنحاس ويقولون أنه من أثر الزلزال الذى هز العالم عند ذلك وفي
الثالثة عشرة أنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنا وآخر النقطة وهى
الرابعة عشرة فى قلب كنيسة القيامة حيث دفن المسيح ومدخلها ناعم زلق
من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين وحارس الابواب
مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التى تنازعت
الامر طويلا وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذى غسلت
عليه جثة المسيح وفي مقصورة الى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحا من
فضة حجر الرخام الذى كان يغطى القبر فدفعته الملائكة الى مكانه هذا



قبر المسيح عليه السلام داخل كنيسة القيامة

والى اليمين المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحاً للقرايين وشم هيكل
النشور الذى تجلى فيه المسيح لأمه وما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها
سجن المسيح قيل أنه سجن فيها وأجلس فوق صخرة بها ثقبان أدخل
الفخذان منهما ووثقا ثم شحذ الذراعان الى ثقبين رأيناها وراء ذلك وبعد
تلك المغارة مغارات عدة سجن فيها أتباعه وكلها مرطوبة مظلمة رهيبية

وهناك هيكل السخرية سخر الجند عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك
تهكما وتقريعا . ويزين المدينة :

الحرم الشريف : أو مسجد عمر أقيم على أنقاض معبد سليمان فوق
تل زيون الشهير وفوق أطلال قصر هيرود الاكبر والمسجد في متسع ذرعه
١٤٥ الف متر مربع على جبل (مورياه) الذي كان ملكا لأروانا ومنه شراه
داود وهنا شرع ابراهيم في ذبح ابنه ضحية على الصخرة الموجودة هناك وقد
بنى الهيكل داود بأمر سليمان وارشاده حوالي سنة ٩٦٦ ق م واستحضر له
المهندسين والاشباب من لبنان وتم بناؤه في سبع سنوات ونصف وقيل أنه
كلف خمسين مليون جنيه وفي سنة ٥٨٨ ق م خربه بختنصر لكن اليهود
أعادوه لما أن عاد لهم الامر سنة ٥٢٠ ق م ثم حوله جستنيان الى كنيسة
وأقام المسلمون عليه بعد ذلك المسجد الاقصى ولما دخل عمر القدس كان
موضع المعبد أطلالا مطمورة فأزاحها وأقام مسجدا مؤقتا للعبادة أعقبه
مسجد الصخرة . وللحرم الشريف سور يطوقه (١٦٠١ قدم في ١٥٣٠ في
١٠٢٤ في ٩٢٢) وفي داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسية : قبة الصخرة وقبة
السلسلة والمسجد الاقصى وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب
والقباب منشورة في غير نظام

قبة الصخرة : تقام على مئمن قطره ١٧٧ قدما ولها سبعة أبواب تولى
شطر الجهات الاربع والغربي منها يسمى باب الجنة ويصلى على الاموات
فيه عادة . بناها مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة ٦٩١

←

(٧)

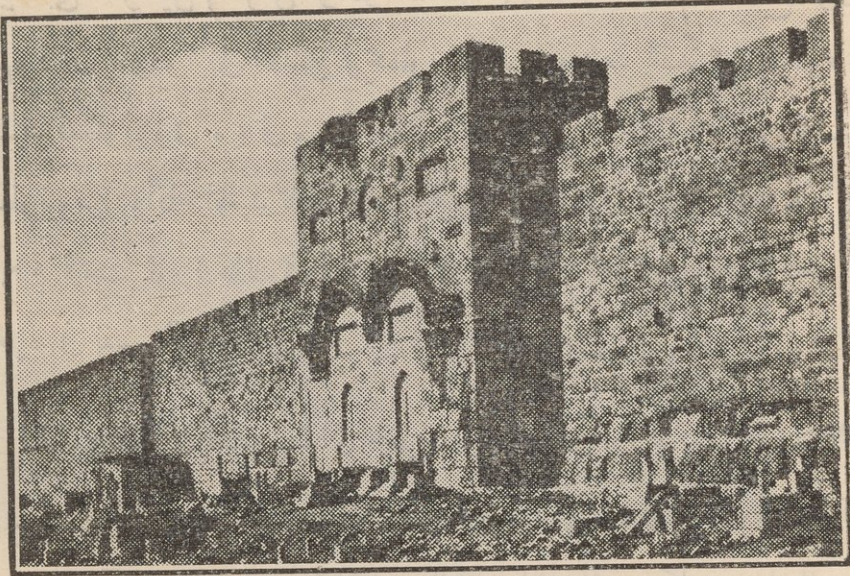


قبة الصخرة الشريفة ومنها كان معراج النبي عليه السلام

وقيل أنها كلفته سبعة اضعاف خراج مصر. أما صفحات ذاك المثلث من الخارج فيكسى نصفها الاسفل بالرخام المجزع والنصف الاعلى بالقيشاني في ألوان عدة أظهرها الازرق والاضخضر في ابداع دونه كل وصف وتزين الاعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير وبخاصة سورة (يس) وقد جعل ذاك القيشاني سليمان القانوني وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٢ من خشب مرصع علوه ٩٦ قدما وقطره ٧٥ وتكسى من خارجها بالرصاص وترفعها من داخلها أعمدة تيجانها ورؤوسها بينظية ونوافذها مخرمة في أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذي يسود داخلها وفي جانب منها كتب بالخط الكوفي أن

مؤسسها هو هرون الرشيد سنة ٧٢ هجرية مع أنه حكم بين سنتي ١٩٧ و ٢١٨
ولذلك ظن أنه محاسن مروان بانها الاصلى ونقش اسمه وغفل عن التاريخ
والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طولها ٥٨ قدما وعرضها ٤٤
ويقال أن النبي لما عرج الى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت
بحوافر جواده وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها الى الورا وقد
أشار الدليل إلى موضع أصبع جبريل واضحا هناك والى جوارها صخرة
عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته وبجوار ذلك سيفه وعلمه
وعلم من أعلام عمر . نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة في
تجويف وسط الصخر يرن عالياً اذا ضرب باليد ويخال القوم أن ذلك
المكان ملتحق الارواح بعد الموت ومن ثم أسموه بئر الارواح
وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر نعلوه بدرج محيط بها من
جميع نواحيها وفي أعلى كل درج أقواس الموازين ويقولون أنه في اليوم
الآخر ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعاً فمن رجحت موازينه
فهو في عيشة راضية

أما قبة السلسلة فتجاور قبة الصخرة بناها مروان كأنموذج للقبة الكبرى
وهي تقوم على سبعة عشر عموداً رتبت في دائرتين متحدتي المركز بحيث
يمكن أن ترى كل الاعمدة في وقت واحد ويقولون أن سليمان الحكيم علق
في هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين فالصادق يستطيع أن
تمسك بها أما المزور فلم يكن يمكنه ذلك : ومن ثم سميت قبة السلسلة



الباب الذهبي أو محبس الجن يجاوره عرش سليمان الحكيم وبينه وبين جبل الزيتون قبالته سيمد
السرط يوم القيادة

وذاك النجد الذي أقيمت فوقه القبتان لاشك كان موضع ضرب الغلال
(لاروانا) وفوقها أقام داود مذبحه وأعقبه سليمان وهي مقدسة عند اليهود
والمسيحيين والمسلمين معا وقد شراها داود بخمسين (شكلا) من فضة من
أروانا الجبوسيتية والجبوسيت أول قوم حلوا القدس وقد بنى داود مذبحه
فوقها شكراً لله الذي دفع عنهم شر طاعون كاد يودي ببني اسرائيل وقد أرسل
سليمان الى حيرام ملك صور فأمدته بمهندسين من فينقيا وزوده بالاحجار وخشب
الارز وأقام أول معبد ثابت لليهود كان آية في الفخامة يمثل حقا عظمة
سليمان وظل حتى كانت سنة ٥٨٦ ق م حين أثار على القدس ملك بابل بختنصر

فأحرقها ودمر المعبد عن آخره ونقل نفائسه غنيمة الى بابل ومن أسر من
أنبياء بني اسرائيل (عزقل أو ذو الكفل) وبعد خمسمائة سنة سمح كورش
 لليهود أن يعودوا الى القدس ويحملوا نفائس معبدهم القديم ويقيموه من
جديد ففعلوا وفي ٤٠ ق م جاء هيرود ملكا على أرض يهوذا من قبل
أنطونيوس وأقام المعبد ثانية ارضاء لليهود واستغرق اتمامه ثمانين عاماً وفي
٦٦ م قامت ثورة هائلة في القدس وفي سنة ٧٠ أحرق المعبد ودمر عن
آخره في نفس اليوم الذي دمر فيه معبد سليمان من قبل

المسجد الاقصى : الى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها

في هو من أعمدة عظيمة الامتداد أدى بنا الى قبة فاخرة مزركشة تحتها
محراب هو آية فنية ويسمونها المسجد الاقصى لانه أقصى مكان وصله الرسول
بالبراق وصعد الى السماء وافدا من مكة الى الاراضي المقدسة ليلا وذلك
المحراب مطعم بالعاج ترصعه اللاآلى أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨
وجمله صلاح الدين والى جانب من المنبر قبلتان واحدة للمسيح ويظهر فيها
أثر قدمه والثانية لموسى عليهما السلام وعلى كل جانب من مدخل المنبر
عمودان قريان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة والافهو
من أهل الجحيم وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجثة وحاول المرور
من بين العمودين فحشر ومات ومن ثم سد ما بين الاعمدة ليمتنع وقوع ذلك
والى جوار الاسوار فى الجنوب الشرقى اسطبل سليمان نزلناه بدرج
تحت أرض الحرم واذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كانت



جماهير الاتقياء من اليهود ييكون الى جرار الحائط المقدس

سليمان يربط خيله فيها وقد قلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد ويحال البعض
أن البناء من عهد هيرود الاكبر وفي غرفة مجاورة مهد المسيح قيل أن
مريم عرضت ابنها في المعبد عليه والى جانب الاصطبل فيما جاور قبة
الصخرة الباب الذهبي أو محبس الجن كان يجلس سليمان فيه الجن متى شاء
ويظن أنه أقيم في مكان باب شوشان الذى بناه هيرود ولقد سده المسلمون
لان هناك خرافة تقول بأن النصارى سيغزون الحرم يوما ويدخلون من
ذاك الباب ويجاور ذلك عرش سليمان الذى كان يجلس عليه وقبالة من
الخلف جبل الزيتون الذى كان يأوى اليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون
ويقول الناس أن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة

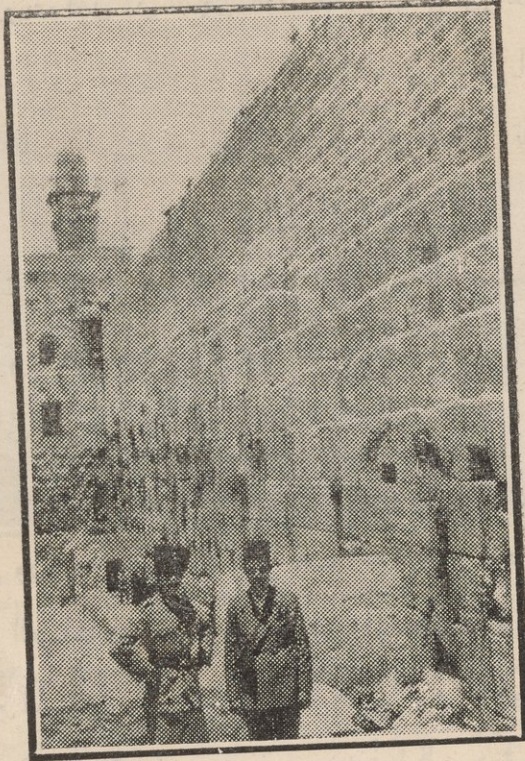
الصعود قبالة فوق جبل الزيتون وسيمسك النبي بطرف الصراط من فوق
صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم والطرف الثاني للصراط سيمسكه
المسيح ثم يمر الناس جميعا من فوقه فمن جازه نجا وإلا فالويل لمن أهوى

مبكى اليهود : ويسمونه أحيانا البراق حائط هائل خارج الباب

الاطراف للحرم الشريف أقيم من كتل الصخر الكبيرة ينبت العشب خلال
شقوقها وهو الحائط الوحيد الذي بقي من معبد داود القديم لذلك يتخذ
اليهود مبكى لهم يأوون إليه وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب وكذلك
في أعيادهم ويقف الرجال في ركن والنساء في الآخر وهم يبكون ويرتلون
ويندبون ملكهم القديم الزائل ويسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف
ومنظرهم وهم خشوع رهيب ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون
قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة وتتدلى شعورهم من
رؤوسهم ولحاهم في جدائل تسترء النظر ويقف جندي البوليس هناك ولا
يبرح المكان لا ليلا ولا نهارا لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين
المسلمين واليهود إذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقده

بيت لحم : قمت إليها في سيارة لا أرى قرية المسيح التي ولد فيها هو وسيدنا

داود. أهلها جلهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة
إلى المسيح نفسه. وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال تقوم بيوتها من
حجارة بعضها فوق بعض وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا



تقف الى جوار البوليس الذى يمرس ديكى اليهود صباح مساء
هدخلها وطىء لا يكاد يسمح بالدخول إلا فى انحناء شديد وذلك اتقاء
هجمات العرب والاتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم وفى قلبها
مغارة تجانبها صخرة مثقوبة فى شكل نجم كبير وتضى من فوقها المصاييح
ابدا وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام ويراقب هذا الموضع حارس
مسلم لئمنع تعدى الطوائف المسيحية بعضها على بعض اذ كثيرا ما
يشجر النزاع بينهم . هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذى تبركنا

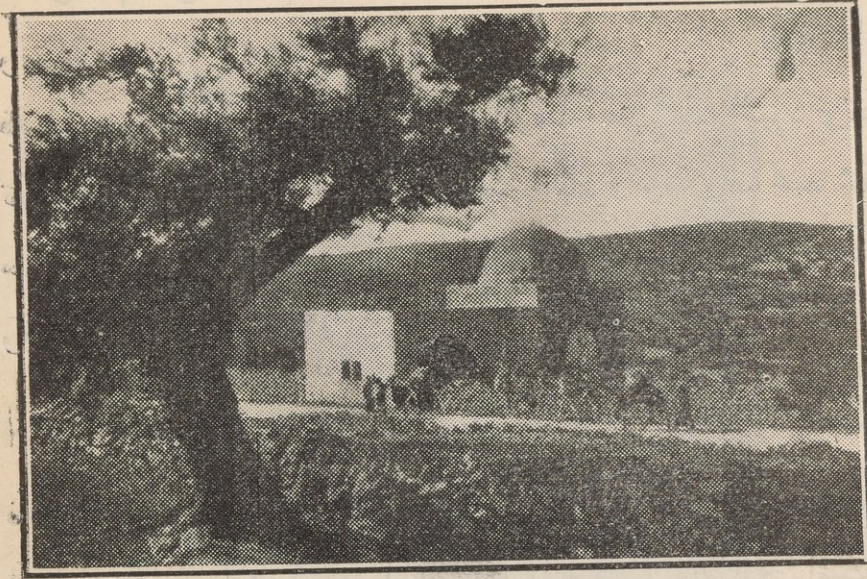
به وانعشنا في ذلك الحر اللافح والى جانب المكان بئر كانت تستقى منها
العائلة المقدسة ويقولون أن النجم الذى هدى مريم الى هذا المكان هوى
الى تلك البئر . والى اليمين رأينا درجا نزلناه الى هيكل الابرياء حيث ذبح
هيرود أطفال بيت لحم جميعا . والى اليسار الغرفة التى تلقى فيها يوسف
الوحي ليهرب بالمسيح الى ديار مصر

وفى طريقنا الى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق
التي شراها اليهود من المسلمين وهى المكان المقدس الوحيد الذى ظل فى
أيدى اليهود الى اليوم

وعلى بعد عشرين كيلومترا من بيت لحم بلدة الخليل وفيها مدفن
ابراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الاطهار
على أن البلدة القيناها قدرة متربة ومدفن ابراهيم داخل المسجد الذى لم
يكن يدخله غير المسلمين الى آمد قريب لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول
مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه أما اليهود فممنوعون من دخوله
رغم أن البلدة كلها من بلدانهم المقدسة

جبل الزيتون : أحد الجبال التى تحيط بالقدس ويقع شرقها ويبلغ

علوه ٢٦٨٠ قدما كان المسيح يترىض فيه ويخلو بنفسه ليتعبد ويناجى ربه
ومنه دخل القدس يمتطى حماره فاتصر وتوج ملكا وفى حدائق
الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده ومن ذروة
هذا الجبل صعد المسيح الى السماء . سرنا الى ذلك الجبل المقدس صعدا على

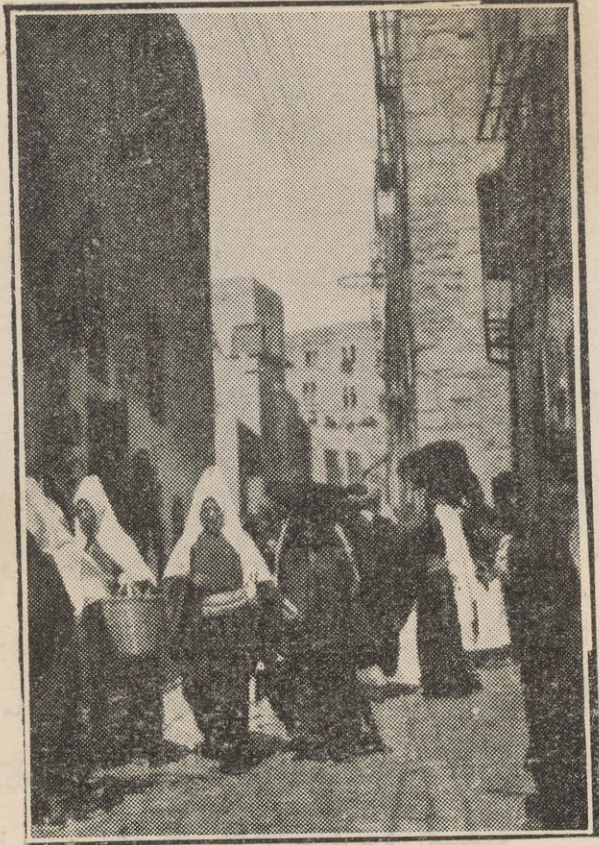


قبر راحيل ام سيدنا يوسف الصديق في الطريق الى بيت لحم
أقدامنا وفي طريقنا اليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح في مغارة سحيقه نزلنا
اليها بدرج عظيم رهيب وقد أقيمت فوقها كنيسة وقد شربنا هناك من مياه
بئر مريم الطاهرة ثم مررنا بعد بمقابر لثلاثة آلاف جندي بريطاني ماتوا في
الحرب الكبرى وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان وفي ذروة
الجبل وصلنا الى مسجد صغير الى جواره قبه تحتها موطىء قدم المسيح يوم
صعد الى السماء من هذا المكان وتصف خارج القبة مذابح متعددة
للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع
الطائفي وفي هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون
خيامهم في الموسم ويقومون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة

القدس كلها من خارج تلك القبة ومن قمة مئذنة المسجد اذ تجلت في رواء وروعة دونها كل وصف وفي أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبد بينما كان صحبه نياما وهنا قبض عليه اليهود وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها أن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لى الوقت زيارتها

الى البحر الميت : أو بحر لوط . أقلتنا اليه سيارة الامنيوس

فأخذنا نسير فى طرق ملتوية تعلو وتهبط فى مهاوى مخيفة وكانت تحوطنا الربى المجذبة الى الآفاق وبعد أكثر من ساعة ونصف بدا البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة . تجلى فى بساط أملس من الماء الازرق القاتم وكان الاغريق والرومان يسمونه بحر الاسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة . امتداده ٤٨ ميلا وعرضه عشرة بحيث يعادل فى مساحته بحيرة جنيف ومستوى مائه دون مستوى البحر بمقدار ١٣٠٠ قدم فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع وأعماقه سحيقة تبلغ فى بعض جهاته ٢٣١٠ قدم ويصب فيه من جنوبه نهر الاردن ويسميه الناس (نهر الشريعة الكبرى) ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف مليون طن من الماء فى اليوم فأن أملاحه آخذة فى الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح فى مائه ٢٥ ٪ . ومن هذه الاملاح ٣٤ ٪ من ملح الطعام و ٦ ٪ كلورور البوتاسا و ١ ٪ بروميد المغنيزيوم وقد حسب مقدار ما يحوى من أملاح



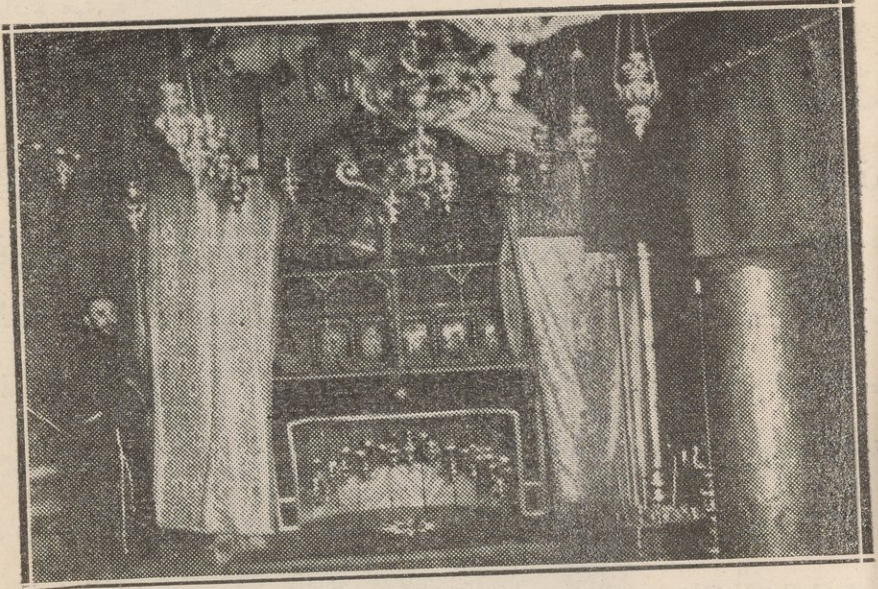
لا تزال تحتفظ بيت لحم بالقديم في الطرق والابنية والازياء

وقدر بنحو ثلاثين الف مليون طن منها ١٥٠٠ مليون طن من البوتاسا
ومن ثم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة ولم تذقت ماءه
كنت وكأني وضعت في فمي حفنة من ملح وملس الماء لبك . ولقد
أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الانجليز وقد مهدت النقل اليه

ببالاوتوبيس وأقامت هناك مقصفين ومسبحين وهي تعد نزلا فاخرا .
نزلت البحر لا سمح قليلا فكان يضايقني ملح الماء جدا إذ كان كأنه مادة
كاوية في العين والفم وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفعني الماء الى
سطحه ولما شجذت جسدي لبثت طافيا فوقه زمنا طويلا وكلما حاولت
السباحة مالت رأسي الى الغوص وظل الجسد طافيا وهذا خطر السباحة فيه
ويحق لهم تسميته بالبحر الميت لان الحياة لا تكاد توجد به قط فبمجرد
دخول السمك من نهر الشريعة اليه يموت ويجده القوم طافيا ونهر الشريعة
ينبع من جبال لبنان ويدخل في طريقه بحيرة جليلي ثم يخرج منها ليصب
في البحر الميت وفي هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام .
ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه وطعمه لا بأس به سقانا غلام
بالمقصف منه ماء مثلوجا وقد أقيمت على ضفاف ذاك البحر وفي جوار نهر
الشريعة نهارا كاملا استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس
المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة في الصيف

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود في مقبرة غائرة تحت الارض
وسط مسجد داود الذي لا يدخله إلا المسلمون ويقال أن سليمان مدفون معه
وقد نقشت حول القبر الآية الشريفة (ياداود إنا جعلناك خليفة في الارض)
ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته فاهم مستمد للماء هناك
أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لامداد البلدة فاذا ما أقبل الصيف نصبت



في مكان تلك النجمة الوضائة التي تضيء فرقها المصاييح صباح مساء
ولد المسيح وحول البقعة تقرم كنيسة مريم اقدم كنائس الدنيا

تلك الاحواض فكان المستمد الوحيد (برك سليمان) الى جانب بيت لحم
تطلق منها المياه مرتين في اليوم لتسير في انايب تؤدي الى صناير الطرق
في القدس وكنت ادهش لتراحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات ويبد كل
منهم (تنكه) ينتظر ليملاها بثمن يكاد يفوق ثمن النيذالر خيص هنالك وكثيراً
ما سمعتهم يقولون أن النييد أرخص لديهم من الماء العذب وفي كل بيت تجد
موضعا لادخار ماء المطر شتاء وفي البيوت الكبيرة يتعاون الماء بسعر المتر
المكعب ثمانية قروش لذلك اعتاد القوم الشح الشديد في الماء وعدم الاسراف

فيه حتى أن متوسطيهم لا يغتسلون إلا مرة في كل شهر مما جعل رائحة
سوادهم منفرة

الى يافا : أفلى إليها الاوتوبيس في نحو ساعة ونصف أو يزيد فسرنا في
طرق معبدة جميلة تلتوى في صعود وهبوط لا يكاد يتصوره العقل والطريق
رغم طوله الهائل ولياته التي تكاد تكون معقوفة على بعضها في مواضع عدة
كسلة بالاسفلت وجوانبه بالحجر وله حواجز بالبناء مما يشهد للانجليز
بالفضل الكبير والعناية الفائقة في تعبيد الطرق فكأنهم الرومان في زمانهم
حين عرفوا أن الطرق خير وسيلة ترتبط بها أطراف امبراطوريتهم وبخاصة
في زماننا الذي سادت فيه السيارات . ولما أن قاربنا جانب يافا كثرت منابت
الزيتون والفاكهة وبعض الغلال كالذرة والشعير الذي يرويه القوم من مياه
الامطار والينابيع وكنا نشاهدهم يدرسون الغلال على الطريقة المألوفة
عندنا . وكانوا أحيانا يسوقون طائفة من البهائم تدور حول الجرن وهي
تدوس السنابل بجوافرها

واسترعت أنظارنا بلدة (الرملة) الكبيرة . اسمها القديم (أرام)
ويقال أنه مدفون بها ثلثمائة من الانبياء والصديقين وبعدها غصت المزارع
بأشجار البرتقال في كثرة هائلة أيدت شهرة يافا . وأخيرا دخلنا المدينة
وإذا بها ربوة مشرفة على ميناء آمن لكن تعوزها النظافة والجمال ورغم
قدم البلدة لم يبق الزمن بها من أثر وهي في الاقاصيص المكان الذي ابتلع
فيه الحوت سيدنا يونس وهي التي وهبها انطونيوس لكليوباترة دليلا على

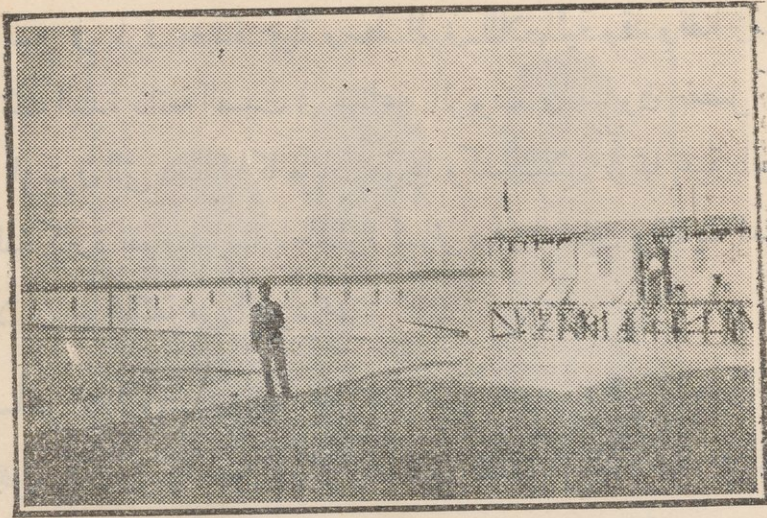


على باب قبة الصعود فوق جبل الزيتون وفيها (يقدمس) المسيحيين
حبه لها وكان لها شأن مع صلاح الدين وقلب الأسد وكذلك مع نابليون
بونابارت

وجل سكانها من المسلمين وتجاورها ضاحية جديدة تسمى « تل
أييب » في فلات أنيقة وتؤدي طرقها في منحدر خفيف الى البحر حيث
أقيمت الحمامات وكل سكانها من اليهود ولقد طنطنوا في وصفها نخلتها جنة
نادرة المثال على أنى أقيمتها عادية

ولقد استرعت نظرى حركة هجرة اليهود الى أرض فلسطين ونشاطهم

في إقامة مستعمرات في كل مكان هنالك حتى بلغ عددهم اليوم هناك مائة
الف نفس مع أنهم منذ مائة سنة لم يزيدوا على ثمانية آلاف ولقد نبتت فكرة
الوطن القومي لديهم منذ ذلك الحين فأخذت الهجرة تزيد الى فلسطين من
جميع الآفاق وساعدهم كثير من مموليهم أمثال رتشلد على شراء متسع
من الارض الزراعيه حتى زادت مساحتها اليوم على مائة وعشرين الف
فدان في الريف لكن لا يزال سوادهم في المدن الكبيرة ففي القدس ٣٥
الف وفي يافا ٢٠ الف وكثير منهم في حيفا وطبرية وصفد والخليل وفي تل
أبيب وحدها أكثر من عشرة آلاف على أن اليهود لا يكونون أغلبية الا
في القدس فقط أما في سائر البلاد فهم أقلية بالنسبة للمسلمين وانجلترا اليوم
جادة في خدمتهم ومعاونتهم على جعل البلاد وطنا لهم لكن ذلك دفع
المسلمين والمسيحيين أن يتضامنوا لمقاومة ذلك وكانت روح الكراهية
والاhebung للقتال بادية لنا هناك وقد تجلت لنا في معاكسة اليهود للمعرض العربي
الذي أقيم هناك وكانوا معتمدين على الحراب الانجليزية لذلك لم أعجب لما
قرأته عن الانفجار الاخير الذي رج البلاد وهدد بمتابعة الثورة حتى توقف
حركة اليهود لكنها سياسة التفريق والتظاهر بمعاونة الاقلية هي التي تلعب
دورها في الشرق الاذني كله خصوصا وان أمل انجلترا معقود على المقام في
فلسطين بعد أن بدأ الضعف في مركزها بمصر والعراق فقامت تشييد الحصون
وتقييم المين للاساطيل وبخاصة في حيفا وتحرض اليهود على الهجرة الى
هنالك لأنهم أطوع لها من الاعراب الذين أوتوا من العصية وروح

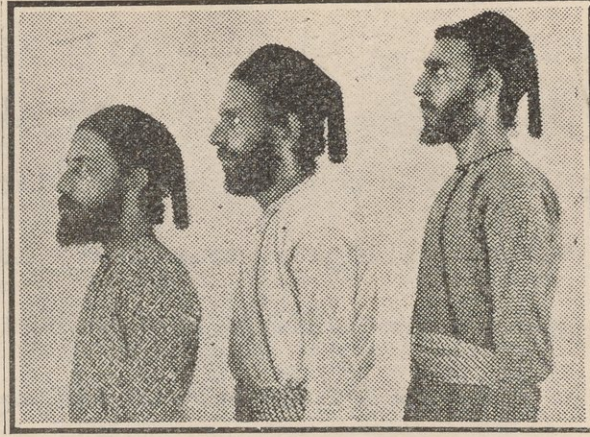


على شواطئ البحر الميت أوطاً منخفضة الدنيا وأملح بحارها

المقاومة شيئاً كثيراً ولقد اتبعت الحكومة خطة اجلاء الاعراب عن
أملأهم بالقوة وهم يبيعون أطيب الاراضي لليهود بثمن بخس . وكانت
تلك المستعمرات تبدو في حدائقها ومزارعها اليانعة طيلة طريقنا الى شمال
فلسطين والحكومة تأتمن لليهود وتطمئن لهم في غالب الوظائف والشئون
الحرية وهي لا تتوانى في منحهم كثيراً من الامتيازات المالية والتجارية
وساعدهم على ذلك كثرة أموال اليهود واستعدادهم لانفاقها في هذا السبيل
لكن المسلمين والنصارى حانقون جداً الحق على ذلك والحكومة تحاول
إغراء العرب أن يتوطنوا في شرق الاردن تلك الجهات المجذبة التي هي
الى البادية القاحلة أقرب .

إلى دمشق الشام: قمت إليها في سيارة قطعت بنا ٣١٥ كيلومترا
وأخذنا نسير في طرق معبدة جميلة وسط الرنى اللانهائية وقد وقفنا زمنا في
نابلس تلك البلدة ذائعة الصيت في صناعة الزيوت والصابون بفضل كثرة
أشجار الزيتون التي بدت لنا كالغابات حولها وكذلك لان تربتها غنية بالصودا
وهي بلدة كبيرة تقوم مبانيها بالحجارة كسائر مباني فلسطين والمدينة اسلامية
بحثة الا أن بها طائفة من اليهود هم:

السامريون: ويدعون أنهم من نسل يعقوب ولهم مذهب خاص
ولغة عجيبة يؤدون بها صلواتهم فوق جبلهم المقدس (جريزيم) في جنوب
نابلس وهم يعتقدون أن سيدنا ابراهيم قدم ذبحه فوقه ولذلك يقدمون
الذبايح من سبعة حملان ذات لون أبيض وعند سلخها ترش بالملح لان القرابين
لا تقبل في زعمهم دون أن تكون مملحة وتشوى شاة فوق البقعة التي قدم
فيها ابراهيم الخليل ذبحه وهم يحرمون الانصاب والصور التحريم كله
والعجيب أن عددهم لا يزيد على مائة وخمسين وقد لبثوا محافظين على شخصيتهم
ومذهبهم من عهد سيادة مملكة بني اسرائيل منذ ٢٥٠٠ سنة ولعلمهم أقدم
الفرق الدينية في العالم وقد أبوا أن يختلطوا بالمصاهرة مع غيرهم من اليهود
فحفظوا سحنهم الخاصة التي رأيناها في شوارع نابلس وكاد يؤدي بهم ذلك
الى الانقراض وهم يقولون بأن مدينة القدس هي نابلس ولا يعرفون
حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر
اليهود ويبتلون كل نبوة كانت في بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام وبعد



قسس الساهريين

يوشع عليه السلام فيمكنذبون بنبوذة داود وسليمان مثلاً ولا يقرون بالبعث البتة
وهم لا يستحلون الخروج من الشام أبداً وهم يزعمون أن التوراة التي بأيدي
سائر اليهود محرقة أما تلك التي بأيديهم فأصلية على أنهم لا يخرجونها للناس
أبداً ويقولون بأن الله أمر داود أن يبنى بيت المقدس في جبل (غريم) أو
جبل نابلس وهو لديهم الطور الذي كلم الله فيه موسى فخالف داود الأمر
ويقولون بأن التوراة نزلت بلغتهم وهي قريبة من العبرانية ثم نقلت
إلى السريانية

عرجنا بعد ذلك على الناصرة وهي البلدة التي رضى فيها المسيح طفولته لذلك
كانت مقدسة عند المسيحيين وكثرت فيها الكنائس وكان سواد سكانها منهم
وبعدها أخذنا نتساق ربى كانت تشرف على البحر الجليلي العذب وفيه يصب

نهر الشريعة من جانب ويخرج من الآخر وهو النهر الذي عمد فيه المسيح عليه السلام . هويتنا الى ذلك البحر ويسميه بعضهم بحر طبرية ودخلنا بلدة طبرية التاريخية التي تقع عليه وهي مدينة رومانية اقيمت على تلك البحيرة وغالب مبانيها من الحجر الاسود الذي يكثر حولها وكانت من الحواضر الرومانية وبها قلعة قديمة رأيناها مشرفة ولقد تناولنا الغداء على ضفاف ذلك البحر التاريخي المقدس . ثم قمنا مودعين أرض فلسطين تلك البلاد المقدسة التي لا يكاد يمضي فيها أسبوع بدون أن تقام بها حفلة دينية للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود وبعض تلك الاعياد مشتركة اذكر من بينها زيارة النبي موسى الذي يحج أهل جميع الاديان اليه فوق التلال شمال البحر الميت حيث مات سيدنا موسى والبلاد لا تكاد تخلو يوماً من الغرباء الذين يحجون اليها من كافة الاديان حتى عاون ذلك كثيراً على ماليها الفقيرة . وأول ما عرف الانسان تلك البلاد كانت تحمل اسم (بليشيت) في نطاق ضيق بين جبل الكرمل (غرب حيفا) والساحل وحدود مصر وكان يقطنها شعب غير سامي اسمه فلشتم أو فلسطين ثم أطلقت الكلمة على البلاد التي نزلها اليهود

اجتازنا نهر الشريعة عند منطقة الحدود بين فلسطين وسوريا والنهر نحيل ماؤه ضحل جلسنا على ضفافه حتى فتشت امتعتنا وفحصت جوازاتنا وبعدها كنا نسير في أرض سوريا شبه الصحراوية التي كانت تنتشر بالحصى الاسود ولا يكاد ينبت بها زرع لذلك بدا الاقليم أكثر جداباً من سابته وهنا أخذنا نجوز تلال حطين التاريخية ثم تلال :



السامريون يقيمون صلاتهم فوق جبلهم المقدس

الدروز: وتزينها قراهم الفقيرة وهم قوم شدادالبأس غالبوا الفاتحين
وآخريهم الفرنسيون ويقال أنهم يعبدون الشمس ويعتقدون في تناسخ
الارواح وان روح القليل تدخل جسداً غيره وهذا ماشجعهم على لقاء
الموت وقد حدثني القوم أنهم كانوا يهاجمون المدافع ويمسكونها بأيديهم
مستهينين بالموت وهم لا يحزنون عند موت أحدهم لاعتقادهم في بقاء روحه
ويقول البعض أنهم يعبدون الحاكم بأمر الله ويرون أن الله خلق عدداً
محدوداً من الارواح الآدمية تحل بعد الموت أجساد المواليد الجديدة

ولا يشربون إلا الماء واللبن ولا يأكلون إلا ما ينتجونه من أرضهم
وقطعانهم ويلبسون من غزل أيديهم وهم يتعبدون خفية فلا يراهم أحد
وينتشرون في قراهم الممدودة بين جبل السكرمل والبحر الجليلي
بدا الطرف الجنوبي لجبال لبنان في ربي جافة مغبرة وقد لمحنا بقعاً
منشورة من الثلج الأبيض فوق الذرى وهو الذى يغطى الجبال كلها فى الشتاء
ومن مصهور الثلج لا قينا جدولا نحيلا كأنه الشعبان فى لياته المعقوفة وهنا بدأت
الحضرة وعمت المزارع ثم باغتتنا منظر دمشق الى شرق الجبل وكأنها غابة
مغلقة فى وهدة تقوم من حولها النجاد الجافة وبخاصة من الغرب

دمشق : دخلنا الشام كما يسمونها وهى أقدم مدن الدنيا إذ لا يعرف

متى بدأت ويرى القوم أن عادا أول من نزلها وأنها إرم ذات العماد ومنهم قائل
بأن منشئها نمرود أو دمشقاق بن كنعان وبعضهم قال أن أول من بناها
دمشقس مولى الاسكندر وبعضهم ينسبونها الى الروم وهذا يكذبه ورودها
فى التوراة على لسان موسى الكليم على أنها قديمة صحبت ملوك كنعان
والروم وآل جفنة وبنى أمية وقد هدم أبو جعفر كل مملكاتهم فيها فلم يبق
إلا النادر

وأول ما استعنى أنظارنا فيها كثيرة المعسكرات الفرنسية التى تحوطها
هذا الى كثيرة أنواع الجند وفضلا عن أبناء البلاد رأينا جنود الفرنسيين
والسنغاليين والمغاربة مما يشعر بأن فرنسا لا تزال قلقة على مركزها فى
تلك البلاد المضطربة يؤيد ذلك ما سمعناه مرارا من أن فرنسا تفكر فى التسحى



بعض الدروز يملأون جرارهم من احواض الماء

عن الانتداب لأن بقاءها يكافئها غالباً فأغلبية البلاد الساحقة تقاوم الانتداب ولا ترغب الا في الاستقلال ولقد انفجرت البلاد في سنة ١٩٢٢ محاولة طرد الفرنسيين فأعمل الفرنسيون قنابلهم في البلاد وهدموا منها الكثير وفي دمشق حتى كامل متهدم يسمى (الميدان) كان مخبأ الدروز والمسلمين وقد اتفقوا على محاربة الفرنسيين وظلوا يقاومونهم اربع سنين كلفت فرنسا مائة الف جندي ومبالغ طائلة من المال وقد قص القوم على عجا في مقاومة الدروز لفرنسا . حدث مرة أن القائد الفرنسي قام بعشرين الف جندي ليؤدب الدروز في جبالهم فلم يرجع من الحملة جندي ولا دابة ولم تستطع فرنسا أن توغل في البلاد بعض الشيء الا باستهواء طائفة من المارقين

وجلبهم من غير المسلمين وأخذت تساعد على نشر الملاحى وتستميل القوم
بالمال والنساء ولقد حدثنى شيخ عن مبلغ الفساد وانتشار الرشوة وقال بأن
صاحب الحاجة لا يقضى طلبته إلا بأحد أمرين المال والنساء وقد لاحظت
كثرة المراقص ودور الملاحى الفرنسية فى كل أرجاء البلاد

والشبان مندفعون فى تيارها وتلك طريقة لاشك تنال من الاخلاق
كثيراً وتنسيهم واجبهم القومى ولقد بدا الفرق عظيماً فى تلك الناحية بين دمشق
والقدس ففى القدس لا يباح التبرج ولا البغاء مطلقاً ودهشت مرة لما رأيت
دلالاً فى سوق البلدة يطوف (بفرنغراف) ليبيعه فاستوقفه رجل البوليس
وخبره أن ادارته فى الطريق أمر غير مباح فى ذلك البلد المقدس

حللت نزلاً وسط الميدان الرئيسى لدمشق يسمونه (ميدان مرجه)
يتوسطه عامود تذكارى والى جانب منه نهر صغير يشق البلدة ويسمونه
بردى أو (أبانا) ماؤه ضئيل آسن ولا يلبث النهر أن يجتفى بمائه الضئيل
منساباً تحت أرض المدينة وشوارعها مسافات طويلة وقد رصفت جوانبه
الظاهرة بالحجارة وأطلت عليه فخر المباني وبخاصة الحكومية والميدان يعد
مركز حركة النقل من ترام وغيره والى ورائه شارع النصر وكان اسمه من
قبل شارع جمال باشا يتوسطه متنزه مزدوج تصف فيه المقاعد ويؤدى
أحد طرفيه الى سوق الحميدية ولعله أجمل نواحي المدينة وأكثرها حركة
يحكى الموسيقى عندنا وسقننه مقبى فى بوائك من حديد يكسوها الزنك وقد
عرجت هناك على فرع بنك مصر لاصرف بعض النقود . والسوق ينتهى



نهر الشريعة حيث عمد المسيح عايمه السلام وعند القنطرة الحد الفاصل بين فلسطين وسوريا

بعض البوائك الاثرية في الهندسة البيزنطية التي أدت بنا الى :

المسجد الاموى : دخلته فراعنتى فجامته وفسيح أبرائه ودقيق نقوشه. فهو حقا مفخرة فنية اسلامية تتوسط فناءه الرئيسى نافورة أنيقة للوضوء وفى جانب منه مدفن رأس الحسين تجاورها شعرتان من لحية الرسول وخارج الحجرة طاقة من فضة مزركشة يسمونها خزانة يزيد بن معاوية وما أن دخلت اللوان الرئيسى الداخلى حتى وقفت مبهوتا من عظمة ما رأيت ببوائك

شاهقة تتوجها أقيية أخرى صغيرة كسيت بالقيشاني الازرق البديع تمتد الى قصارى مسارح النظر وتزين الجدران نقوش يحار فيها اللب أما المحاريب والمنبر فمن مقصوص الرخام المطعم في أسراف كبير . وفي وسط كل هذا مدفن سيدنا يحيى والمسجد أصله معبد روماني حوله المسيحيون كنيسة مارى حنا ثم جاء المسلمون فأقاموه مسجداً تزينه عدة منارات مختلفة الهندسة وكان ذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك كلفه ١٤٤ قنطاراً من الدنانير أى نحو عشرة ملايين دينار وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة وكان في ذلك المسجد ستائة سلسلة من ذهب تعلق فيها المصابيح وزينت جدرانه بالفصوص والذهب الخالص وقد كتب عليه بالذهب على اللازورد (ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذى الحجة سنة سبع وثمانين) ويقولون أن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة

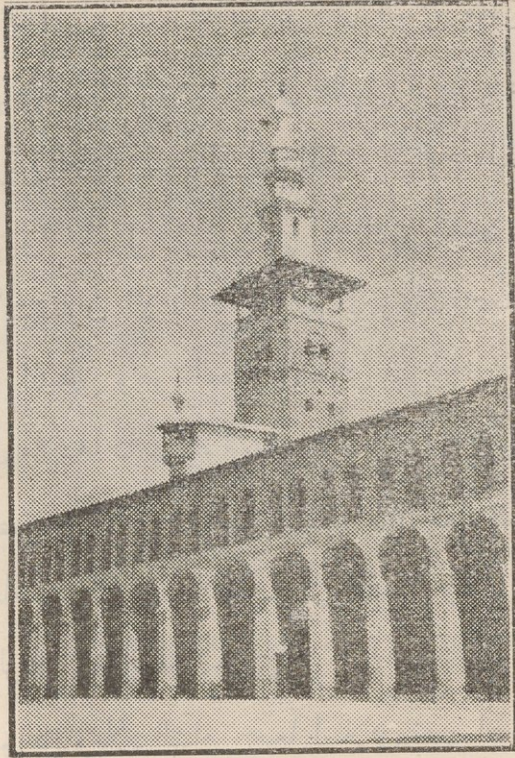
قبر صلاح الدين : في ناحية منزوية من الحى الذى بجانب المسجد الاموى قادنى الغلام وسط ازقة حتميرة الى قبة غير ذات بال حولها مجموعة من شجر فى غير تشذيب لا تسكاد تسترعى نظر المارة قط وقال هنا مقر صلاح الدين بجانبه قائده نور الدين فوقتت خجلا مبهوتا وقلت فى نفسى اهذا الضريح يناسب متمام بطل الاسلام الذى اعترف له بالفضل حتى ألد أعدائه وضربوا المثل بعظمته وشهامته ! انها والله لو صمة عارفى جبين الاسلام أن يكون جزاء حاميه هكذا . ومن يدفن فى دمشق معاوية نفسه



وسط ميدان مرجة الرئيسي في دمشق

المتحف . والى جوار المسجد الاموى دار قديمة أقيم بها متحف الآثار وهو على صغره مقسم الى ثلاث غرف الاولى للآثار العربية وبها مجموعة قيمة من أسلحة وأحجار ولعل أجمل ما بها مجموعة النقود التي أهداها تيمور المصرى وتحوى نماذج من أغلب نقود الخلفاء كلهم وقد استرعى أنظارنا دينار هرون الرشيد وصلاح الدين وعبد الملك بن مروان وأعجبها دينار فيصل الذى سكه يوم حكم سوريا وظن أن ملكه سيدوم ولم يظهر من هذا الدينار سوى أحد عشر فقط إذ لم يدم ملكه أكثر من ستة أشهر وفى الغرفة الثانية مجموعة من الآثار الاغريقية والرومانية . وفى الثالثة خليط من آثار بابل وأشور والكلدانيين وغيرهم وأمام المتحف دار الكتب العربية وبها مجموعة قيمة من المخطوطات رتبت فى

صنوف مختلفة من التفسير والتوحيد والحديث والجغرافيا والكيمياء
الخ وبها حجرات أعدت لمن أراد الاطلاع من الناس جميعاً
وفي المدينة كثير من البيوت الاثرية القديمة على الطراز العربي والتركي
أجملها دار العظم فناؤها فسيح تتوسطه نافورة جميلة وتطل عليها حجرات
وليوانات من رخام رصع في نقوش عربية ساحرة
ومن الطرق التي تروق السائح كثيراً الشارع المستقيم سمي كذلك لانه
يمتد وسط البلدة القديمة كلها من باب الشرق وهو جزء من السور القديم
الى ما يجاور سوق الحميدية ولكنك تدهش إذ تجده ملتويا وفي غير استقامة
ويسميه الناس أحيانا شارع مدحت باشا ونصفه المجاور لسوق الحميدية شبيه
بالسوق في تقوس سقفه وانتظام المتاجر حوله أما باقيه فأزقة لا شأن لها على
أنه يروك ما فيه من بيوت قديمة وصناعات يدوية دقيقة وفي آخره زرنا
مصنع النحاس (للنعمان) وهو أشهر مكان في دمشق في اشغال النحاس
المثقل بالنفضة في نقوش ومخطوطات جميلة وتلك شهرة لدمشق من قديم
وغالب طرق البلدة ترصف بالحجارة الصغيرة التي تؤلم الاقدام في السير
وهي حجارة من بازلت أسود عظيم الصلابة يكثر مستمده حول المدينة
وفي دمشق خمسة خطوط للترام واحد يؤدي الى الميدان وهو اليوم مكان
خرب من أثر قبائل الفرنسيين وآخر الى ناحية يسمونها (دوما) على بعد خمسة
عشر كيلو مترا نصفها الاخير بساتين يانعة ممدودة ثمارها دانية تتوسطها
المقاهي ولك أن تتناول من الفاكهة ما طاب لك بدون حساب أو رقيب
وكان شجر المشمش إذ ذاك مثقلا بثمره في أنواع قد تفوق الاثنى عشر في



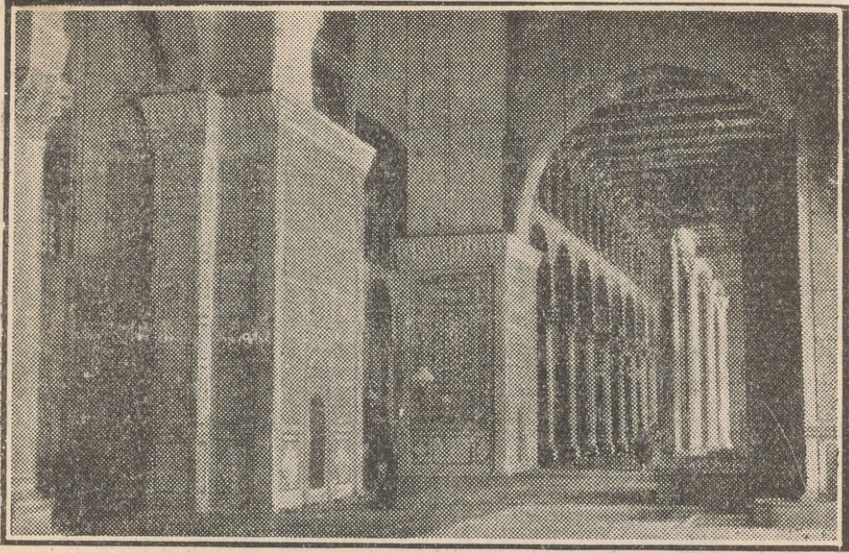
مئذنة المسجد الاموى فى دمشق

حلاوة ومذاق شهى . ولعل أجمل ناحية (المهاجرين) وهى على ربوة
تشرف على دمشق كلها فيبدو المنظر ساحرا . هناك جلست على مقهى فأسرع
الرجل الى يقدم كوب ماء مثلوج والى جانبه كأس صغيرة (بيضة) فى قرارها
قطرات من القهوة (السادة) وتلك من آدابهم فى تحية القدوم ثم طلبت
الشاي الذى أنعشنى وسط تلك الجنة الخلابة والحي مسكن الطبقات الراقية
كسله بيوت مشيدة من الاحجار فى جمال وجدة والمارة يسيرون فى وقار

والنساء محجبات بتمناع أسود ثقيل ويرتدين ملاءات على النظام المصرى السابق والرجال مختلفو الأزياء المتقدمون فى السن مطربشون يلبسون (القفاطين) عليها (الجاكتة) والشبان فى حللهم الغربية بعضهم بالطرايش والبعض بالقبعات . والعامه فى سر اويلهم الثقيلة المنتفخة والاحزمة العريضة والكل مؤدبون وهم أهل كرم وميل الى اللهو وخصوصا يوم السبت والاحد حيث لا يشتغلون الا بالمجون والتهتك وتلك سمعة البلدة من قديم حتى منذ عصرها الذهبى وهو العصر الاموى فهى كانت عاصمتهم ولما انغمس أولئك فى ملاذها دالت دولتهم على يد الوليد بن يزيد

وهم يحبون المصريين الا أن فى حديثهم شيئا من الجفاء فمثلا سألت أحدهم عن ترام لجهة خاصة وكان قريبا فنظر الى مقطباً وقال : هيك بتشوف الرقعة بتشوف الرقعة ! فى نعمة آلمتى

ومظهر دمشق بل وبلاد الشام جميعاً اسلامى بحت اذ أغلب القوم من المسلمين وقد تجلى هذا المظهر ليلة مولد النبي فلقد قصدت المسجد الاموى لصلاة العشاء فكان غاصا بالناس على سعته وبعد الدعاء خرج الجميع فى مظاهرة يتقدمها الشباب يحملون السيوف والاعلام والعصى وكان بعضهم يصيح بالادعية الدينية والبعض بالنداءات الوطنية مثل (ابن سوريا مايهان ! الحرية والاستقلال !) وانتهوا الى ميدان مرجة ووقفوا يهتفون طويلا أمام دار الشرطة ثم ساروا الى دار مجلس الوزراء وهتفوا طويلا ولم يتدخل البوليس حتى انصرفت المظاهرة بسلام وكانت تزين أضواء الكمبراء دور



المسجد الاموى من الداخل آية فنية ومفخرة اسلامية كبرى

الحكومة كلها وتطوق ابواب المتاجر اقواس من اغصان الشجر وسطها الثريات وتكسى الجدران كلها بالبسط (السيجاد) في كثرة تسترعى النظر وفي التاسعة مساء آويت الى النزل واذا فيه مهرجان لقراءة قصة المولد وكان يحضرها حفل حاشد وتلك عادتهم في كل بيوتهم وغالب فنادقهم فاعجبني ذاك المظهر الاسلامى وشدة محافظة القوم على تقاليدهم اكثر مما نراه عندنا وفي آخر الحفلة طافوا علينا يرشون ماء الورد ويقدمون اكياس الحلوى ومن المسلمين هناك اقلية غير سنية وبخاصة طوائف الشيعة الذين رأيت بعضهم هناك وعلمت أن جلهم يقطنون قرى الجبال الغربية وجلهم من فلول طائفة الاسماعيلية وهم من غلاة الشيعة قاموا لهدم الاسلام في فارس وامتدوا

الى جميع العالم الاسلامى ، أساس مذهبهم أن الغاية تبرر الوساطة وان كل
شئ مباح ويرون أن روح الانسان من روح الله العليا ويشكون في
وجود الله وكان الاغتيال المنظم مرماهم يدبرون لقتل الخلفاء وذوى النفوذ
والسلطان من المسلمين وهم الذين نظموا طائفة (الباطنية) نسبة الى الامام
الباطن المستور وقفة (الفدائية) يلقون في افهام بنيهم أن الدين يأمر
بالاستهانة بالحياة نظير المتاع الكامل فى الآخرة فكانوا يربون الاطفال على
المخاطرة والقتل فى غير خوف وكان لهم معاقل فوق رؤس الجبال يحوطونها
بالحدائق الغناء بشلالاتها وجداولها وقطوفها وزهورها ويدعون الفتيان الى
حضرة شيخ الجبل وهناك يسقيهم الخمر والمخدرات فاذا ماغاب لبهم
نقلوهم الى تلك الحدائق ومقاصيرها التى زودت بالرياش الفاخر وهناك
تشجيهم انغام الموسيقى فاذا ما أفاقوا لمسوا نعيم الجنة فى القطوف الدانية
والكؤوس الذهبية والغيد الحسان وبعد أخذهم بقسط من هذا المتاع
يسقون المخدر ثانية فتغيب عقولهم ثم ينقلون ثانية الى حيث أتوا ويوهمون
أنهم لم ينقلوا من مكانهم وأن ما رأوا طيف الجنة التى وعد الله بها من
ضحى بنفسه ولقد قال البعض بأن الذى كانوا يسقونه هو (الحشيش)
يزرعونه بكثرة فى تلك الجهات ولقد أطلق الاوريون على تلك الفئة من
السفاحين الذين كان لهم شأن فى الحروب الصليبية فئة الحشاشين (Assassins)
ولا تزال منهم بقية فى جبال الشام ومعنى تلك الكلمة الافرنجية اليوم
(السفاحون)



تحت تلك القبة المتواضعة يدفن صلاح الدين بطل الحروب الصليبية

والمعيشة في بلاد الشام رخيصة ولعل الاجنبي يلاحظ ذلك أكثر من ابن البلاد لان الجنيه الانجليزي كان يساوي ٣٠ قرشا سوريا أي نحو أربعة ليرات سورية وربع ووجبة الطعام التي كنت أدفع فيها عشرة قروش مصرية من أفخر الاكلات الشهية، حدث مرة اني اشتيت (الكباب) فدخلت أحد المطاعم وجاء الغلام يقول : طلبك خيو فقلت : كباب وكفتة ولعل الكفتة عندكم شهية قال : أ كثير شلية ! قلت هات لي نصف رطل فوقف

الرجل دهشا فكررت عليه الطلب فجاءني يكسدس أمامي مقداراً هائلاً من اللحم هو رطلان ونصف فقلت ما هذا كله ؟ قال نصف رطل وعلت أن الرطل السوري يقارب خمسة أرطال مصرية فأكلت ما يقارب أوقية على حسابهم وتركت الباقي وهو ثلاثة أرباع ما قدم لي ولم يكن ثمن كل هذا كبيراً إذ طلب مني اثني عشر قرشاً مصريةً

وفي مطعم آخر قرأت قائمة الاطعمة فتخيرت الاسماء الغريبة التي لا أعرفها كي أجربها فكان الصنف الاول (مألوبي شامي) أي مقلوبة شامي فجاءني الرجل بطبق من الرز اغرق في لبن حامض وفي وسط ذلك نثير اللحم فدقته واذا به منفرد وكان الصنف الآخر (بقلي) واذا بها الباقلة الحقاء (الرجلة) التي لا أحبها فوليت صوب الحلوى وطلبت صنفاً اسمه (بوطة شامي) فاسفرت عن (دندرمه) من الفستق والشمام والبطيخ محتلطة فكانت منعشة نوعاً ولو أني لا أشتهي (الدندرمه) كثيراً فقلت في نفسي كفاني فأنا اليوم غير موفق في الطعام فلا أطلب بعد اليوم من الاصناف ما أعرفها

غادرت دمشق تلك البلدة التي تخرج بنحو ربع المليون من السكان في أزيائهم المختلفة وسجنهم الجميلة وأن أفسد من هذا الجمال منق منق مطوط وروح تعوزها الرشاقة والخفة . قمنا صوب :

بعليك : مسيرة مائة وعشرين كيلو متراً بالسيارة سلكناها في طرق

ملتوية واسترعى نظرنا في الطريق قبر (العظم) من قواد السوريين الذين

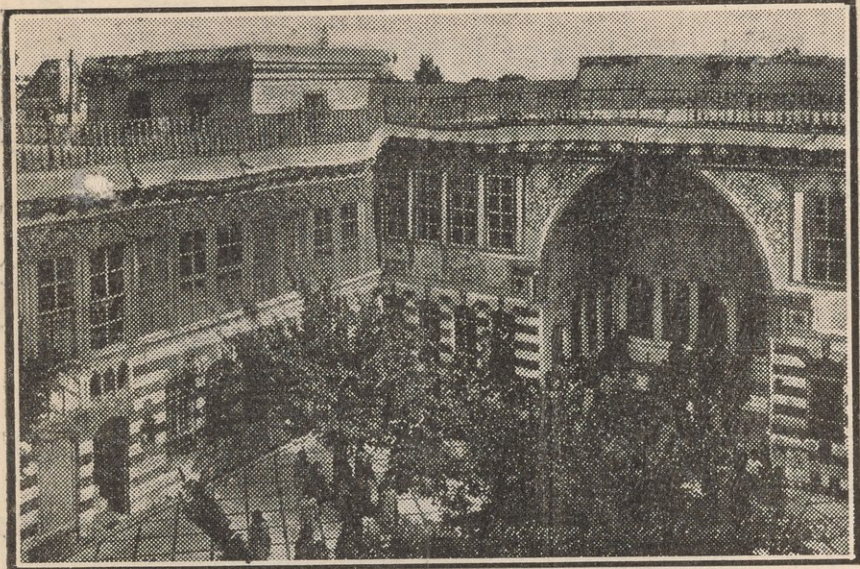


ضريح صلاح الدين الايوبي

قتلوا في الحركة الوطنية في هذا المكان ، هنا دخلنا حدود لبنان الكبير وفرنسا
تقسم ادارة البلاد قسمين : سوريا وهي جمهورية لها رئيس وطني تحت اشراف
فرنسا وتلك خطوة ارغمت عليها فرنسا لما رأت من شدة مقاومتهم لحكمها
أما القسم الثاني فلبنان وعاصمته بيروت وتلك ولاية فرنسية لم تعط من المنح
ما أخذته سوريا وفي اكثر من نصف الطريق مررنا بزحله احدى المصايف

الهامة وكانت تكثر حولها المزارع الوفيرة الثمر فأرجأنا زيارتها حتى نعود
وأخيراً دخلنا

بعليبك: آخر الآثار العظيمة لروما الوثنية وعلى مقربة من نهر العاصي
وهي قرية قديمة ليست بذات بال اتخذها الروم محلة لان موقعها صحى الى جانب
نبع ماء كبير يتفجر من تحت شرفات الصخر فى غزارة هائلة فيتجمع فى
تقعة ممدودة اقيمت عليها المطاعم التى تناولنا فيها الغداء الشهى واستمتعنا
بهوائها البارد المنعش العليل لان البلدة تعلو البحر بنحو ١١٢٠ متر تقريبا
وأجل ما يزوره المرء بها الآثار الرومانية التى أقاموها فى هندسة خليط من
الرومية والبيزنطية ويقولون أن الذى بنى المدينة فى الاصل سليمان بن داود
ولما جاء الروم جددوها وكان (بعل) معبودا فيها من الصابئة الذين بنوا هذا
الهيكل ليدلوا على اقتدارهم وهو الذى يقول الله تعالى فيه (اتدعون بعلا وتذرون
أحسن الخالقين) ولما ظهرت المسيحية وأيدها الروم أخذوا فى تخريبه مخافة
أن يفتن الناس به لانه كان أفخم من كنائسهم ، رأينا فراعنا فخامته وبخاصة
معبد (جبت بعل) بقى من عمدته الاربعة والخمسين ستة فقط تشمخ فى الجو
فى علو ستين قدما ومحيط تيجانها ٢٢ قدما وقد نقلت صخورها من محاجر
البلدة التى تبعد عن المكان بنحو كيلو متر وهناك بعض أعمدة من رخام
استحضرت من مصر مما أيد مبالغ جبروت القوم وتقديسهم لآلهتهم وكم
قاست المعابد من مغيرين حاولوا تدميرها وزلازل أوشكت أن تدكها
لكن مابقى من تلك الآثار يؤيد صمودها لمختلف الديانات التى تعاقبت

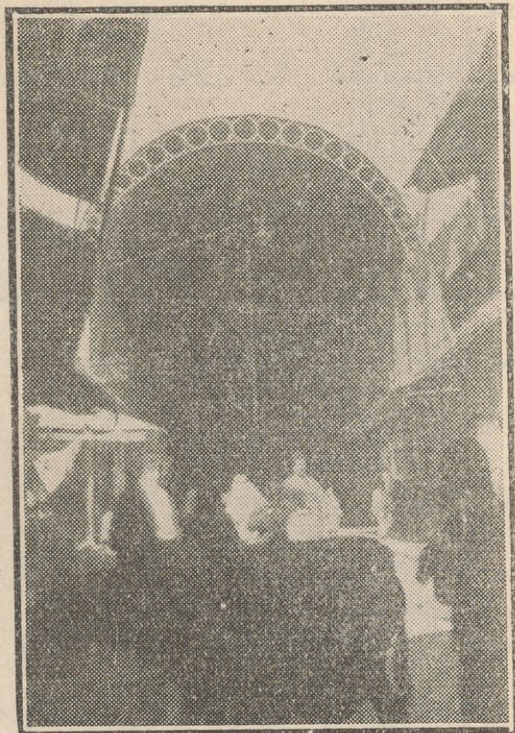


أقدم بيوت دمشق واجماها في الحي الاسرائيلي

عليها في أزمنة كانت العصيات الدينية آخذة من الناس كل مأخذ ولقد أشار
قدماء المصريين والاشوريين الى بعلبك في آثارهم وأسموها (بلييكي) مقر
عبادة (بعل) وجاء الاغريق والفوا بين الاله بعل وآلهتهم (هيلوس)
وأسموها (هليوبولس) ولما تملكها الروم الفوا بين (هيلوس) ، (جوبتر)
ومن ثم خصوا المعبد الرئيسي بجوبتر آله هليوبولس وانتشرت عبادته حتى
في ايطاليا نفسها والذي شاد تلك المعابد التي أثارنا هو (أنطونيوس
يوس بين ١٣٨ ، ١٦١ م) ولقد أذكرتني تلك الآثار الشاحنة بمخلفات
أجدادنا التي نطاول بها الامم ففي جدران البناء رأينا صخوراً هائلة طول
الواحد ٦٤ قدما رفعت الى علو ٣٣ قدما فعجبنا كيف أمكنهم رفعها تيك

وفي المحاجر المجاورة للبلدة رأينا صخراً قد في الجبل كأنه المسلة العظيمة
 لكن لم يتم القوم استخراجها كالمسلة التي رأيناها في محاجر الجرانيت بأسوان
 وطول هذا الصخر سبعون قدماً وزنه ألف طن ولما جاء العرب أقاموا
 بالمدينة عدة مساجد من الصخور والاعمدة التي انتزعوها من تلك المعابد
 ولا يزال جانب من المسجد الكبير يرى بيوائسكة وأعمدته الى جوار تلك
 الآثار وفي قرية بجوارها اسمها (كرك نوح) قبر سيدنا يعقوب

زحلة : مدينة انيقة من اشهر مصايف لبنان تحل مازقا من وادي
 تحوطه الجبال وتندلى منها سيول الماء في كل مكان وتقوم على المنحدرات
 الفلات البديعة بسقوفها الحمراء المنحدرة ويتوسطها النبع الرئيسي
 وقد قدت في الجبال طرق ملتوية بعضها يعلو البعض حتى يبلغ بنا
 الذرى ويكاد الشجر والنبت يسد الوادي سدا وأينما سرت أو جلست
 اطربك خريير الماء وراقك منظر هداراته ومن النبت البرى ما له زهور
 جذابة ورائحة عطرية واسترعى نظرى شجر الجوز الضخم عريض الورق
 فكان يحكى شجر المطاط وكان يحمل وسقا ثقيلًا واذا نضج ازاح القوم
 قشره الخارجى لتتخذ منه الاصباغ وما بقى هو الجوز الذى يباع في
 اسواقنا ولورقه رائحة عطرية هادئة تعطر اليد اذا لمسته وتعقب المكان
 اذا وضعت فيه وقد نسق القوم جوانب الوادي وضفافه وأقاموا عليها
 الانزال التي يبلغ عددها أربعة عشر والمطاعم والمقاهى التي لا يحصيها العد
 وتفننوا في حبس الماء الدافق وتحويله الى قنوات تسير يمنة ويسرة فأينما



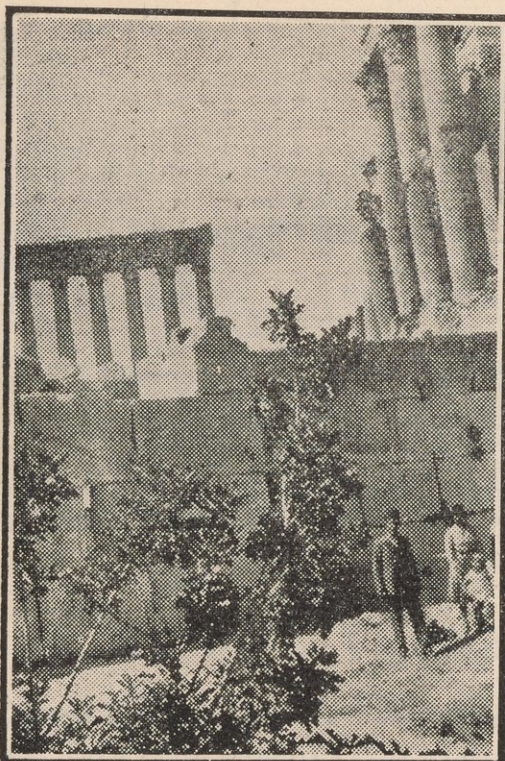
سوق الحميدية في دمشق ويؤدي الى المسجد الاموي

جلست كانت المساقى تنساب تحت قدميك وطعم ماؤها لذيذ كأنه مثلوج وأنت
تشرب منه المرة تلو الاخرى دون أن تشعر بامتلاء ويقولون أنه مصلح
للمعدة لما حوى من المركبات الجيرية المفيدة . وكم أعجبنى نشاط القوم
وعصبيتهم فكل المشروعات فى أيديهم قاموا فحسبوا الماء فى جهات عدة
وأداروا به الهدارات المولدة للقرية بعضها يستخدم لطحن الغلال والبعض
للاضاءة الكهروبائية والبعض لعمل الثلج والبعض للسقى ولا تكاد ترى

وسطهم أجنيا وقد كان الوادى مهملًا وهو من أملاك اليسوعيين شروه
بجنيهات قليلة لكنهم اليرم يستغلونه استغلالًا مدهشًا فإيجار الفندق الواحد
قد يناهز ألف جنيه في العام وغالب سكان البلدة من المسيحيين والتعليم في
أيدي المبشرين . وجو البلدة منعش اميل الى البرودة حتى كنت أشعر وكأنى
في شتاء مصر لان علو البلدة فوق تسعمائة متر والمعيشة فيها رخيصة فلو انى
أرغب في مقام هادى لما آثرت على زحلة غيرها لما فيها من طبيعة غنية
وهدوء شامل وجمال ساحر وهواء منعش وماء شاف سلسيل . ولرواد
الجبال هناك مجال عظيم فللتسلق غرام لا يقدره الا هاويه . علمت بأن النبع
الرئيسى للجدول (ويسمونه أم العين) يهوى فى شلال علوه ٢٤٠ مترًا
فقصده واذا المرتقى اليه وعر يكاد يكون عمودياً لكن منظر الماء وهو
يهوى ويتعثر على نواتى الصخر فى شلال هائل أغرانى أن أصعد وبعد لائى
كنت فى ذروته وأذا به يخرج من قلب الصخر الساموى فى اندفاع مخيف

الى حلب : غادرنا زحلة بالقطار الساعة العاشرة صباحا صوب حلب

فوصلناها فى ثمان ساعات وكانت الطريق أشبه به بسهل جاف الا فى بقاع
نادرة يزرع القوم فيها الغلال وبخاصة الشعير والقمح وأكبر البلدان التى
مررت بها : حمص : وهى مدينة كبيرة متحضرة بها مسجد عظيم بناه خالد
ابن الوليد والسهل حولها خصب كثير المنابت وبجوارها قبر خالد بن
الوليد ثم تبعتها فى الاهمية : حما : وتقع على نهر العاصى الذى يصب فى
البحر الابيض عند انطاكية وقد بدا جدولا صغيرا كان يتلوى أمامنا فى



إلى جوار انقاض بعلبك

ليات عجيبة وقد أقيمت عليه النواعير التي تدور بدفع التيار لرفع المياه الى الاراضى المجاورة ويرجع بعضها الى زمن الرومان وفي المساء دخلنا :

حلب : فجت بعض أرجائها فبدت مدينة كبيرة صبغتها اسلامية بحته

بمساجدها المتعددة غالبها على الطراز التركي بمنأره الدقيقة وقبابه المتكررة

وقد زرت من بينها المسجد الجامع ويعدهونه المسجد الخامس في الشرق

الادنى وهو عظيم الامتداد ترصن أرضه بألوان الرخام المنسقة وتحوطه

البوائك ويضم رفات سيدنا زكريا أبي يحيى عليهما السلام وأعجب ما فيه
مئذنته المربعة ويرجع عهده الى بنى أمية

وبالمدينة قلعة قديمة تشرف من ربوة شاهقة بنيت فوقها من أحجار
ضخمة وحولها حفرة كأنها الخندق العظيم يجتازه بقنطرة ويحتل القلعة
جنود فرنسا وفي أقاصيص العرب أنها أقيمت على ثمانية آلاف عمود
ولعل أعجب شيء في البلدة أسواقها فهى واطئة مغلقة تحت قباب حجرية
كأنها السرايب المشعبة وهنا قلب المدينة النابض من الناحية التجارية إلا
في بعض الحوانيت الحديثة التي صفت على جانبي الشارع الجديد وهو يصل
المدينة بمحطة الشام وهو أكبر الشوارع وأجملها وكثير من الدور أقيم على
النمط التركي يبدو كالمساجد وتطل منه المشربيات العديدة . ومياه حلب
رديئة شحيحة غالبها من الآبار تباع بسعر قرش (للتنكة) ويشق البلدة
نهر جاف تقوم عليه القناطر العدة وكان غامرا بالماء ابان حكم الاتراك ثم
قطعوه اليوم عن البلاد وحولوا ماءه الى بلادهم والمدينة غاصة بالمقاهي
ودور الملاهي في قسمها الجديد وغالب الملاهي مراقص بعضها عربي والبعض
فرنسي شهدتها فكان الرقص شائناً تكشف الراقصة عن فخذيها وصدرها في شكل
ينافي الآداب والشعب يهتز لتلك السخافات ويحتاج . ويظهر أن موارد
البلاد محدودة لدرجة أن الحكومة توقفت قليلا عن دفع المرتبات أول هذا
الشهر (يولييه) على الرغم من أن أنواع الضرائب كثيرة متعددة ومن
أعجبها ضريبة المتعة وهي ليرة وربع في العام على كل راشد بين ١٦ و ٦٠ سنة
فقيرا كان أو غنيا وكذلك ضريبة النشر فكل اعلان يخرج للناس يلصق



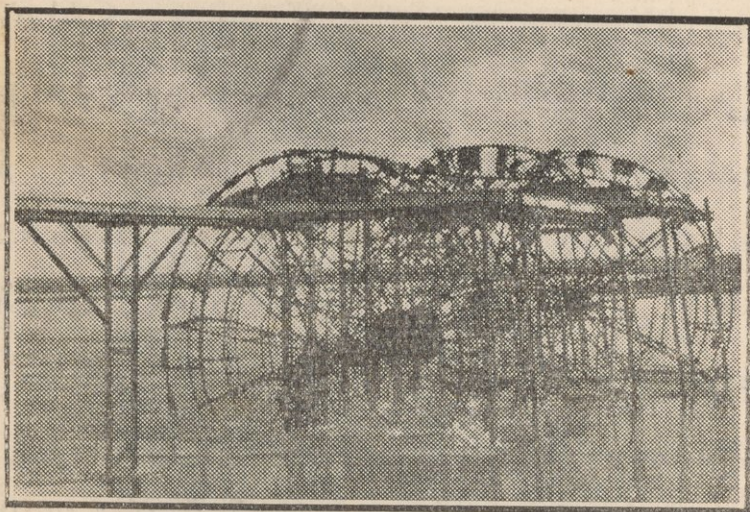
وسط بقايا المسجد القديم في بعلبك

عليه طابع الضريبة حتى اعلانات السينما ترى طابعاً برقع قرش سورى عليه فانظر كيف يحصلون على الاموال ونحن في مصر لانستطيع تحصيل شىء من الضرائب وتتساءل فيقال الامتيازات البغيضة فهلا تكاتفنا على الغائها فنوفر مبالغ طائلة ننفقها في رفع الامية ونشر الثقافة في البلاد ويظهر أن العصية الدينية شديدة هناك فكل طائفة تحاول الاضرار بغيرها وهم متفرقون يكدون لبعضهم على أن العنصر الاسلامى هو السائد وفي البلاد حركة للتخلص من كل ما ليس سوريا في الوظائف والاعمال الحرة والجرائد ناشطة في الكتابة تشجيعاً لتلك الناحية ولو أفسدها اتهام كل حزب الآخر بالتعصب وقدما كانت بلاد الشام نكدة الحظ رغم

كثرة خيراتها وذلك لانها عرضة للغارات بين الشرق والغرب وهذا ما يقوض من عمراتها ويزيد تدهورها ما هم فيه أبدا من شقاق وتحزب فكأن ظهور المرسلين فيهم هو الذى دعا الى هذا التحزب المقيت

إلى الاناضول : قمت مبكراً فى قطار ٦٤٠ صباحاً الى أنقرة

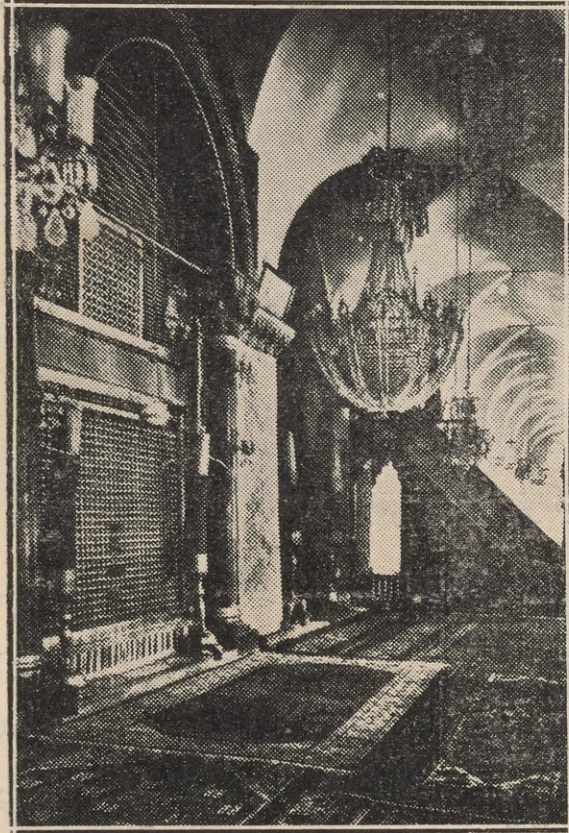
فسار بنا القطار وسط سهول ممدودة غالبها صخرى شبه صحراوى مهمل ولما دخلنا الحدود التركية بدأت الجبال والربى المعقدة وأخذت تتلوى سكة الحديد ودخلنا انفاقاً لاحصر لها وكلها واصلنا السير أخذنا فى الصعود لتغالب ليات الجبال وارتفاعها المتزايد وأخذت تكسوها الشجيرات ثم أوغلنا فى تيه من الاتفاق بعضها كان القطار يستغرق فى اختراقه ربع الساعة وكانت المناظر حولنا ساحرة خصوصاً كلما فاجأتنا الوديان السحيقة تتلوى فى قيعانها الغدران النجيلية أما الاهلون فنادرون فى تلك البقاع فلا يكاد البصر يقع على القرى الا الصغير النادر وتلك هى مجموعة جبال طوروس بصخورها الجيرية وبين آونة وأخرى كانت طيات الصخر تبدو فى ألوان قاتمة أو براقه مما يشعر بقدم الصخر وكثرت ورقائق الشيسست ولذلك لم نعجب لما سمعنا بكثرة المعادن هناك مثل الحديد والنحاس والفضة والكروم والميسكا. وحوالى الرابعة مساء دخلنا سهولاً أخفت من حولها الجبال وزاد النبات وكثرت مسايل الماء على أن ماءها كان ضحلاً شحيحاً فكان المنظر شديها بمصر المحبوبة وفى وسط هذا السهل وقفنا على :



نواعير الماء التي شهرت بها حلب

أدنا: من كبريات مدن جنوب تركيا وبعدها عادت الجبال وانفاقها
ومناظرها الساحرة. والحق أن سكة الحديد هناك تدل على مبلغ جبروت القوم
في مغالبة القوى الطبيعية الهائلة ويفاخر الاتراك أن هذا الجزء المعقد كله
أقيم بمجهود أبنائهم ولم يكن للاجانب فيه دخل قط وسكة الحديد كلها
بيد الحكومة التركية بعد أن كان جملها لشركة فرنسية وقد شروا كل المشروعات
الاجنبية في سائر بلاد الاناضول فاضحت تركية بحته. ظل القطار في صعوده
ولياته وانفاقه حتى أقبل على سهل فسيح تتوسطه قونيه: وكان وقوفنا بها
الثانية صباحا فبدت مدينة ممدودة هائلة تحكي احدى البنادر الرئيسية عندنا

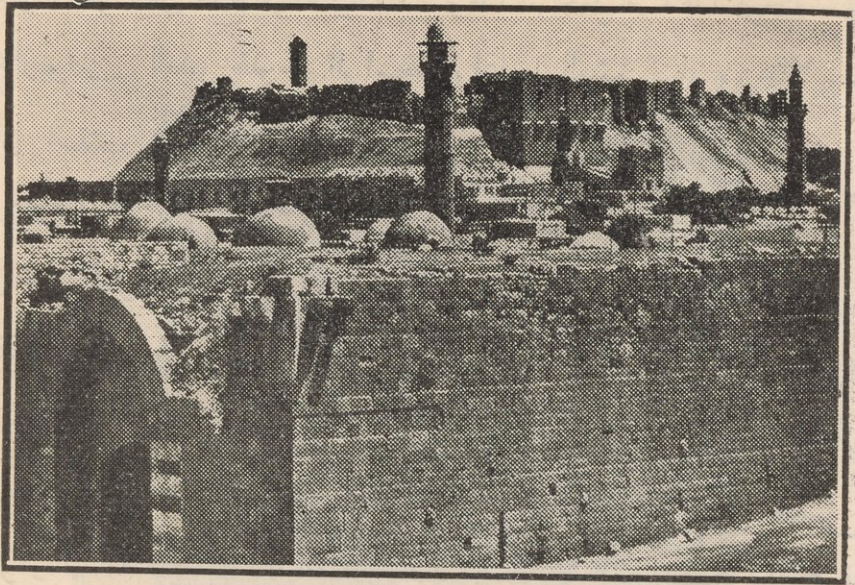
وكانت أضواؤها الكسهر بائية مشورة وضاعة وقد علمت أن فيها مدفن
أفلاطون الحكيم وقبر جلال الدين الرومي المعروف بمولانا واليه تنسب
طريقة (المولوية) ولبثنا نسير في تلك السهول الغنية طويلا وهي تزرع
على المطر ويعوزها المران المصرى الزراعى كى تغل اضعاف ذلك فمشروعات
الرى تكاد تكون معدومة والايدى العاملة نادرة وأدوات الزراعة عتيقة
كالمحراث المصرى يحجره البقر والشادوف ينزل دلوه الى الآبار الغائرة
وينتشل منها باليد أو الدواب ومظهر البلاد كلها يبدو اسلاميا بحتا فقى كل
القرى تبدو المآذن التركية الدقيقة ولم نلمح كنيسة واحدة فى كل تلك
البلاد الى انقرة وكثيراً ما كنا نمر بالناس يقيمون الصلاة فى حقولهم وعلى
رءوسهم قبعاتهم فى كثرة أشعرتنى بأن النزعة الدينية مازالت قوية . وكانت
تحصد الغلال كالقمح والشعير أما المراعى من البقر والضأن فلا حصر لها اذ
هى المورد الرئيسى وكان اللبن والجن يبيعه الصبية فى كل المحاط وبخاصة
اللبن الحامض الذى يشربونه بدل المرطبات جميعاً . والخيل مطيتهم الرئيسية
وبيوت القرى بالحجارة الصغيرة متحدرة السقوف لكن طرقها ضيقة مهملة
ردية والاهلون يرتدون حللهم الافرنجية وعلى رؤسهم القبعات (فى شكل
الكسكت) والنساء سافرات لا يفترقن عن الافرنجيات وقد ساغ هذا
الاتقلاب الاجتماعى اليوم للناس بعد أن كان معارضوه كثيرين فى بدئه
شأن كل جديد وشتان بين حالتهم يوم زرتهم فى اسطنبول سنة ١٩٣٠
وبينها اليوم . دخلنا أفيون قره حصار : ومعناها (قلعة الأفيون السوداء)



مقبرة سيدنا زكريا داخل المسجد الجامع في حلب

لان أحسن منايبت للافيون تقوم حولها ولان قلعها تعلو فوق ربوة سوداء هائلة
(٨٠٠ قدم) جعلتها منيعة والمدينة كبيرة وتقوم وسط سهل تربته مختلفة بعضها
في لون أسود والبعض أصفر والبعض جيري يكسوه الحصى ولا تقوم المدن
الكبيرة هناك الا وسط الوهاد المبسوطة التي تنأى عنها الجبال وعند ما وصلنا

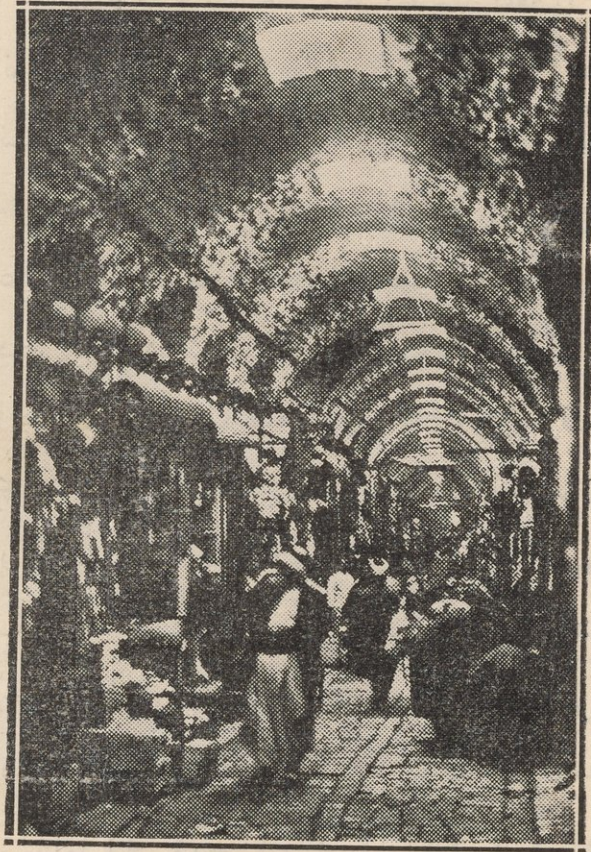
اسكى شهر : أخذت سكة الحديد تتفرع الى عدة نواح وهى مركز زراعى
وتجارى هام وبها مصنع لسكر البنجر يمون قسماً كبيراً من البلاد ويوتها
حجرية ومن طابق واحد وبجوارها رأينا مدرسة الطيران التى لا يزال البناء
فيها مستمراً وفى جوار المطار هناك استشهد فى حرب الاستقلال خمسة
آلاف تركى سفك اليونان دماءهم ظلماً فأقامت الدولة لهم مدفناً فاخراً كتب
عليه (مدفن شهداء الوطن) وكان يرمقه المسافرون جميعاً بنظرات الأكبـار
وعند الاصيل قبيل دخولنا انقره بساعتين وقفنا بمحطة كبيرة اسمها : بولاتلى
وهنا كانت الموقعة الفاصلة بين الاتراك والاغريق الذين اجتاحوا البلاد من
أزمير الى هنا وكانوا يطمعون فى احتلال انقره ومحو تركيا من الوجود
وكانت تعاونهم على ذلك بعض الدول العظمى وامدتهم بالمال والاسلحة
ولكن بفضل وطنية الغازى وسحر بيانه استحث الحماسة التركية فاستمات
الاتراك فى الدفاع عن حوزة الوطن نساء ورجالا فسحقوا فى هذا المكان
الجيش اليونانى عن آخره وقد حفزهم على ذلك ما كان يأتىه اليونان من
الفظائع فى قتل أهل القرى واحراقهم وهناك أيضاً أقاموا مدفناً فاخراً
للشهداء سرت اليه وانخبت اكبـارا وقرأت لاولئك الابطال الفاتحة وقد
نزل معى من القطار أغلب ركابه وهم يشيرون اليهم قائلين هؤلاء بقيادة
الغازى هم الذين طاردوا العدو واكتسحوه حتى القوه البحر وراء أزمير
وطهروا البلاد منه وكان عدد العدو الذى هلك ٣٤٠ الفا مع أن عدد الاتراك
لم يزد على ٤٥ الفا . ذكريات خالدة كان يقصها على بعض أبناء



مدخل سوق القلن في حلب وتشرف عليه قلعة المدينة وكانها الطود الشامخ

الاتراك والوطنية تكاد تنفجر من وجناتهم وكان الغازى يأخذ نصف
أملاك الناس ومتاعهم جميعا للانفاق على الجيش على أن يردها اليهم بعد
النصر وكان القوم يقبلون ذلك قبولا حسنا ولا تزال الدولة تسدد لهم
ديونهم هذه الى اليوم . وبعد أن أجلوا الاغريق ومكثوا لانفسهم في
الجهات الغربية ولوا وجوههم صوب الحدود الداخلية فطاردوا الارمن الى
ماوراء أرضروم وبحيرة فان وأخذوا بلاد الاكراد وأعادوها لحظيرتهم
وانمحت دولة كردستان من الوجود ثم طاردوا الفرنسيين والزموهم حدود
سوريا الطبيعية وراء جبال طوروس . دهشت من هذا الفوز في اناس
يكادون يكونون عزلا وكان يطوقهم العالم من جميع جوانبهم ولكن كيف

يكون أعزل من صح عزمه وصدقته وطنيته وجعل نفسه فداء لوطنه . كانوا
يحاربون العدو بقلوبهم الراسخة وإيمانهم الوثيق نساء ورجالا وبعد
أن استتب لهم النظام العسكري قام الغازي العظيم يصلح البلاد من
وجوهها الاخرى اجتماعيا واقتصاديا فبدأ سياسة الانشاء والتعمير وأخذ
في تعبيد الطرق ومد سكة الحديد وهي في نظري تعادل أرقى الخطوط الاوربية
نظافة ودقة يديرها الاتراك في نشاط حميد ثم أخذ يمهّد للشركات الوطنية
ويعاونها بالقروض والتسهيلات حتى كثر عددها جدا وأسس المصارف
الوطنية وأخذ يقيم الابنية في البلدان الكبيرة وبخاصة أنقرة على أحسن
طراز ثم أنه لم يغفل حالة الفلاح فقد كانت الاراضي ملكا لطائفة قليلة
من الاغنياء فمثلا كانت سهول ادنا الشاسعة ملكا لعائلة واحدة فابتاع كل
المساحات الشاسعة وقسمها قطعاً صغيرة باعها لصغار الفلاحين بشروط سهلة
واتخذ نفسه مثلاً حسناً أذ وهب من أرضه الكثير وأعلن ان أملاكه جميعها
لن تورث أحدا من عائلته بل سترثها الدولة وهو يكاد يكون معبود القوم
جميعاً كلما حدثك أحدهم عن البلاد ذكره بالخير وفاخر باسمه وحتى
معارضوه قد قل عديدهم جدا وذلك شأن المصلح الذي يغامر ويخدم مبدأه
دون خوف وكلما ظهرت ثمرات أعماله أحبه الناس وأيده خصومه ويكاد يتفق
الجميع على أنه ليس في البلاد سواه هو ووزيره عصمت ورشدي فهم القوة المنشئة
المنفذة يرتب الغازي الفكرة ويغامر بتنفيذها واثقاً من النجاح . وفي شؤون
التعليم قام بقسط من الاصلاح كبير فأدخل في المدارس أحدث النظم ومحا



سوق حلب كانه السرداب الحجري

العتيق وسهل اللغة بالحروف اللاتينية التي تعلمها الجميع وقد فرضها على الناس
الى سن الاربعين نساء ورجالا ومن زادت سنه فله الخيار وقد علمت
أن الجميع حتى الشيوخ يقرأونها اليوم بسهولة يؤيد ذلك كثرة الجرائد التي
كان يقرأها الفلاحون ويتخاطمونها من القطار على سداجة منظرهم ورث

ثيابههم ولقد جعل التعليم إجباريا وقسم المدارس الى ابتدائية وثانوية وعلية
وجعل برامج التعليم قومية وطنيه لا يتعلم الطالب اللغة الاجنبية الا في
المدرسة الثانوية ولم يختصها بلغة معينة فبعض المدارس تعلم الانجليزية
والبعض الفرنسية وهي الغالب والبعض الالمانية وهلم جرا وهو لا يحتم على
الطالب اضاءة جل وقته في اللغات الاجنبية كما نفعل في مصر لان ذلك لا
شك سيكون على حساب التوسع في العلم نفسه فهم ويعلمهم مبادئ اللغة ويترك
التبحر لمن تخصص بعد وهناك قسم لترجمة مستحدثات العلم الى لغة البلاد
لذلك وجدنا صعوبة كبرى في التفاهم معهم لان من يعرف الفرنسية أو
الانجليزية لا يجيدها قط بل لا يكاد يتفاهم بها وهم متعصبون للغتهم جداً
لا تراهم يكتبون بطاقتهم ولا عنوانات متاجرهم الا بها في حروفها اللاتينية
والغازي يتعقب بنفسه الكلمات التي من أصل عربي ويمحوها ويمنع استخدامها
منعاً باتا ويحل محلها كلمات تركية صميمة وقد كانت الالفاظ العربية شائعة بين
الطبقات الممتازة وفي اللغة الرسمية من قبل أما اليوم فيحاول محوها

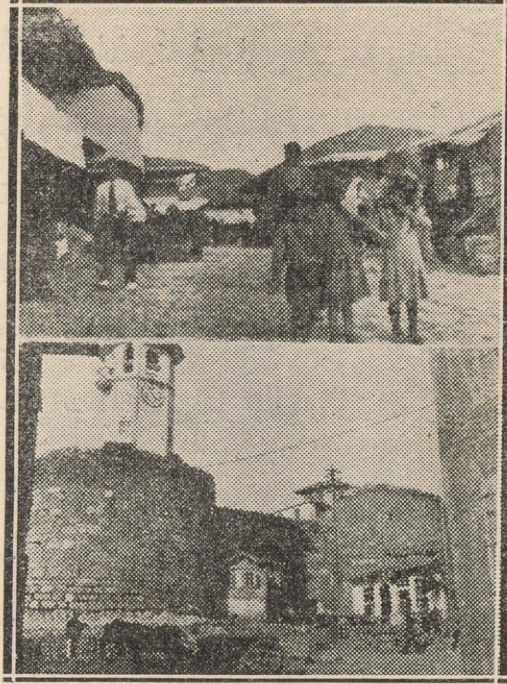
أنقرة: دخلناها ليلا فبدت أضواؤها خاطفة وثريرات الكهرباء بها
منشورة على الرابي وفي السهول في مشهد جميل وقد أقيمت قبل أنقرة مباشرة
ضاحية (الغازي) حيث يقوم قصره وتمتد حدائقه المنسقة امتداداً فسيحاً
وهي تكاد تلتهب ضوءاً. حلت نزل (أناضول) وقمت في الصباح أجوب
انقرة واذا بها قسمان قديم وحديث فالقديم في ازقة الحجريّة المتحدرة
وبيوته المكتظة الصغيرة المطلة بشرفاتها نصف العربية ولياتها غير المنظمة



الغازى مصطفى كمال باشا، بطل النهضة التركية

تشرف عليها قلعة المدينة في ربوة شاهقة وتقوم كثير من الابنية على منحدراتها
وتعوزها النظافة وحسن البناء وفيها يدفن أمرؤ القيس وقد فتحها المعتصم الخليفة
العباسى وفيها وقع السلطان (بلدرم بايزيد خان) اسيراً فى يد تيمورلنك
سنة ١٤٠٢ هـ. والقسم الحديث يعادل أرقى البلدان نظاما قصوره فاخرة بولغ

في ضخامتها وتجميلها والطرق به فسيحة ومنابت الكلاً تحفها الاشجار في امتداد رائع وفي وسط غالب الميادين تقوم تماثيل الغازى ولعل أجملها ميدان (ملت ميدان) والغازى يمتطى جوادا ووراءه تركيا في امرأة عجوز تحمل قبلة ووجهها مقطب كئيب وقد أعيأها التعب والى جانبها الامامى جنديان باسلحتهما يكشفتان الطرق ويتأهبان للفوز . والمدينة على صغرها كثيرة الحرمة أهلها أهل نشاط وشعور عجيب بالعزة القومية شأن كل أبناء الاتراك وهم جميعاً مؤدبون كريمو الطبع يزين ذلك وقار ورزانة جعلت لهم مهابة وأنفة وهم غخورون بفوزهم لا يفتأ الواحد يقص عليك نبأ حرب الاستقلال ويمجد لك في تركيا وما فيها ويعتذر عن بعض النقص والتأخر في البلاد الترية فحركة الاصلاح لم يمر عليها عشر سنين وقد خالفت الحكومات الماضية للحكومة الحاضرة تراثاً موبوءاً أثقيلاً يتطلب الاضطلاع به واصلاحه مجهود الجبارة وأموال الملايين وكم كان عجبى عظيماً عند ما كنت المس حركة النهوض في كل شىء وفي سرعة عجيبة رغم عوز البلاد المسالى الشديد لكن الاخلاص وخالو البلاد من الدخيل هو الذى اكسب القوم قوة تدفع بهم الى النجاح المتواصل وحتى في الناحية الدينية هم يمتدحون للغازى تصرفه فقد أوقف كل الترهات والشعرذة التى تحط من شأننا وشأن ديننا شيراً وحرمة الزواج بغير واحدة وأباح للشباب انتقاء خطيبته وحتم على المرأة التعليم على قدم المساواة مع الرجل فما دخلت مكتبتاً أو متجرأ الا وكان للنساء فيه عمل واضح وحتى فى الصلاة تقام الشمائر الدينية ويدخل

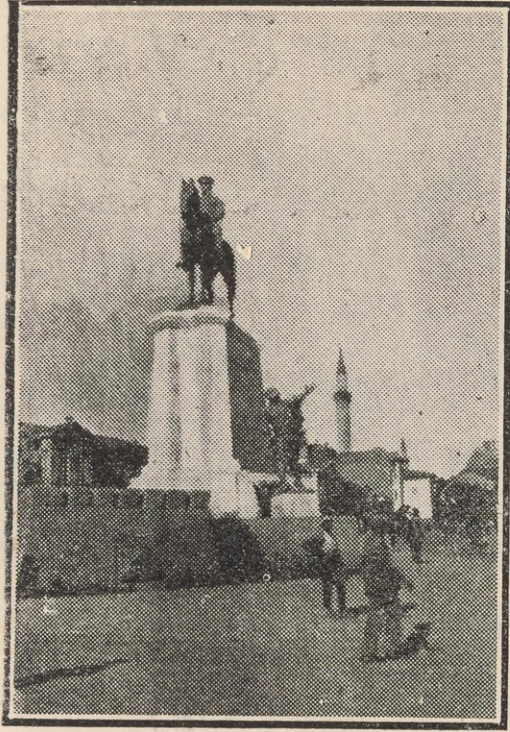


مثل من الاحياء القديمة الاثرية وتحتها القلعة

الناس المساجد بالقبسات ان شاءوا خلعوها ووضعوها على الجمالات في جوارهم وان شاءوا اداروا افاريزها الى اقفيتهم وأدوا الصلاة مثباً بذلك أن الدين لا يحتم زياً خاصاً قد يقدم بتقديم الشعب حتى عن الحركة والنشاط وكنت كلما جلت في البلدة وتفقدت مختلف نواحيها زادني الاصلاح الذي يجري بها سراعا دهشة و اعجابا . صعدت الربوة المشرفة على أنقرة حيث القلعة القديمة ونقبت في أزقتها التي تضم طائفة من الاهلين في أكواخ بائسة وكان يبدو على الناس الفقر وهم في أسماهم المهلهلة ولكنهم كانوا رغم ذلك

ثخورين بتركيتهن واستقلالهم وما فائدة الغنى في الاسر والاغلال ! وكانت تتجلى من دوننا أنقرة الجديدة في طرق فسيحة وقصور مشيدة بولغ في تنسيقها وتضخيمها وبخاصة دور الحكومة والدولة آخذة في إقامة العمارات في كل مكان وفي تنسيق المنتزهات للشعب تفتح أبوابها دائماً وتعزف فيها الموسيقىات كل أصيل وبخاصة في متنزه البرلمان الذي تزينه الابنية وأحواض من الماء مدرجة صفت المقاعد حولها فكنت أرى الجماهير يغص بهم المكان والنساء سافرات يختلطن بالرجال في رزانة وصمت وهدوء حتى كان يخيل الى انى فى مونت كارلو تماماً

والدولة تقصد بعزف الموسيقى هكذا أن تدرب آذان الناس على الانغام الغريبة فأذا طوحت ببصرك لمست اخلاص الدولة وتفانيها فى النهوض بكل شىء وكنت أتساءل من أين لهم تلك الاموال ونحن رغم توافر مواردنا لا نفى بالواجب . حقاً أن كل قرش هنالك يدخل خزانة الدولة ينفق فى التعمير والانشاء . ويزيد اعجابنا إذا علمنا أنهم ينفقون على جيش كبير بمعداته وطياراته وبواخره هذا الى الهمة المدهشة التى يبذلونها فى ربط اطراف البلاد بسكة الحديد رغم تكاليفها الباهظة فى تلك البلاد الجبلية الوعرة فالخط الى البحر الاسود مد الى طربزون وفى شرق أنقرة كاد يصل الى أرضروم وفى الجنوب وصل البحر الابيض وفى الجنوب الشرقى وصل الى نصيبين . كل هذا كان يدهشنى والحكومة فقيرة والناس معوزون ولكن كفى بالاستقلال معيناً على ذلك فغياب الاجنبى من المجال الاقتصادى

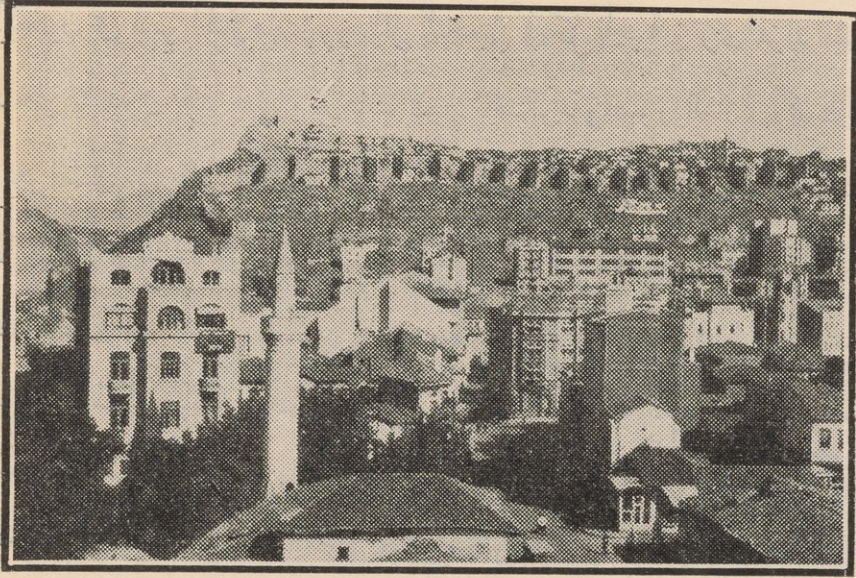


تمثال الغازى وسط ملت ميدان

أفسح المجال لآبناء البلاد فعدوا إلى التقدّم سراعا وأنت لا ترى اليوم للاجني
فى بلادهم من أثر قط

ونساء الأتراك رغم سفورهن بعيدات عن الخلاعة والاسراف فى
التزين فهن يسرن فى وقار وهن فى نظرى لسن ساحرات فى الجمال والجمال
القاتن نادر بينهم فالشاميات أوفر جمالا كذلك تعوزهن الرشاقة ولم يقع
نظرى على سيدة تحكى (كرمان هانم) ملكة الجمال لديهم ولذلك لم أعجب
لا تتخابها رغم أنها دون ذاك المقام فى ظننا لكنى أعود فامدح فيهن هذا

الاتزان والوقار فالتركية زوجة فاضلة لا محالة وكنت ألاحظ كثيرين
منهن يلبسن ملاءات وفوق الرأس قناع أسود كالستار لكنه بدل أن يسدل
على الوجه يرفع فوق الرأس فظننت أن هذا من أثر الرجعية الأولى
وتكثر هنالك المقاهى والمقاصف وفي غالبها تسمع الحاكي بانغامه التردية
وأغانها الشجية ويظهر ان الكثير منهم ميال الى المسكرات وبخاصة (العرق
والزيب) فما يكاد الليل يقبل حتى تراهم عاكفين على شربه ولا يخف قرع
الزرد ليلا ولا نهارا . دخلت مرة مغنى تركيا شرقيا على نمط (الف ليله)
في مصر فكانت الآلات الموسيقية : السكمان والعود المعدنى والقانون يعرف
بالمضارب لا بالاصابع ثم الرق والناي وامام كل أولئك سيدتان في حشامة
ووقار وكانت الاغانى مقطوعات على نمط الموشحات تتقدمها الموسيقى الصامدة
في بشارف قصيرة ومقطوعات مثل (اللونجا) ولم ألاحظ بينهم عادة التقاسيم
الفردية من العود والسكمان وغيرها . اعقب ذلك فاصل آخر عرض فيه العازفون
بعض الموسيقى الاسبانية في شبه طنبورة ومزمار طويل ودن وكان يلبس
العازفون اردية عجيبة من سراويل ضيقة (وجكسات) زرقاء ورئيسهم في معطف
اخضر طويل وامام أولئك صنف من السيدات تغطى رؤوسهن بمنطقة
بيضاء . بدأوا العزف في دور موسيقى صامت ثم اعتبه مغنى حماسى
ثم رقص اسباني يصحبه تصفيق من الفتيات وصيحات من الرجال فيما
يحكى (الرقص البلدى) عندنا فكان الطرب آخذا منا كل مأخذ فقلت في نفسى
لم لا يحاول معهد موسيقانا عرض مثل هاتيك الشرقيات فيعطينا فكرة عن



أول ما بدأ الانشاء فيما جازر القلعة

موسيقى جيراننا : الاندلس والمغرب والشام والترك والعرب وهي اقرب الى
اسماعنا من موسيقى الغرب التي لاتروقنا كثيرا ؟

قصدت الى مقر الغازى حيث قصره المنيف يشرف على ربوة حولها حدائقه
ودونها حى (تشان كايا) الحديث فى طرقة الممدودة وقصوره الفاخرة وهي
مسكن الطبقات الارستقراطية ودور السفارات ومن بينها سفارتنا كنت
اعجب لاختيارهم انقرة فى ذلك الموقع المجدب الجاف تحيطه الربى التي عريت
عن النبات فى منظر غير جذاب على أن موقعها المتوسط من هضبة الاناضول
وسهولة تحصينها بسبب ما يحوطها من ربي يبرر فى نظرى هذا الاختيار اذ

لو اقيمت في اطراف الدولة وهي أوفر خصبا لتعرضت لهجمات العدو والقوم
مبالغون في نشر المتزهات ووسائل التجميل في كل ناحية وترى افراد الشعب
يدخلونها بدون قيد حتى متزهات دور الحكومة وقصور الغازى وكنت ارى
ديمقراطيتهم بادية في تجاور الفقراء بأسمالهم الرثة وهم الاغلبية الى جانب
الاغنياء . وعناية القوم بأطفالهم زائدة فكنت ارى الاب المدقع في ثيابه البالية
يحمل طفله في هندام نظيف ووجه ابيض ناصع لا تشوبه قذارة قطر الرجال
يعنون بأطفالهم ونساءهم فترى زوجة هذا الفقير في اردية نظيفة فلا تكاد تصدق
انها زوج ذلك الصعلوك . واجمل ما يروك هندام الضباط من الجيش والبوليس ،
مظهرهم مهيب في ملابس أنيقة على نقيض الجنود فأرديتهم رديئة مهلهلة والغريب
ان كل اولئك الافراد على مظهرهم الرث يقرأون ويكتبون وقد علمت أن
نسب من يعرفون القراءة من عامة الشعب ٨٩ ٪ . بعد ان كانت لا تزيد
على ١٠ ٪ من قبل وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها الغازى منذ افتتح
المدارس الشعبية والليلية في جميع القرى واجبر الاميين أن يحضروها الى سن
الستين ومن تخلف عوقب فهل هذه جهود سنوات عشر؟ ونحن في مصر الغنية
الموارد لبثنا فوق العشر سنوات في نهضتنا ولم نستطع رفع نسبة القراءة الا
قليلا؟ فهم لم يشترطوا للتدريس مكانا كامل العدد والشئون الصحية كما نفعل
ولم يحتم أن يكون المدرسون ممتازين فان ذلك يصعب توافره في البدء فالامر
الهام لديهم أن يصبح جميع الناس ممن يستطيعون القراءة أما المثل العليا فسدلنا
اليها لا يكون الا بعد نحو الامية كلها



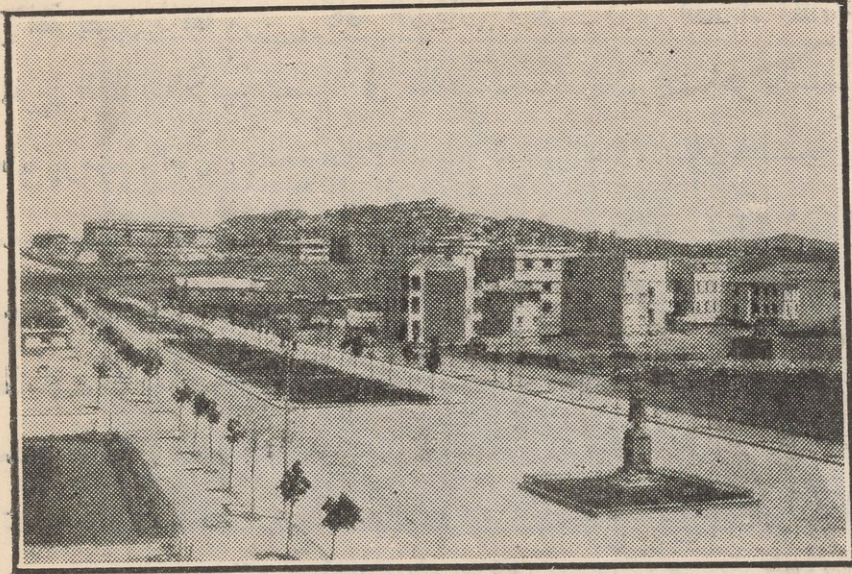
نزل الغازى الى تلك السهول وأقام عليها أنقرة الجديدة

ويحرم القانون التركى الكتابة بغير الحروف اللاتينية وهى أسهل على
الناس كثيراً من الحروف العربية كذلك الصلاة لا تكون الا بالتركية فلا
يقول المؤذن (الله أكبر) بل يصيح بمعناها التركى وقد ترجم القرآن وتلك
الترجمة هى التى تدرس فى المدارس ولمن خالف ذلك وقرأ أو صلى بالعربية
سيجن ثلاث سنين

والمعيشة فى أنقرة أعلى منها فى البلاد الاخرى لانها تقع وسط اقليم
جاف قليل الانتاج وغالب حاجاتها تردها منقولة من الخارج أما الطعام
التركى فشهى لذيذ يفوق كل ماتناولته من أطعمة فى البلدان التى زرتها فى

جميع جولاتي وللترك شهرة قديمة في الطهي على أن الغريب بينهم يصعب عليه التفاهم معهم لانهم لا يكادون يتكلمون سوى التركية وطالما تورطت في مطاعم كانت تقدم الى قوائم الطعام بالتركية والخدم لا يفهمون غيرها فكنت أتخير الاصناف مصادفة . حدث مرة أني بعد أن كدت أفرع من الطعام طلبت صنفا كتب هكذا Cirez Salaten فخيل الى أنه خشاف فأكهة الكريز فجاءني الغلام به دهشا فنظرت واذا به مجموعة من السردين والفجل والزيتون وموالح أخرى لم أعرف اسمها فأكلته ايها ما بأن أكل الحوامض عندنا في آخر الطعام ثم تخلصت من الموقف بطلب القهوة . أما في النزول فكانت حيرة التفاهم أدهى وأمر وكل يوم كانت لنا فصول كلها تزيد الموقف لذة وتفكهة

اعتزمت السفر الى نصيبين فالموصل مخترقا بلاد كردستان ولم أكن قد بدلت نقودي فقمتم مبكراً يوم الجمعة (١٤ يولييه) واذا بالبلدة كلها مغلقة اذ هو يوم العطلة الاسبوعية وكنت أخاله من قبل يوم الاحد ولم أجد حتى صرافا فحرت في أمري واضطرتني ذلك أن أسافر في الدرجة الثالثة حيث لم يكف ما كان معي من نقود ثمنا لتذكرة الدرجة الثانية والحكومة تحتم على الناس جميعا أن يغلقوا متاجرهم كلها اظهارا لقوميتهم وحتى محال البدالة والفنادق كانت تغلق أبوابها وتعلق عليها الاعلام وفي الحق لم أتمالك أن أحترم الاتراك فقيهم وحشية الطورانيين تلك التي هذبها الاثر العربي والدين الاسلامي فالتركي في أرضه عامل مجد صادق رزين شريف غير



مثل من المباني والمنتزهات والطرق الجديدة في انقرة

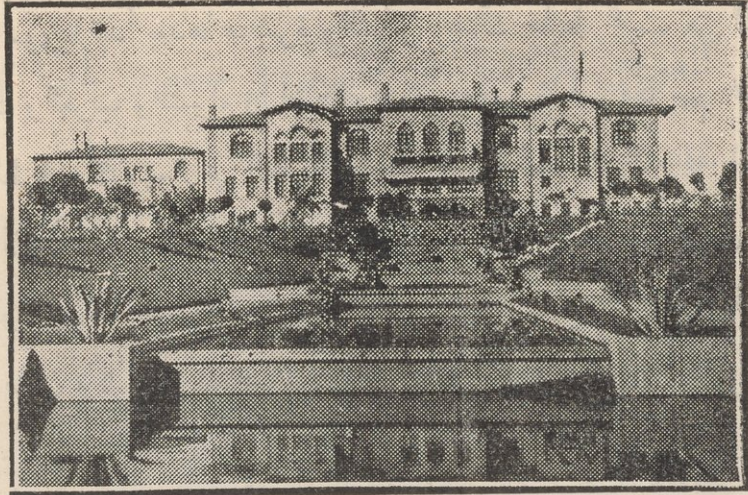
مناقق متكشف يقطن أكوأخاً فقيرة من طين ليس بها من وسائل الراحة شيء
مظهره جدى مقطب ويكاد يكون فدائياً ورغم حكوماته السالفة التي كانت
تستبد به ظل التركي ديمقراطياً في مجتمعاته وبعيداً عن الاجرام كل البعد
وأنت تراهم في الطرقات يسيرون في نظام وفي غير جلبه ولا ضحك فقى
اخلاقهم شيء كبير من الخلق الانجليزى واليابانى وهم مؤدبون في الحديث
فبدل أن يقول لك الواحد عند لقاءك مثلاً (مسرور بليياك) يقول (ان
أسعد ساعات السعادة ساعة القاك فيها)

قام بنا القطار ووقف على محطة الغازى حيث مزارعه الشاسعة فكان

سبل المتريضين دافقا من كافة الطبقات فكنت أرى الفقراء المدقعين
مسافرين اليها بعائلاتهم ليمضوا في الخلاء وسط تلك المناظر الساحرة
سحابة يومهم والغازي يشجع ذلك تشجيعاً للديمقراطية واصلاحاً لصحة بني
قومه . بعد ذلك سار بنا القطار وسط تلك الهضاب الفقيرة التي لا يكاد
يكسوها سوى العشب القصير الا في بقاع نادرة كان بها نبات القمح والشعير
والطباق والافيون ومررنا ثانياً بأسكى شهر وأفيون قره حصار وقونيه
وبعدنا أوغلنا في عقد الجبال وتحسن المنظر لما أن دخلنا عقد جبال طوروس
بلياتها وانفاقها المدهشة ثم كساها الشجر وكانت بقع الثلج تكسو ذراها
تنزل منها مسایل الماء وقيل أدنا بدا خاتق كيلكيا المنيع الذي هزم الأتراك
فيه الجيوش الفرنسية هزائم سجلت لهم بالفخار وكنا نشاهد الأخشاب
التي تقطع من تلك الغابات توسق في تلك المحاط وأخيراً وصلنا أدنا وبعدنا
(فوزى باشا) حيث غيرنا القطار صوب حلب ثم اخترقنا جبال (انتي
طوروس) وهي أقل من جبال طوروس روعة وفي حلب غيرنا القطار
ثانية بعد أن مضى علينا ٤٨ ساعة من انقرة وقمنا الى نصيبين فدخلنا الحدود
التركية كرة أخرى

في ارض كردستان: بعد أن قطعنا تلك المسافة الى نصيبين

(مسافة ٤٠٠ كم) دخلنا أرض كردستان فغابت الجبال الا في شبح فاتر
عند الافق الشمالى وهى الحافة الجنوبية لهضبة الاناضول وكانت السهول
مهملة تكسوها أعشاب برية يابسة وعند بلدة اسمها جرابلس عبرنا نهرا باسمها



الدار الجديدة للبرلمان ومن شرفته تعزف الموسيقى كل يوم عند الاصيل

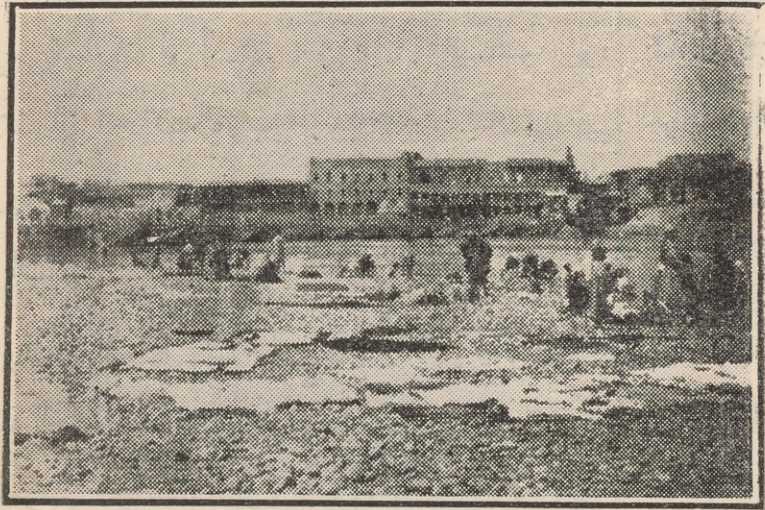
عظيم الاتساع وان كان ماؤه شحيحا آسنا إذ هو موسم الجفاف هناك
وكان الاقليم شبه صحراوي حره لافح ممض ولم نستطع شراء شيء من
المرطبات على المحاط سوى القشاء والبطيخ وكدت أسمى تلك الجهة ببلاد
(البراغيث) لانك تسمع تلك الكلمة على لسان الجميع والبرغوت عملة البلاد
الرئيسية وهو من بقايا النقود التركية القديمة لذلك كنا نراه ذائعا في شمال
سوريا أيضا وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة وكان المنظر
شبهيا بمصر في انبساطه إلا في عدم وجود شجرة به قط والناس هناك يتكلمون أربع
لغات التركية (ثلثها عربي وثلثها فارسي وثلثها تركي) والكردية (غالبا فارسي)
والارمنية والعربية وفي باكورة الصباح وصلنا نصيبين أي بعد سبع عشرة
ساعة من حلب فاذا هي قرية كبيرة ليس بها ما يذكر سوى حصن قديم وفيها

يقيم جيش الحدود التركي وفي ملاصقتها تماما يقف جيش فرنسي لأن
حدود سوريا تبدأ بعدها مباشرة والناس هناك خليط عجيب من الارمن
والكرد والعرب والشوام في أشكال قدرة ومظهر مخيف فكأنهم جميعاً من
قطاع الطرق وكان يسترعى النظر الكردي بعيونه السوداء البراقة الواسعة
وأنفه الاشم وقامته الطويلة وشعره الاسود الغزير ونسأؤهم يلبسن خرقاء
مرقعة ويدلين من الصدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من الشعر وتربط الجبهة
بمنديل ملون وكأنهن (العجور) والبلاد يظهر عليها الفقر والجوع بشكل
مخيف.

إلى الموصل: قنا بالسيارات مسافة (٢٠٥ كم) قطعناها وسط

سهول ممدودة الى الآفاق ليس بها تنوع واحد تربتها سوداء يعوزها الماء
وتزرع بقاع منها غلالاً وأعشاباً وفي نحو نصف المسافة دخلنا حدود
العراق دون تعير في تلك المناظر المملة وكم كان يضايقنا في تلك البلاد كلها
تشديد البوليس في مراقبة جوازات السفر ففي تلك المسافة فحست ست
مرات مما أشعرتني باضطراب الاامن فيها

العراق بلاد ما بين النهرين (مسوبو تاميا)



النساء يغسلن الثياب على ضفة دجلة في الموصل

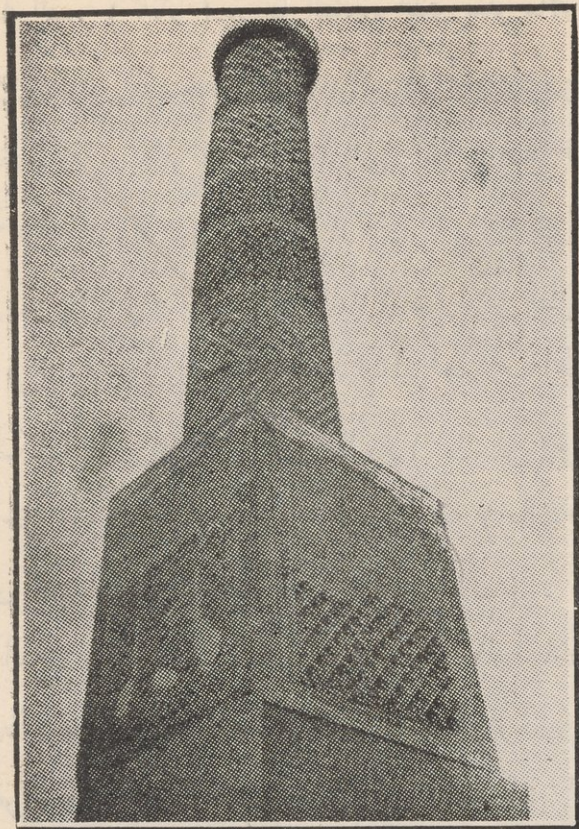
نبذة تاريخية

حوالى ٤٠٠٠ ق م كان الناس يعيشون جماعات في المدن يروحون ويغدرون بين الجزيرة ومصر وكان أولئك المستقرون يسمون السومريين والاكاديين وسميت بلادهم الناشئة سومر وأكاد ولا نعلم من أين أتوا ولكن المرجح أنهم وفدوا من منطقة جبلية متحضرة ولم يجد هؤلاء في أرض الجزيرة الخصبة المنبسطة جيالا بل الفوا السكان الاصليين لتلك

السهول من الهمج لذلك أقاموا عددا من (الزجورات) أو البروج وفوق ذراها قامت معابدهم التي قدموا فوقها الضحايا لألهتهم ولقد استعبدوا أهل البلاد الاصلين . والجزيرة أو أرض ما بين النهرين (مسوبوتاميا) التي تعرف اليوم بالعراق من أخصب بقاع الدنيا وكان نهر دجلة يسمى في اللغة السومرية أدكنا أو أدكلا ومن هذه أخذ السامريون كلمة أدكلات أو دكلات التي حرفها العرب الى دجلة . وكان يسمى الفرات بالسامرية (پوراتن) أو الماء الوفير وأحيانا يعرف باسم پورا أى ماء ثم حرفها اللغة السامية الى پورات والعرب الى الفرات

وتشمل العراق اليوم كالدنيا وبابل وأشور فكالدنيا كانت القطعة المجاورة للخليج الفارسي وكان الخليج يمتد شمالا الى أبعد مما يصل اليه اليوم ثم طمرت رواسب النهرين جزءه الشمالى وفي شمال غرب كالدنيا كانت بابل ومعناها (باب الله) والى الشمال الغربى من بابل كانت أشور مقر عبادة الآلهة أشور . والاشوريون كانوا من الشعوب السامية وكانوا مهرة في القتال والغارات اذ لم يخلفوا الا آثارا حربية فقط . أما البابليون والكلدانيون فمن أصل مختلط من الساميين وغيرهم وهو الذى يسمى السومريين الذين اخترعوا الكتابة المسمارية وكان لهم شغف بالثقافة المعلوم المختلفة . ولم نكن نعرف شيئا عن أشور وبابل منذ قرن مضى لا ما رواه التوراة

وفي سنة ١٨١٨ ظن القنصل البريطانى أن تلال كويونجيك تحتوى على



مئذنة الموصل المعرجة وكانها برج بيزا المائل

آثار قيمة وفي ١٨٤٢ جاء الفرنسي (بوتا) فكشف مع لا يارد الانجليري مدينة (سارجون) المسماة اليوم (خرسباد) ونيوى التي تسمى اليوم كويونجيك . وفي الوقت عينه بدأ (تيلر) يكشف أعلى ذرى (أور) لكنه اضطر أن يوقف العمل بسبب مقاومة البدر وفي ١٩١٩ بدأ الدكتور هول يتم هذا العمل ثم جاءت بعثة (ورلى) فنجحت في كشف مقابر ملوك

أور ومعبد آله القمر (نانار) ببرجه الضخم الذى يعلو مائة قدم وبهو العدل
وبعض المخازن ومصنع النسيج والمطبخ ومجموعة أخرى من معابد صغيرة
ولعل أهم مستكشفاتة الألواح الطينية التى كتبت منذ خمسة آلاف سنة
وخطها حفظة معبد أور وهى تعد أقدم الوثائق التاريخية فى العالم

ولقد بنى نمرود بابل منذ ٢١٠٠ ق م وشاد نينوس بطل ملوكهم مدينة
أسماها باسمه وهى نينوى وفى الوقت نفسه ولد ابراهيم أب الجنس الاسرائيلى
فى أور من الكلدانيين وهى التى تسمى اليوم (مقيّار) وفى ٢٠٠٠ ق م
هجر وطنه وحل جنوب الشام حيث أكرم وفاته (ملك صادق) وهو
الملك السورى الذى ولى ملك جيبوس (القدس الآن) . ولقد نما نفوذه
ونفوذ شعبه الذين حاربوا أهل البلاد وأجلوهم وحلوا بلادهم حتى تفرق
اليهود أنفسهم بالسيف كما فعلوا بالسكان الاوائل وتفرقوا فى أرجاء المعمورة
وبعد ذلك بقرن من الزمان ظهر حامورابى ملك بابل العظيم والمشرع
المبدع ولقد حارب جيرانه وضم آشور والملكه ولقد كانت قوانينه قيمة تسترعى
النظر من بينها : العين بالعين والساق بالساق . واذا تسبب أحد فى عين أحد
الفقراء أو كسر ساقه فعليه أن يدفع (مينا) من الفضة واذا أجرى طبيب
عملية جراحية بمشرطه البرنزى وتسبب عن ذلك موت المريض قطعت يدها
الطبيب . واذا شاد بناء بيتا فهوى البناء على ساكنيه وجب أن يقتل
ومن ذلك نستنتج أن القوانين الموسوية قامت على أساس قانون حامورابى
خصوصا فيما يتعلق بالقواعد الخلقية والاجتماعية وما ارتبط بالعدالة وقد



الاکراد في اردية الحفلات

وجد العامود الديرى خطت عليه تلك القوانين مهشما في ثلاث قطع تراها
اليوم في متحف اللوفر في باريس
وبين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق م تحول مقر الحكم والنفوذ الى الشمال اذ ظهر
الاشوريون من الساميين ولم يسجل لهم التاريخ سوى الحرب والنضال

لذلك اتخذوا حضارة بابل أساساً لهم ولقد مدوا نفوذهم الى سوريا ومصر
والعرب وأرمينية وميديا وبابل وسادت الغلبة حيناً والقوضى حيناً حتى
كانت سنة ٧٠١ حين حاصر سنخريب القدس ودمر بابل نهائياً وزاد في
تجميل نينوى وقد أعاد بناء بابل وما يذكر له أنه فتح طيبة عاصمة مصر
وتقدم له بالولاء من ملوك الارض في نينوى اثنان وعشرون ملكاً ثم
أعقبه ابنه : أشور بانيبال الذي كان الى عظمته في الحروب محباً للعلم والادب
أعاد اخضاع الثائرين ومن بينهم مصر وليديا وغزا عيلام وفتح شوشان
(سوسا اليوم) وهُدأ الارض المجاورة للخليج الفارسي التي كانت مثار
اضطراب له وأوفد بعثة حربية الى بلاد العرب ومن أوامره لاهل الخليج
الفارسي وقد كتبت في الواحه الطينية : (وصية الملك لاهل السواحل
والبحار من بنى خدي — السلام عليكم أرجو لكم الخير — انى أرقبكم بعينى
مراقبة دقيقة ولقد فصلتكم عن وجه الشر (نابول ذكري) وانى أرسل
خادى (بل ابني) مشرفاً عليكم وانى أزوده بأوامرى وقوتى وسأكون معكم
أرعى مصلحتكم واضع خيركم نصب عيني)

وفي ٦٠٦ ق م غزا الكلدانيون والميديون نينوى وأحرقوها ومحووا دولة
أشور من الوجود وأعاد الكلدانيون بابل التي ظلت الى ٥٣٨ ق م
ولقد بدأ بختنصر حكمه سنة ٦٠٠ ق م ونهب معبد بيت القدس وساق
كثيراً من اليهود الى بلاده وهزم نكو فرعون مصر في قرقيش واليه
ينسب (حصن بالميون) في مصر القديمة وهو الذى أقيمت عليه الكنيسة



زعما الزيديين عبدة الشيطان

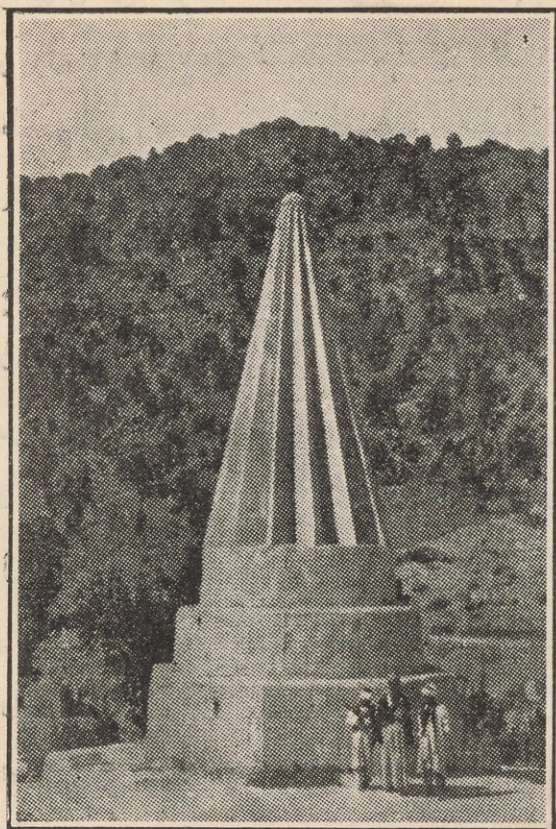
المملكة وفي ٥٨٨ أسر يهوذا ودمر القدس ثم أخضع فينقيا وأعاد بناء بابل.
ورصف طريق مروره بالصخور وكتب على كل حجر منها (أنا بختنصر
ملك بابل وأنا الذي رصفت شارع بابل بحجر الجير لمرور حفل سيدنا
الاعظم مردوك . يا سيدنا مردوك هبنا ملكا أبديا !)

وفي ٥٣٩ ق م حارب كورش الاكبر بابل موفدا ولي عهده (بلشازار)
فأخذ بابل وأسس الامبراطورية الفارسية وقد كانت التوراة قد تنبأت
بخراب بابل بكلمة نقشت على أحد الاحجار في قصر بابل الشهير ولقد

أذن كورش لليهود أن يعودوا الى فلسطين وكان خلفه قمبيز هو الذي فتح مصر وفي أبان حكمه أعيد بناء معبد القدس وكانت موقعة ماراتون الاغريقية الشهيرة وفي عهد خلفه أجزرسيس دمرت جيوش فارس وأسطولها في سلامس

ولقد استخدم الفرس الكتابة البابلية المسارية وبفضل مخطوطاتهم التي كتبوها بثلاث لغات استطعنا فك رموز الالواح البابلية ومنها عرفنا تاريخ بابل وكان أول من قرأها الالماني فردريك جروتفند وفي ٣٣١ ق م جاء الاسكندر ودمر جيوش الفرس في أربيل وفتح فارس كلها والافغان الى نهر السند ومن هنا عاد بجيشه وقد تملل عليه عن طريق البحر وفي بابل واقته الوفود تقدم خضوعها وبسبب اسرافه في الخمر والمجون التي لم يألفها تدهورت صحته فمات سنة ٣٢٣ في سن لم تزد على ٣٣ سنة بعد أن فتح كل ما كان معروفا من بلاد العالم اذ ذاك ولما سئل عن يوصى به خلفاً له على ملكه أجاب قائلاً (الملك يكون للاجد به). ثم نقلت جثته الى الاسكندرية حيث دفنت. وقد تنازع القوم فيمن يخلفه الا أن سليوكوس أحد قواده حكم البلاد من سوريا شرقاً وظلت أسرته ١٧٣ سنة وسميت الاسرة السليوسية وقد أقام سلوقية واتخذها عاصمته.

وفي ١٤٠ ق م هزمهم الفرطانيون من الفرس وأقاموا عاصمتهم في طيشفون في مجانبة سلوقية وأعقب الفرطانيين ملوك الساسانيين من الفرس سنة ٢٢٦ ميلادية وفي ٢٢٧ هزم هرقل جيوش كسرى الثاني قرب نينوى



حول هذا النصب المقدس يقدم اليزيديون ذبائحهم في (شيخ عدى) بقرب الموصل
وفي ٦٤١ فتح الاسلام طيشفون وانمحت دولة فارس
وفي ٧٦٢ أقام المنصور مدينته المستديرة : بغداد و كان يواصل العمل
مائة الف عامل وقد كلفته تسعة ملايين من الجنيهات و أسماها دار السلام وان
ساد فيها فيما بعد اسم بغداد وهو اسم زاهد كان يعيش هناك وقد غطت عظمتها
على نينوى وبابل و سلوقية و نيشفون و بلغت أوجها أبان حكم الرشيد و بعد

ذلك أخذت في الخمول حتى غزاها الساجوقيون سنة ١٠٧١ وفي ١٢٥٨
دمرها هولاء كور وفي ١٣٩٣ تيمورلنك وبعد ذلك وقعت بغداد فريسة
الحروب الداخلية والثورات حتى فتحها الأتراك وظلت تحت حكمهم حتى
احتلها الإنجليز في الحرب العظمى

بغداد اليوم : اقيمت سنة ٧٦٢ في مكان قريتين من القرى
الفارسية (بغداد و الكرخ) وقد وضع المنصور نفسه أول لبنة بيده.
وتعجب إذ تعلم أن تلك العاصمة — دار السلام — وهي أحدث عهداً
من أثينا وروما والقسطنطينية ولندن لم تترك أثراً يدل على عظمتها الأولى .
على أنها لا تزال تغص بذكريات الماضي المجيد وخيالات ألف ليلة وليلة .
تلمست ذلك في أزقتها المخبئة التي كان يجربها هرون الرشيد نفسه متخفياً
ومعه بعض صحبه ليقف على شئون الناس ومظالمهم بنفسه وليرى مبلغ
صلاح إدارته للبلاد وفي تلك الطرق الضيقة والأسواق الملتوية تذكر
شهرزاد والسندباد البحري ولصوص بغداد وما إليها مما قرأت في أقاصيص
ألف ليلة . ولقد اختلف القوم في موضع بغداد الأصلي بالضبط فبعضهم يرى
أنها في مجاورة السكاظمية والبعض عند محطة (بغداد غرب) ولا يكاد يربطها
بالماضي سوى أسماء ضواحيها ومدفن الامام الاعظم أبي حنيفة وكان
تصميم بغداد على نمط معسكر روماني بيواباتها الاربع تواجه الجهات
الفرعية للبوصلة : باب خراسان والبصرة والكوفة والشام وكان يقوم على
كل بوابة بيت مشيد وكان يجب المنصور أن يأوى الى باب خراسان كلنا

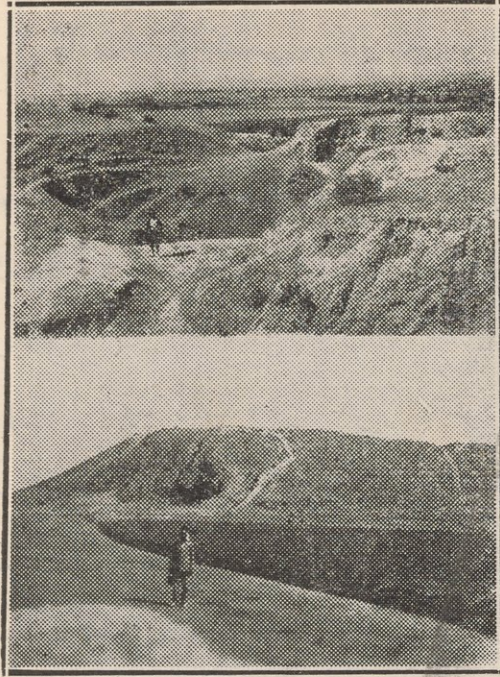


اليزيديون في حفلة الزواج

طلب الراحة وكان بالمدينة ثلاثة أسوار اثنان متقاربان لدفع غارات العدو
والثالث حول دور الامارة والحكم وكان أبو حنيفة ممن أشرفوا على بناء
المدينة ولقد جلبوا مهمات البناء من كل فجج — فأبوابها الحديدية التي ظن أن
شياطين سليمان هم الذين صاغوها — جلبت من واسط . ومن بابل جلبوا
الآجر وقد حاولوا هدم طيشفون لهذا الغرض وفي سنة ٧٦٨ بدأوا في بناء
مسجد جديد وضاحية أسموها الرصافة Causeway ولا يزال يطلق على شرق
بغداد وكانت تتجمع دور الصناعة والتجارة خارج الاسوار ولقد أدت

كل الطرق الرئيسية العالمية اذ ذاك اليها فن باب خراسان يبدأ (الطريق
الذهبي الى سمرقند وحي الشعراء والمنفذ المؤدى الى ذهب الشرق وعلمه) ومن
باب الكوفة يبدأ طريق الحج الى مكة وقد أقامت زبيدة المحاط لراحة
الحجاج في مواضع عدة منه وكانت جهات الحركة خارج الاسوار تسمى
الكرخ . ولقد عاش المنصور ثلاث عشرة سنة بعد بناء مدينته وأعدوا له
مائة مقبرة لكيلا يهتدى أعداؤه الى مشواه الذي لا يعرف الى اليوم وكان
المنصور صارما في العدل شحيحا في المال حتى عرف بين الجميع بابن دويك أي
ابن النقود ولقد ظل سلاطه في الحكم خمسمائة سنة

الموصل : مثنى أبي تمام الطائي ومنها الطغرائي صاحب اللامية
المشهوره وأبناء الاثير الثلاثة وكانت عاصمة بني حمدان ثم عاصمة الدولة
الزنكية لذلك كنت أحسبها بلدة مشيدة جذابة فاذا بها مجموعة من ابنية تحكي
ابنية القرون الوسطى كلها أقيمه فطساء كالسجون والبلدة قدرة مهدمة ليس
فيها حي واحد يمتدح فكأنها بلدة أثرية وحتى نهر دجلة التي تقع عليه تراه
قدراً منتناً وتطل عليه البيوت القديمة في غير نظام وأسواقها أبحار صغيرة
وأنت أينما سرت اشمازت نفسك من الروائح الكريهة التي تنبعث من كل
مكان وزاد الطين بلة جوها اللافح المحرق فأنت لا تكاد تبصر من كثرة
الدخان والتراب الذي يخيم في هوائها ويخرج الصدر ولقد أذكرتني بهجير
بلاد الهند وعلى ضفاف دجلة يلقي القوم قماماتهم وأقذارهم وترى جميع النساء
يغسلن ثيابهن ويبد كل مطرقة لدق الثياب والبلدة غاصة بالمقاهي الوطئية



وسط اطلال نينوى التي تطل على الموصل

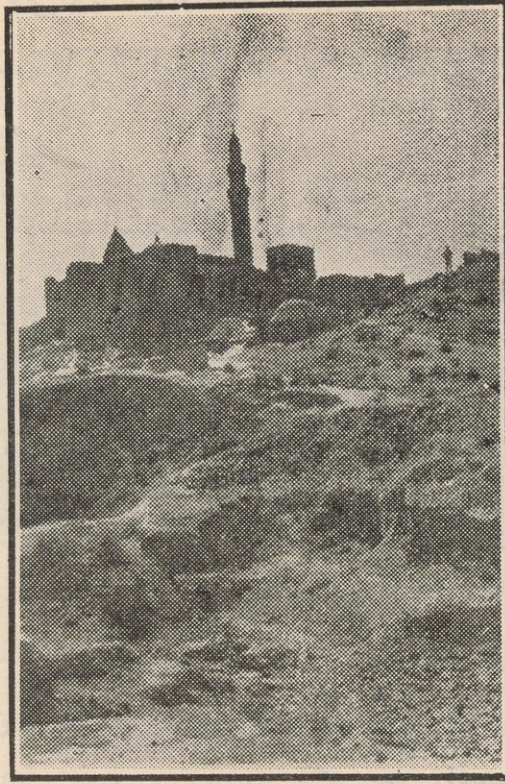
ترى الناس قعودا بها كأنهم الذباب والمساكين كأنها الجب تنظر فترى
أهلها نياما على الارض داخل ذاك الظلام في خمول منكر وهناك معبر لدجلة
بقنطرة تحملها الزوارق وتكملها قنطرة من حجارة اذا طما الماء مر خلال
عيونها وقد كان النهر أبان جزره اذا لا يفيض بالماء الا في الشتاء

وأهل البلدة اخلاط من أجناس لا عدلها من بينهم الا كراد بأرديتهم
الفضفاضة يحملون اسلحتهم معهم دائماً واليزيديون في مظهرهم الوحشي

بقمصانهم الحمراء الغربية والاشوريون من الجبال وسجنهم تدل على أنهم من
قطاع الطرق والسككديون في سراويلهم وقد وفدوا من القرى المسيحية ،
والبدو بوجوههم التي كادت تحرقها الشمس وكثير غير أولئك . والعراقيون
قوم نحاف طوال القامات أنوفهم منقارية سامية كانوا اليهود ويلبسون
اليوم فوق رؤوسهم (الفيصلية) في ألوان مختلفة وشكل مضحك يذكر
المرء بعرف الديك ولا أرى فيها وقاية من شمس أو مطر أما المحافظون
فيلبسون العقال ونساءهم أكثر رشاقة من التركيات وأعجب شيء في هندامهن
المعطف الخارجي (العبا) فهو كالعباءة من الحرير الاسود يرسل من فوق
الرأس فيرفرف في حرير مهفف فضفاض وشكل أنيق

والبلاد رخيصة فالفندق الكبير لم يزد أجره على عشرة قرش ووجبة
الطعام الفاخرة كذلك غير أن الطهي هناك دونه في تركيا بكثير وأساس
تقودهم (الفلس) والدينار يساوي الف فلس وهو يعادل جنيها انجليزيا
وأنت لا تكاد تسمع من القوم الا حديث (الفلوس) فكأنني قد انتقلت
من بلاد (البرغوث) الى بلاد (الفلس) وهم يعطون صنوف الطعام أسماء
غريبة لا تفهمها فالبطبخ مثلا يسمونه (شمزي)

والموصل محرومة من السكة الحديدية مع انها كانت في الزمن الغابر
أكبر مركز تجارى وصناعى وكانت تتوافر بها الغلال وكانت تقع على
الطريق التجارى الهام بين حلب وبغداد الى الشرق وفي زمن العباسيين كانت
تشتهر بنسيج من القطن الناعم سمي (موسلين) او (موصلى) وهو لا يزال



مقام النبي يونس فوق انقاض نينوى

يحمل هذا الاسم في الدنيا رغم أنها لا تصنع منه شيئاً اليوم وحولها منطقة عظيمة الخصب وتجاورها منابع البترول كل ذلك يجعل الزائر يدهش لعدم وصلها بسكة الحديد وحول المدينة بقايا سور زرنا منه جزءا بجانبه مدفن المؤرخ العربي (ابن الاثير) ولم تكن الموصل منطقة صالحة للسكنى في الحرب الكبرى اذ داهمتها التيفوس والطاعون الذي دفع بالسكان هناك أن

يأكلوا اللحم الآدمي وكان يباع خفية وقد ضبط بعضهم وشنق في الميدان
الرئيسي ولعل أحسن ما يزار فيها المسجد الكبير الذي زاره ابن بطوطة في
رحلته وكتب عنه

اليزيديون عبدة الشيطان: وأعجب من رأيهم في الموصل
اليزيديون في اريدتهم الحمراء الغريبة . يرون أن الله روح عليا سامية حلت
قدرته في ملك الطاووس (الشيطان) الذي يتصرف في العالم كيف ما شاء
ويصيب الناس بالأمراض والاذى كما يسبغ عليهم نعمة الصحة والرخاء
وشعار الشيطان لديهم طائر شبيه بالطاووس وهم لا يسمونه الشيطان فتلك
كلمة مزرية مهينة بل يسمونه (أمير الظلام) او (ملك الطاووس) وهم
يتوسلون اليه بالصدقات والقرايين ولا يعلمون أولادهم قواعد للصلاة ولا
التعبد ويقولون ان الصلاة في القلب يجب ألا تكون لها شعائر ظاهرة ولم
يأمرهم كتابهم المقدس بشيء من ذلك لكن عليهم أن يؤدوا كثيرا من
الواجبات لقساوستهم ومعابدهم وهم يشركونهم فيما لا يقل عن ربع إيرادهم
السوى وميلهم للتصدق عظيم أضحي مضرب الامثال ويقال ان أمراءهم
وهم في مقام القسيس من سلاله يزيد ومن ثم جاءت تسميتهم باليزيديين
ولكل مجموعة من عائلاتهم قسيس أو امير امره مطاع وعطاياهم اياه
واجبة فان قصر أحدهم في ذلك حلت عليه لعنة الأمير فاضحي من الخوارج
وتلك الضرائب يتقاضاها القسيس عند الميلاد والزواج والموت وفي وقت
الشدة والرخاء شكراً لله وقساوستهم طبقات منهم طائفة يسمونها (كوشيك)



سوق كركوك

يلبسون أردية سوداء ولا يختنون كباقي اليزيديين وهم الذين يتولون الموتى
بالغسل والدفن . فتفتح المقبرة ويقبل الناس ويدهم القرايين وبعد قليل
يتمتم (الكوتشيك) ويرغى ثم يغيب عن العالم وهو ملقى على الارض
ثم يفيق بعد أن يكون قد اتصل بالارواح وعندئذ يخبر الناس عن مآل
روح الفقيد وهل حلت مولودا آدميا جديدا - وذلك ان كانت العطايا كافية
على ما أظن - أو حلت جسد كلب أو حمار أو حيوان خسيس وفي جميع
الحالات يقدم له الطعام لمدة سنة وتهدى اليه كل ملابس الفقيد . وهم
لا يعتقدون في جهنم . ويقص البسطاء منهم نبأ طفل كان اسمه (ابريق الشوطة)
صاب بمجموعة من أمراض وعاهات فاخذ يبكي بدموع جمعها في جرة مدة

سبع سنين ثم صبا على نيران الجحيم فأطفأها فشكرته الآلهة على فعلته ويرون
أن الله خلق ٧٣ آدمًا ظلت ذرية كل منهم عشرة آلاف سنة وبين كل واحد
والآخر فترة مثلها لم يكن بها من الناس أحد واليزيديون أبناء آدم الأخير
لا عن طريق حواء بل عن طريق حورية التي زفها ملائكة الجن لآدم
وهم ليسوا أبناء حواء فان قالوا ابن حواء تصدوا غيرهم وهم يقولون
بأن جد هم نوح وان لغة الجنة هي اللغة الكردية التي يتكلمونها اليوم

ومن عاداتهم ان تفرع الطبول عند زواج اى فرد منهم لاشهاد الناس
ان فلانا قد تم زواجه من فلانة وهم يديحون تعدد الزوجات لكنهم
لا يديحون الطلاق تط وانشأؤهم سافرات الا فى الاسبوع الاول من
الزواج حين تظل الزوجة فى عزلة تامة والامير يستطيع بساطته أن يساب
اية فتاة شاء ولا عيب على القرينين فى ذلك . والشبخ هو الذى يقود الزوجة
الى بيت زوجها ليلة الزفاف ولا تخطو عتبة الباب الا بعد ذبح شاة تطأ دمها
وهى داخلة وتوثق صلة الزوجية يضرب الزوج جرة (فلة) بها مجموعة
من اجراس فى الحائط فوق رأسها ثم يكسر رغيفا ليعلمها كيف تكون
شقيقة بالجنائين

وغالب اليزيديين فى مقاطعة الموصل وعددهم بين ١٨ ، ٢٠ ألفا ومنهم
بقية ضئيلة فى الشام وأخرى فى القوقاز لكن ثلاثة ارباعهم فى الموصل حول
جبال (سنجار) وكعبتهم المقدسة (شيخ عدى) على مسيرة ٣٥ ميلا من
الموصل يزورونها فى عيدهم الاكبر فى اكتوبر والشيخ عدى قديس سورى

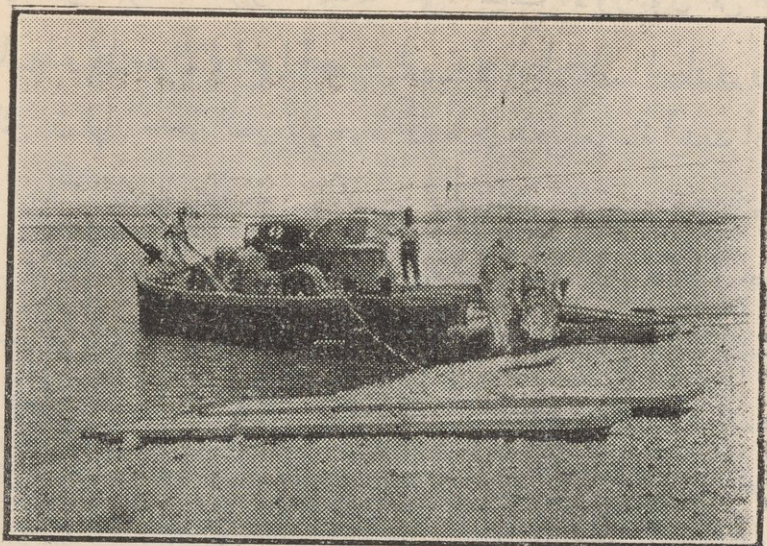


وسط عيون البترول في بابا جرجر (كركوك - الموصل)

نزل هذا المكان ونشر مذهبه في القرن العاشر وأخرج كتابه المقدس وقد قبض عليه جنكيزخان وساقه الى فارس حيث قتل ومن سلالته (شيخ عدى ابن المظفر) الذي دفن في هذا المكان ونبع تحته الماء المقدس الذي يخالونه متصلا بزمزم وقد وجدت تلك العقيدة في بلاد الاكراد منبثا خصبا لانها كانت تدين بالوثنية وعبادة الطبيعة من شمس وقمر وشجر وينابيع لذلك لا تزال ترى لهذا أثرآ في مذهبهم فهم يقدسون الشمس والقمر ويقبلون الارض جهة المشرق والمغرب ولشدة خوفهم من الاسلام اخفوا اسرار كتبهم المقدسة وكل من أفشى شيئا أعدم فورا لكن حدث أن أحدهم اعتنق النصرانية فأفشى سر تلك الكتب الى القسيس آنسطاسي أحد زعماء المسيحية الذي دفع للرجل مبالغ طائلة كي ينسخ الصفحات نسخا مضبوطة ففعل وترجمت وهما كتابان (كتاب جلوه) ومعناه الخلاص والكتاب الاسود (مصحف راش) والآيات مخطوطة على الجلد وتحفظ في صندوق

من فضة عليه صورة طاووس ومفاتيحه بيد الامير ولا يقرأه الا القسس
أما أفراد الناس فممنوعون حتى من تعلم الكتابة لهذا الغرض
وأكثف جمعهم حول (باعذزى) بقرب الكوش في كردستان
والمعبد الرئيسى فوق جبالهم التى شهرت بقطاع الطرق وتطلى معابدهم ويوتهم
ومقابرهم باللون الابيض لان الشيطان يحب ذلك اللون وحول المعبد
بمجموعة من مبان حقيرة أعدت لايواء الحجاج فى موسم الحج وتراب المكان
مقدس عندهم يعجنون منه اقراصا يكسرون واحدا منها لتبريك الزوجية
وتوضع قطعة منها فى فم الميت قبل الدفن وباب المعبد مزركش بالنقوش
وهناك ترى أفعى ذات رأس أسود هى شعار للشيطان وقبيل زيارة المكان
يجب تقيلها ثم تخلع الاحذية قبل الدخول ولا يجوز لمس عتبة المدخل
لانها مقدسة

نينوى : اقلتنى من الموصل (عربانه) الى نينوى فى مواجهة الموصل
من الضفة الاخرى لدجلة وفى نحو ثلث ساعة بدت كومة كبيرة من الثرى
والطين المتناسك فى ارتفاع كبير . تسلفتها فتجلت الموصل على بعد وراء النهر
فى مشهد جميل بماآذنها العديدة أما ذلك الطلل فلم أر به الا سرايب ومغائر
لم تتم عن شىء من العظمة البائدة فلقد كان أهلها حريين بواسل وملكها
قائدا عظيما ولم يكن لهم دراية قط بالزراعة والصناعة كلا ولا بأى نوع من
أنواع العمل سوى الحرب وكانت تزود نفسها بحاجياتها من الاسلاب وحتى
المهندسين الذين شادوها كانوا من أسرى الحرب وكم نقل ملوكها من عشائر



نهر الذاب بسياراتها على تلك الساحة

وشعوب أخرى ولقد كان إلههم الأكبر (أشور) شادوا له المعابد الهائلة
وشنوا باسمه الغارات وأخذوا الغنائم وأخضعوا جميع جيرانهم لسلطانهم
وأرغموهم على دفع الجزية ومن بينهم آسيا الصغرى وقبرص وفلسطين
وكرديستان وحتى مصر نفسها وكان نزلاؤها الاوائل من أهل بابل ولا نعلم
متى احتلوها باليقين لكنها كانت قائمة سنة ٣٠٠٠ ق م وكان حكامها
الاول اتباع ملوك بابل وأهلها أقرب شبيها بالدم السامى من أهل بابل فهم
بنو عمومة الاسرائيليين وكانت لغتهم أشبه بلغة آل يهوذا ولقد خربها
الميديون سنة ٦٠٦ ق م ومحو آثارها حتى لم يكن يعرف موقعها أحد ولما
جاء العرب وأسسوا الموصل أبصروا بالتمثال قبالتها فتخيلوها مقر الجن

الذين رصدوا لحراسة كنوزها القديمة حتى كشف الاوريون عن الكثير
من آثارها وبخاصة الالواح الحجرية التي نقشت بالخط المسماى وتماثيل
هائلة لثيران لها أجنحة الطير ووجوه الأدميين بلحي مرسله أيدت أن تلك
لاشك اطلال لمدينة عظيمة . و كنت أرى آثار الاحتراق والتخريب
بادية في بقاياها من أثر الغاصب . ولقد بلغت أوجها أبان حكم (سنخريب)
أخريات القرن الثامن قبل الميلاد ويظهر أن ذلك الملك أراد أن ينشئها من
جديد فشاد لها الاسوار المنيعة التي تراوح علوها بين خمسين ومائة
قدم وعرضها وسع مرور أربع عربات متجاورات تتخللها أبواب من
خشب الارز تزينها مقابض النحاس وكانت تجانبها السباع ذوات الاجنحة
يوزن الواحد خمسين طنا ويطل الباب الغربى على دجلة وكان يشق الاسوار
والبلدة رافد لدجلة هو (خصار) كانت تزين جوانبه القصور الملكية
الفاخرة وقدمرت في تجوالى بمكانها من هذا التل الذى يسمونه (كويونجيك)
هنا ذكرت (أشور بانبال) فى قصره الفاخر وسط كنوزه القيمة وقد أحاط
به الغزاة فآثر أن يموت بنار العدو التى التهمت القصر وما فيه ولم كان
تسقى انبياء بنى اسراييل ناهوم وسفانيا عظيما اذ شهدا تدمير مملكة أشور
التي عاثت فى الارض قتلا وسلبا

نزلات من ذاك التل الحرب صوب تل آخر يقع الى جنوبه بقليل ويسمونه
(النبى يونس) وهو أيضا من بقايا ضواحي نينوى ولم يتعرض للتنقيب فيه
أحد لان رفات النبى يونس الذى ابتلعه الحوت تدفن فوقه فى مسجد ذى
مئذنة مشرفة دقيقة وفى داخل الحجرة الوسطى رأيت قطعة من سمكة كبيرة

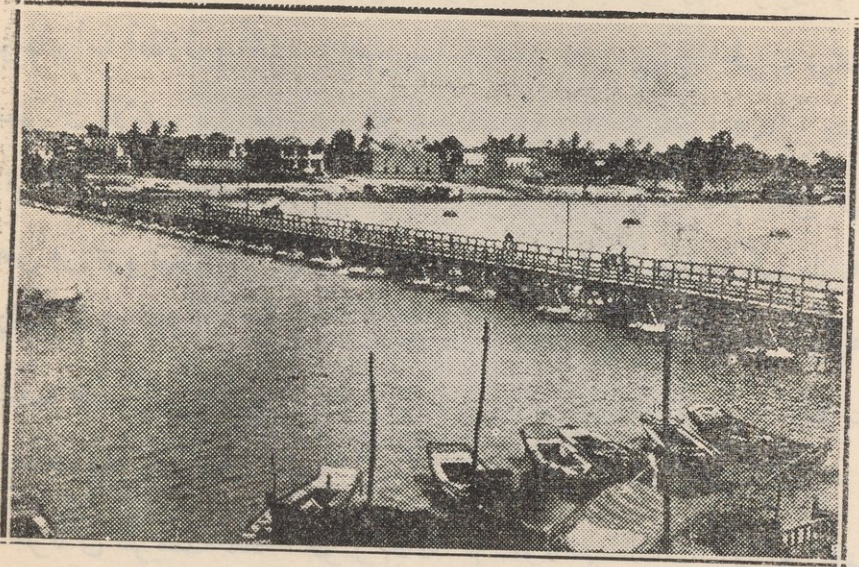


الشارع الجديد او شارع ابن الرشيد ويكاد يكون الوحيد في بغداد

من ذوات السيف يقول القوم عنها أنها السمكة التي ابتلعت يونس عليه السلام وقد استرعت نظري البسط الثمينة التي يفرش بها المسجد والضحى وقد أهداها اليه سلاطين آل عثمان . ويقول البعض أن ذاك المدفن لا يحوى عظام سيدنا يونس بل عظام قديس مسيحي كان يقوم حولها دير قديم ! وفي جوانب ذلك التل عشر بعض علماء الامان على المكتبة الملكية لنيوى في الالواح الطينية التي بحثت في مختلف العلوم والتي نقلها ملوكهم وبخاصة (اشور بانيبال) من مختلف بلدان العالم ونقشها على الطين كتاب أخصائىون بالخط المسمارى ومن أشهر ما ترجم منها قصة الطوفان والبطل (جالجاميش)

الى كركوك ومنابع البترول : قمت مسرعا من الموصل تلك
البلدة التي استقبلنا جوها اللافح أسوأ استقبال ولم تترك البلدة في ذا كرتي
فضيلة أذكرها بها اللهم الا كرم أهلها والعراقيون قوم كرام بحق فقد جمعوا
بين كرم الخصب الزراعي وكرم عرب البادية حدث اني كنت أتناول الغداء
في أحد مطاعم الموصل وكان يجلس قبالي عراقي فجرتنا مناسبة شدة الحر
الى طرف من الحديث وما كدت أستأذن بعد انتهاء الطعام حتى قال لي :
تمهل حتى تتناول (الدندمة) وكان قد طلبها لي ودفع ثمنها وحاولت الاعتذار
فابي على ذلك . وقد كان يزامني في السيارة الى كركوك طائفة منهم كانوا
كلما وقفنا نستريح في فندق على الطريق - وقد فعلنا ذلك مرات - الزموني
بشرب الشاي واكل المرطبات على حسابهم ولم أستطع دفع شيء قط . قمت
الى كركوك في سيارات للبريد منتظمة تقوم يوميا في الصباح مقابل أجر
ثلاثين قرشا فاخرقنا دجلة ومررنا بمتنزه كبير اقامته البلدية ترويحا للناس
وهو فسيح لكنه في غير تشذيب ثم أوغلنا في أرض سوداء مبرسة الى
الآفاق ليس بها شجرة واحدة ويبدو عليها الخصب على انها لا تزرع الا على
امطار الشتاء فقط . ثم عرجنا الى يميننا على :

نمرود : وهي إحدى مدن الاشوريين التي قامت قبل بناء نينوى كمقر
للحكيم ولم نر فيها سوى تل من تراب يعلوه شبه برج شاهق مهتم وكان نمرود
ملكاً من ملوك بابل يروى القوم عنه أن سيدنا ابراهيم الخليل سيق اليه وأمره
نمرود ان يعبد النار فقال ابراهيم : لكن الماء أقوى اذ هو يطفيء النار فقال



جسر مرد ويقوم كسائر جسور بغداد على الزوارق

اذن فاعبد الماء قال ولدن السحاب هو الذي يرسله قال اذن فاعبد السحاب
قال بل هي الريح التي تدفعه قل فاعبدها قال لكن الانسان مسيطر عليها
فغضب نمرود وأمر أن يعبد ابراهيم النار و يلقى فيها فألقى فيها سبعة أيام
خرج بعدها سالما فأراد نمرود أن يرى اله ابراهيم فبنى برج بابل لكنه لم
يصل السماء فأتى بنسرين يجران عربة ودفع بها الى السماء فسمع نمرود صوتا
من السماء يقول : أين تذهب يا ملحد ؟ فصوب سهمها الى مصدر الصوت
ورماه فعاد اليه ملطخا بالدم فظن أنه طعن آلهة ابراهيم وقتلها
ويقص الناس أن برج بابل اثار غضب الله فانزل عليه صاعقة من
السماء و كنت اسمع اسم نمرود يطلقه العراقيون على كثير من أبناءهم

وكانت بلدة نمرود قائمة قبل اشور بانينبال بنحو أربعة قرون والى جنوبها رأينا أطلال (أشور) أقدم بلدانهم اسموها باسم آله الحرب ويخال البعض أن الاشوريين من سلاسل الاراميين الذين حلوا شمال دجلة وكانوا أهل حرب القوا الرعب في قلوب أهل العراق جميعا ولم يكن لهم غرض من غزواتهم الدائمة سوى النهب والسلب لذلك لم يدم ملكهم طويلا وفيها عشر بعض الالمان على جرار تدفن بها بعض موتاهم وفي انقاض سورها كشف حجر كتبت عليه قصة (سميراميز) أو (سيدة القصر) وكانت زوج أحد ملوهم سنة ٨٢٠ ق م ويسمى الناس هذا المكان جبل القمر

جزنا في طريقنا عدة أخوار جافة ثم عبرنا نهر الذات الاكبر عند قرية (جوير) وهو احد روافد دجلة تياره سريع وماؤه صافي الزرق وكانت القرى صغيرة بيوتها بالطين وسقوفها منحدره لان مطر الشتاء كثير عندهم ثم عبرنا نهر الذاب الاصغر ولم نخرج بينهما على أربل التي انتصر فيها الاسكندر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق م وكانت على مقربة منا وكان جل الناس من الاكراد والعرب والعراقيين يتكلمون التركية والعبرية والكردية وبعد أن قطعنا نحو مائة وسبعين كيلومترا في خمس ساعات دخلنا :

كر كوك : فبدت على صغرها اجمل من الموصل وأعدل جوا بها قسم جديد لا بأس بتنسيقه أما المقاهى والفنادق فاقية تحكى تلك التي في الموصل وكنت أعجب لعدم سماعي العربية الا قليلا فالسواد الاعظم حتى من الاطفال يتحدثون بالتركية أولا والكردية ثانيا فهاتان اللهجتان تكادان تكتمسحان



مختلف الازياء فرق جسر دود دستراضهم عند الاصيل -

العربية وغالب الناس مسلمون لكنهم في جهل عميق وسذاجة بادية وتعوز
جسومهم النظافة وهندامهم التنسيق والتوحيد
أقلتني (عربانه) الى بابا جرجر حيث توجد آبار البترول الشهيرة
فوصلتها في نصف ساعة وهناك بدت ميادين البترول في سهول ممدودة الى
الآفاق يكاد ينز البترول الاسود من كل ارجائها وقد حفرت الشركة -
وهي انجليزية فرنسية ألمانية - ٣٦ عينا أقامت على كل شبك الحديد
(والفناطيس) والساريات والمضخات وكلها تتصل بأنايب ترى ملقاة على الارض
وكأنها الشباك تتجمع البترول في المركز الرئيسي حيث يكرر تكريرا جزئيا
ويدفع بمضخات في أنايب تمتد الى ثغر بيروت . وفي كثير من الحفائر كينا
نرى سيل البترول الاسود الناعم يتدفق ويسيل مختلطا بالماء وهذا يخول
لمن أراد ان يملأ صفاحه منه وهو يستخدم في الرصف . وفي بعض

البؤرات وبخاصة المسماة (بابا جرجر) ومعناها أرض النار - يشتعل لهيب
 من مسارب وفوحات في الارض ويظل متقددا صباح مساء وانت اذا حفرت
 بؤرة واشعلت بها عودا من ثقب ظلت الارض ملتبهة باستمرار مما يشعر
 بغنى الارض المفرط في الزيت وفي مناطق الآبار نفسها يحرم القانون
 اشعال النار أو التدخين . وقد وقفت وسط الفوهة الكبرى وكأنها كأس
 لبركان متاجج وكانت ألسنة اللهب مندلعة من حوله . وصخر الاقليم يبدو
 كالطفل المصفر تشوبه حمرة ونوائى الصخر خليط من الجير والخرسان وأينما
 حفرت ظهر نز الزيت والعيون المفتحة التي يخرج منها القار لا تدخل تحت
 حصر وقد كان للاتراك نصيب فيه لكنهم باعوه للشركة الحالية والشركة قد
 وضعت الطرق ومدتها هناك أميالا واقامت المباني على الرنى للسكنى ومكاتب
 الإدارة ويدلك على مبلغ عظم انتاج هذه المنطقة أن الشركة قد انفقت
 مبلغ ١٥٨ مليون جنيه على أعمال التحسين والاستثمار

الى بغداد . قام بنا القطار الى بغداد مسافة ٣٥ كم في عشر ساعات
 وسط سهول نصف مهملة منظرها موحد ممل ليس به شجر وكانت القرى
 شبيهة بقرى صعيد مصر وبعد نصف الطريق عبرنا رافداً كبيراً لدجلة اسمه
 (ديالا) بعده زادت المزارع والنخيل وكثرت القرى فخاكى المنظر بلادنا
 الا في ندرة القنوات واخيراً اقبلنا على بغداد من مورد مهتم مرتب
 منفر فكنا كأننا ندخل قرية صغيرة ووقفنا قليلا على محطة (بغداد شرق)
 ثم نزلنا في (بغداد غرب) فكانت منى خيبة أمل لاني كنت أخال بغداد



لا يزال نساء الاسرائيليات في بغداد محجبات

رائعة المناظر طلية البنيان تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماض مجيد . نقلتني
عربة واخترقنا الشارع الوحيد فيها وهو شارع الرشيد الذي يقطع البلدة
من طرف الى طرف وبه كثير من المتاجر ودور الملاهي والمقاهى مبانيه
قديمة وفي غير انسجام ولا تكاد الابنية تعلو طابقين وتمتد على جانبيه

الاعمدة على نحو ما نراه في شارع محمد علي بمصر وفي جانب منه وقف بي
السائق امام (نزل هلال) وما كاد يستوى بي المجلس ويخيم الليل حتى كان
الفناء الرئيسى للفندق وهو الذى تشرف عليه كل الحجرات مكانا
للغناء والموسيقى والرقص مما أذكرنى برفه بغداد أبان عزها البائد وجمال
الفكر فى الف ليلة وما روى لنا من أعاجيب . نزلت فاذا المكان غاص
بالمستمعين المترنحين الذين لعبت الخمر بعقولهم ثم خرجت الى الطريق فاذا
سيول من الناس فى لهُو ومجون رغم أن هندامهم الشرقى العربى يتنافر مع
كل أولئك . وفى الصباح تفقدت كثيرا من نواحيها فلم يرقى بها شيء كثير
سوى جسورها التى تعبر دجلة وتصل ما بين الرصافة فى الشرق والكرخ
فى الغرب وتلك الجسور تقام كلها على الزوارق فتراها تهتز صعودا وهبوطا
مع مد الماء وجزره وأهمها جسر (مود) على اسم القائد الانجليزى وهو
أحدث الجسور جميعا يصل ما بين ازحم جهات المدينة ويؤدى فى الجانب
الغربى الى قسم جديد به المتنزهات والمقاهى ودور الملاهى ويتوسطه
طريق فسيح به تماشى للبلد فيصل يمتطى جوادا وهو فى زى عربى بالعقال
وعند الاصيل يدهش المرء لسيل المارة الدافق فوق القنطرة وجماهيرهم
المتلاصقة الاكتاف من نساء ورجال يروحون ويغدون فى نشاط وحركة
كأن البلدة فى يوم عيد . هنا يعتقد المرء ان الشعب العراقى مرح ميال الى
الرفه والمجون بشكل يفوق كل وصف وقد استرعى نظرى جمال السيدات
هور شاقتهن يسير السافرات منهن - وغالبهن من اليهود - فى هندام أنيق عليهن

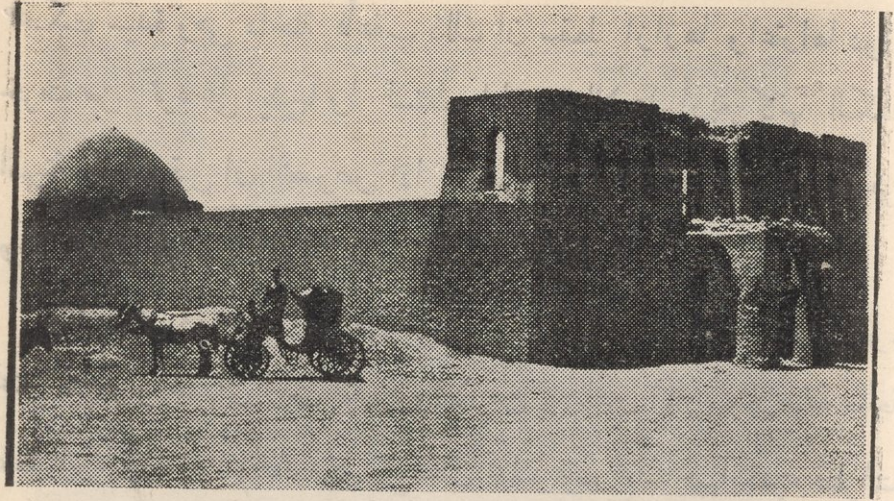


مثل للجمال الاسرائيلي في بغداد

المعاطف المهفهفة تتدلى من فوق الرؤوس وكأهن يفاخرن بأزارهن هذا
فهو لا يقل ثمننا عن عشرة جنيهاً وللأغنياء باضعاف ذلك والمسلمات
يسمونه (العبا) ويلبسه حتى صغار البنات وهو من حرير ينسج على اليد
وبعضه تتخلله خيوط الذهب ويلفت النظر في نساء العراق شعورهن المرسله

الغزيرة التي تزيدهم جمالا ويقولون ان الحناء التي يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هي سبب ذلك ولعل نقطة الضعف في جمال النساء طول الانوف ودقتها ويندر ان ترى بينهم القامات الطويلة والاجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين على أن منطقهم جميعا منفر غير موسيقي

وفي المدينة مجموعة من مساجد على الطراز الفارسي بمناراتها الدقيقة والقباب التي يكسوها القيشاني الازرق وقد بدأت زيارتي بمسجد الاعظمية: وفيه يدفن الامام الاعظم ابو حنيفة شيخ المشرعين وكان مولده سنة ٨٠ ووفاته سنة ١٥٠ هـ والضريح تحيطه شبك الفضة الثقيلة وفي اطرافها زينة في شبه حراب ذهبية وقد كتب حولها بالفضة كثير من آي الذكر والحكم المأثورة والقبعة يغشاها القيشاني من داخلها والنحاس الاصفر البراق من خارجها وقد جدد طلاؤه بأمر صاحب الجلالة الملك السني فيصل الاول وفيه دفنت رفاته بعد زيارتي بأيام قليلة ولم يكن بالمسجد منذ زيارتي أحد سوى خدامه . بعد ذلك عبرت النهر الى الضفة الغربية صوب الكاظمية وهي بلدة عتيقة يقدسونها لان بها مدفن الامام موسى الكاظم من قادة الشيعة والمسجد فاخر يأخذ بالالباب اقامه نادر شاه من ملوك فارس وزاد فيه سلاطين الفرس بعده وقد أمر أحدهم بعد زيارته للحرم ان تكسى مناراته بطبقة من ذهب خالص ثم زاد فيه الترك بعد ذلك وفيه جانب اقامه سليم الاول والمدفن تعلوه قبتان وتحوطه اربع منارات بريق الذهب الاصفر الذي يكسوها جميعا يخطف الابصار وحول القباب فناء مفتوح تحوطه البوائك التي يزينها القيشاني وتحتها غرف للطلاب والزهاد

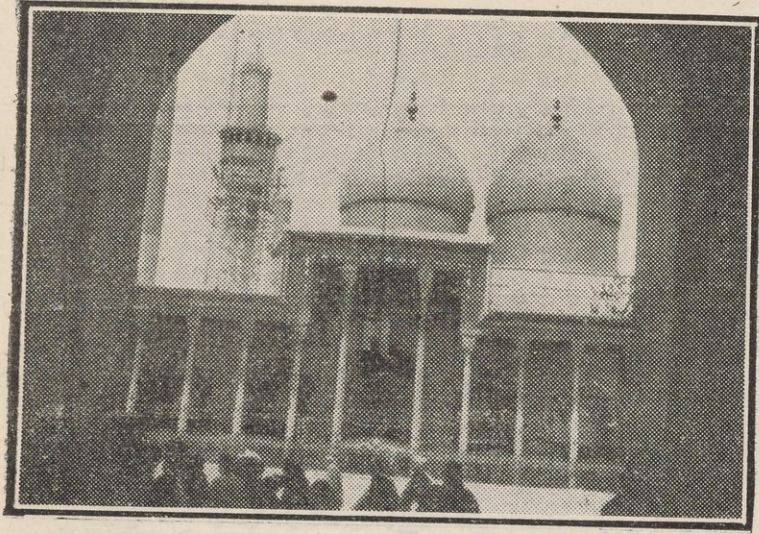


نبي الله يوشع في بغداد

وانت ترى الاركان والزوايا والاقبية معتدة ترصع بقطع المرايا وتحوط
الضريح شباك الفضة الثقيلة وما كدت ادخل الباب حتى اسرع الى رهط النقباء
المشعوذين بأرديتهم المميزة : طربوش عليه نصف عمامة خضراء وعباءة سوداء
فقسلمني واحد منهم بالقوة واخذ يصيح صيحات ويقرأ تعاويذ وعبارات
توسل وطاق بي وهو يأمرني أن أقول أدعية خاصة ورائه ولما كنا امام باب
الضريح قال ار كع وقبل الاعتاب فأبيت وقلت كفي فقد قرأت الفاتحة . أما
سبل الناس في داخله فحدث عنه هذا يقبل وذاك يمسح وتلك تصيح وأخرى
تجكي في مشهد رهيب . هنا بدت لي ترهات البسطاء ومدى سيطرة الخرافات
عليهم واغلبية البلاد من الشيعة ومن السذج غير مثقفي العقول وكم من اناث

يحضرن الى الضريح ويلقن فيه من الحلى والجواهر وقد حدث مرة أن
ضحكت سيدة وهي داخلة فأعقب ذلك ان سقط ازارها واعتراها دوار
خرت من أثره على يديها ولم تستطع الخروج الا على أربع كأنها الكلبة
المهينة كذلك قيل ان اللصوص اذا حضروا الى المقام وجب ان يعترفوا
والا التصق بدنهم بالجدران فلم يستطيعوا الحراك !

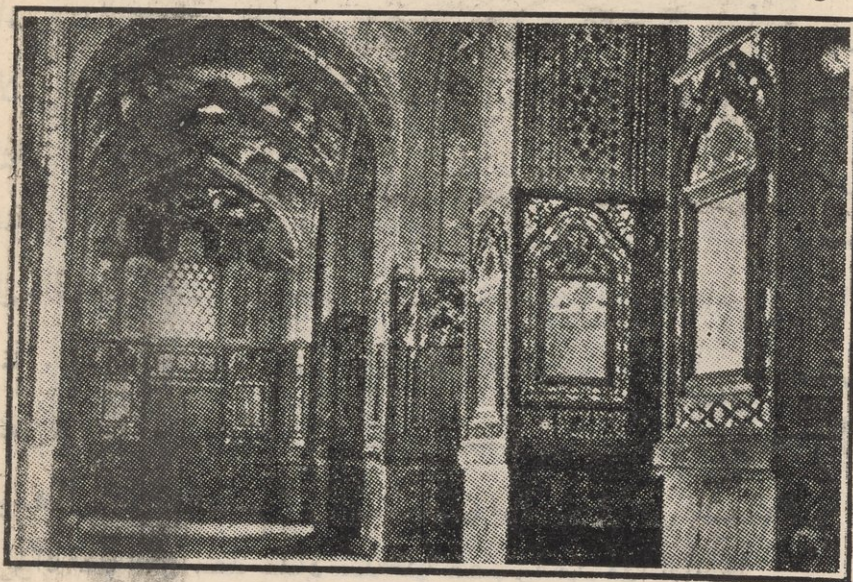
وما راقى في بغداد اسواقها الضيقة الملتوية يعلوها سقف منحدر تقوم
تحت المتاجر واغلبها في ايدي اليهود والارمن وجمهير المارة متلاصقة مائجة
طيلة اليوم والمقاهى (البلدية) في كل مكان تجلس فيسرع صاحبها بتقديم قطرات
من القهوة السادة في (فنجال بيشة) تحية للقدوم ولا بد ان يقدمها صاحب
المقهى بنفسه زيادة في الترحيب ويكرر ذلك بين آن وآخر وبغداد كلها فيما
عدا شارع الرشيد الوحيد ازقة نظيفة ارضها مرصوفة يتوسطها مجرى صغير
لصرف المياه وتكاد الشرفات : (المشربيات) المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق
من الشمس والنور والسيوت جلها في هندسة شرقية ذات فناء سماوى تطل عليه
نواحي البيت الاخرى ويتوسطه حوض الماء وابواب البيوت مثقلة بالحديد
والنحاس كأنها ابواب القلاع في نظام شرقي بحت هنا كرت المجتمع عهد أبي
جعفر المنصور وهرون الرشيد فلقد بناها المنصور ووضع أول لبنة بيده سنة ١٤٠ هـ
بغضا بأهل الكوفة وتجاфия عن جوارهم وكان ثلثها على الضفة اليمنى لدجلة ويسمى
الكرخ والثلثان على اليسرى ويسمى الرصافة وقد أطلت البحث عن أثر
يرجع الى ذاك العهد فلم أجد الا حائطا مظلا على دجلة على مقربة من الجسر



قباب مسجد الكاظمية يكسوها غشاء من ذهب براق

القديم نقش عليه : بني في عهد ابي جعفر المنصور . بالخيط الكبير وكان معهداً
عليها يسمى المستنصرية لكنه اتخذ اليوم مكاناً للجمر ك رغم أنه جدير بالرعاية
والحفظ لانه الوحيد من نوعه وهناك بقية للسور القديم والقلعة وحوها
أقيمت دور الحكومة وقصر الملك يطل على ماء دجلة في تواضع كبير ومن
المساجد القديمة تبقى مئذنة متهدمة . ذلك كل ما تخلف من عصر العظمة
الاولى . وقت أسائل نفسي عن الزوراء ودار السلام بلد المنصور والرشيد
الذي أنفق عليها أبو جعفر فوق أربعة ملايين دينار وطوقها بسورين وكانت
أبواب السور الداخلي مزورة ومن هنا سميت المدينة الزوراء وفي عهد

الرشيد أقام سراة القوم الجانب الشرقي قصوراً فاخرة وأسماه الرصافة وأصبح
الحلي الارستقراطي الحديث وقد بلغ سكان بغداد اذ ذاك مليوناً ونصفاً
وكان الترف آخذاً كل مأخذ فكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة
آلاف درهم وعلى السباط ثلاثون صنفاً من الطعام تقدم في أواني الذهب
والفضة وقد أقام وليمة لزييدة كلفها خمسة وخمسين مليون درهم وكان يقدم
للناس اطباق الذهب تملأً بالنقود الفضية واطباق الفضة تملأً ذهباً وقد
أثقل زييدة بالحلي حتى أنها لم تستطع النهوض والسير خطوة ولقد كانت زييدة
مسرقة من ذلك أنها صنعت بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل
عظائر: الاجسام بنسيج الذهب والعيون باليواقيت والجواهر وقد كلفها
مليون دينار وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين الف دينار. هنا ذكرت أيضاً
البرامكة وما وصلوا من رفته وسلطان فقد كانوا أكثر ترفاً، مجالس الطرب في
دورهم كل ليلة والراقصات من الغواني أمثال (فوز وفريدة ومنه) لا يغبن
عن تلك المجالس وقد كانت تعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع في
سوق النحاسين وكان الدلال ينادى ويصف الجوارى ويعدد في جمالهن
ومحاسنهن فسلط الله عليهم زييدة وقد أسلم الرشيد لها كل شيء حتى مالية
البلاد فأخذت تنفق عن سعة واسراف فأحصوا لها أنها أنفقت وحدها
ثلاثين مليون دينار وبنيت مسجداً على دجلة باسمها وأنشأت عين زييدة في
الحجاز وأوصلت ماءها الى مكة وكلفتها مليون دينار وقد بلغت موارد
بيت المحال في عهدا خمسمائة مليون درهم من فضة وعشرة ملايين دينار ذهباً



الاسراف في الزخرف داخل مسجد الكاظمية

وهي أرفز ما حصل في دول الاسلام جميعا ولما مات أبو جعفر قال للبهدي
في وصيته أنه خلف له من الاموال ما أن كسر عليه الخراج عشر سنوات
كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغيرها !

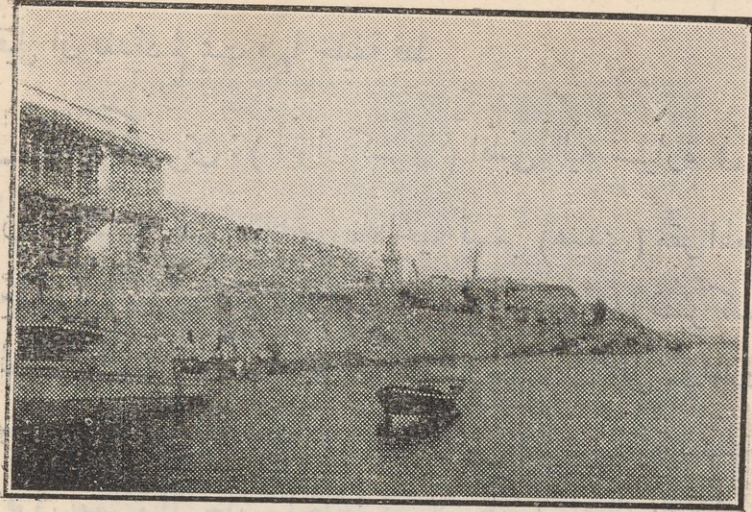
وقفت أتلس من كل هذا بقية لكن يد الزمان قد أتت على كل أولئك
لكثرة من اغار على بغداد وأعمل فيها حرقا وتدميرا نخص هولاء
التتارى الذى اجتاحتها في القرن الثالث عشر وأحرقها وسلب قصورها ورمى
بذخائر مكتباتها في دجلة وهدم قناطرها التى ظلت من قبل آلاف
السنين تنشر الخصب وتروى المساحات الشاسعة فاستحال تلك السهول

اليوم الى قفار مهملة أو منافع يربى بها البعوض والملايا وبعد هذا العهد قامت بغداد ثانية على الانقاض الاولى وما كادت تظهر حتى فاجأها تيمورلنك الاعرج في القرن الرابع عشر وتركها اطلالا وفي ١٥٢٤ دمرها للمرة الثالثة الشاه اسماعيل وكذلك فعل الشاه عباس في القرن الرابع عشر وفي سنة ١٦٣٨ أخذها مراد الرابع التركي من الفرس وبدأت تنشأ من جديد . الى ذلك فكم قاست من هجمات فيض دجلة الذي طالما اجتاحتها بأكملها وفي سنة ١٨٦٠ جاء مدحت باشا حاكم بغداد فهدم سورها وباع انقاضه الهائلة لينفق منه على مشروعاته الاصلاحية العدة ولم يترك سوى ما بين (الباب الوسطاني وباب الطلسم) وكان السلطان مراد دخلها من باب الطلسم لان الرواة قصوا أن منقذ بغداد سيدخلها منصورا من هذا الباب

خرجت يوما الى مقابر بغداد وزرت قبر زبيدة زوج هرون الرشيد ويمتاز عن باقي القبور حوله بأنه تحت مئذنة تعلوه قبة في شكل مخروط مجزع يسترى النظر وحوها مدافن أخرى ممدودة أهمها مدفن :

بهلول : سمير هرون الرشيد يؤمه كثير من الناس وبخاصة السيدات

يوم الاربعاء ، دخلته فاذا في فناءه عدة مبان نموذجية صغيرة من القش والخرق وتسد منافذها بالحنا منها واحد وضع داخله مهد طفل اقامته سيدة عقيم لا تلد زجاء أن يمن الله عليها بمولود وآخر داخله سرير تنام عليه دميان متجاورتان وضعته فتاة تطمح الى الزواج فاذا ما أجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين



المستصرية تطل على دجلة وهي الاثر الوحيد الباقي من عهد أبي جعفر المنصور
ومن الاضرحة المقدسة هناك مدفن منصور الحلاج يجاور مدفن
الشيخ معروف الكرخي يقدهه المسلمون من الافغان والفرس والهند وهو
فارسي كان ورعا متدينا زاهدا وكان يخلع على الناس رداء من الصوف -
ومن ثم نشأت فئة الصوفية - وظهرت له كرامات فاتهمه السديون بالزندقة
وسجنوه ثم قتلوه ذبحا على جسر دجلة ورموا بقاياها بعد حرقه في النهر
ويقول الناس ان ماء النهر قد فاض وطفا الرماد المقدس فوقه وهو يقول
(انا الحق) فجاء شيعته وجمعوا ثراه ودفنوه ويقدهه اليزيديون عبدة الشيطان
ويقولون ان رأسه لما رميت في النهر طفت الروح منها وصادف ان كانت
اخته تملأ جرتها فدخلت الروح فيها ولما شربت منها حملت وبعد تسعة
شهور وضعت طفلا شبيها بأخيها تناسخت روحه المقدسة في ذاك الطفل

ولهذا لا يستخدم اليزيديون الجرار قط أما من قبور الخلقاء فلم أجد شيئا
وقد قيل ان بغداد لم يمت فيها خليفة قط

الى طاق كسرى: (أيوان كسرى) اقلتنى اليه سيارة فى ساعتين
فبعد أن خرجنا من بغداد قليلا مررنا بناحية تسمى (هنيدى) مقر المعسكرات
الانجليزية وبعد مسيرة اكثر من ساعة فى ارض خصبة بدا قصر كسرى على
بعد كالطود الشامخ ولما جئناه كانت الحفائر حوله ممتدة الى مسافات وهو
يقوم فى حائط شاهق لا نوافذ فيه لكنه نقش فى شبه اقبية سدت بالبناء
بعضها فوق بعض والى جانب الحائط قبو لاتسكاد تدرك العين مداه ووقت
تحتة وتخلت كسرى أبان صولته يجلس فى كمال أبهته فى هذا الايوان الذى أصبح
قاعا صنفصفا لا تجانبه الا قرية صغيرة يزورها القوم لان فيها مدفن أحد
الصحابة هو سليمان باج الفارسى تحت قبة صغيرة . وطاق كسرى أقيم
بالآجر المصفر فى متانة غالبت الزمن طويلا وقد انهدم أحد جانبيه اثر
زلزال هائل وما بقى منه مصدع الجوانب مائل الجدران وقد لبثت اطوف
بالمكان الى الغروب حين بدا القصر شبعا قائما فى ضوء الشفق الضئيل
الذى اكسب المكان رهبة وأعاد الى الخيلة ذكريات الماضى المجيد لتلك
الناحية المنبوذة اليوم

والمكان يسمونه طيشفون وكان بلدة شادها الفرطانيون الذين لا تكاد
نعرف عن تاريخهم شيئا ولقد كان مقرهم الجنوب الشرقى لبحر الخزر ولما

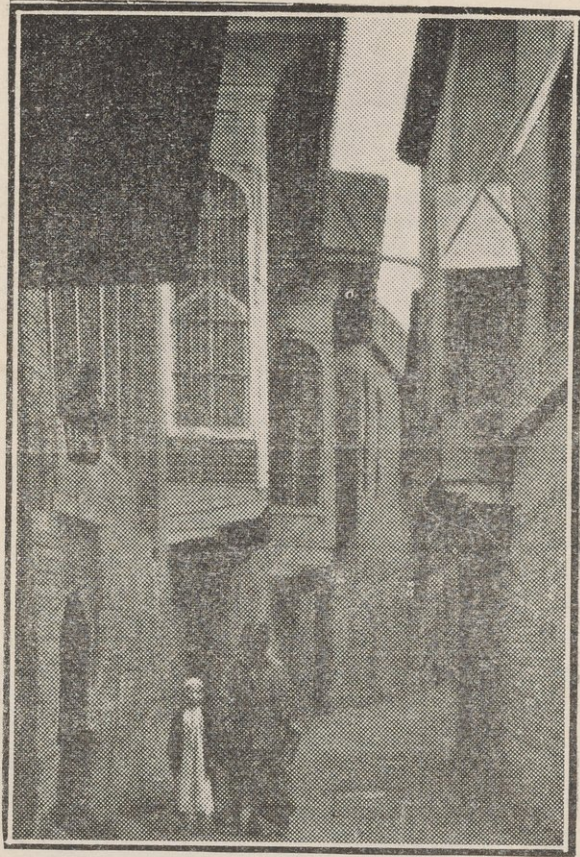


هرون الرشيد يستقبل رسل شارلمان

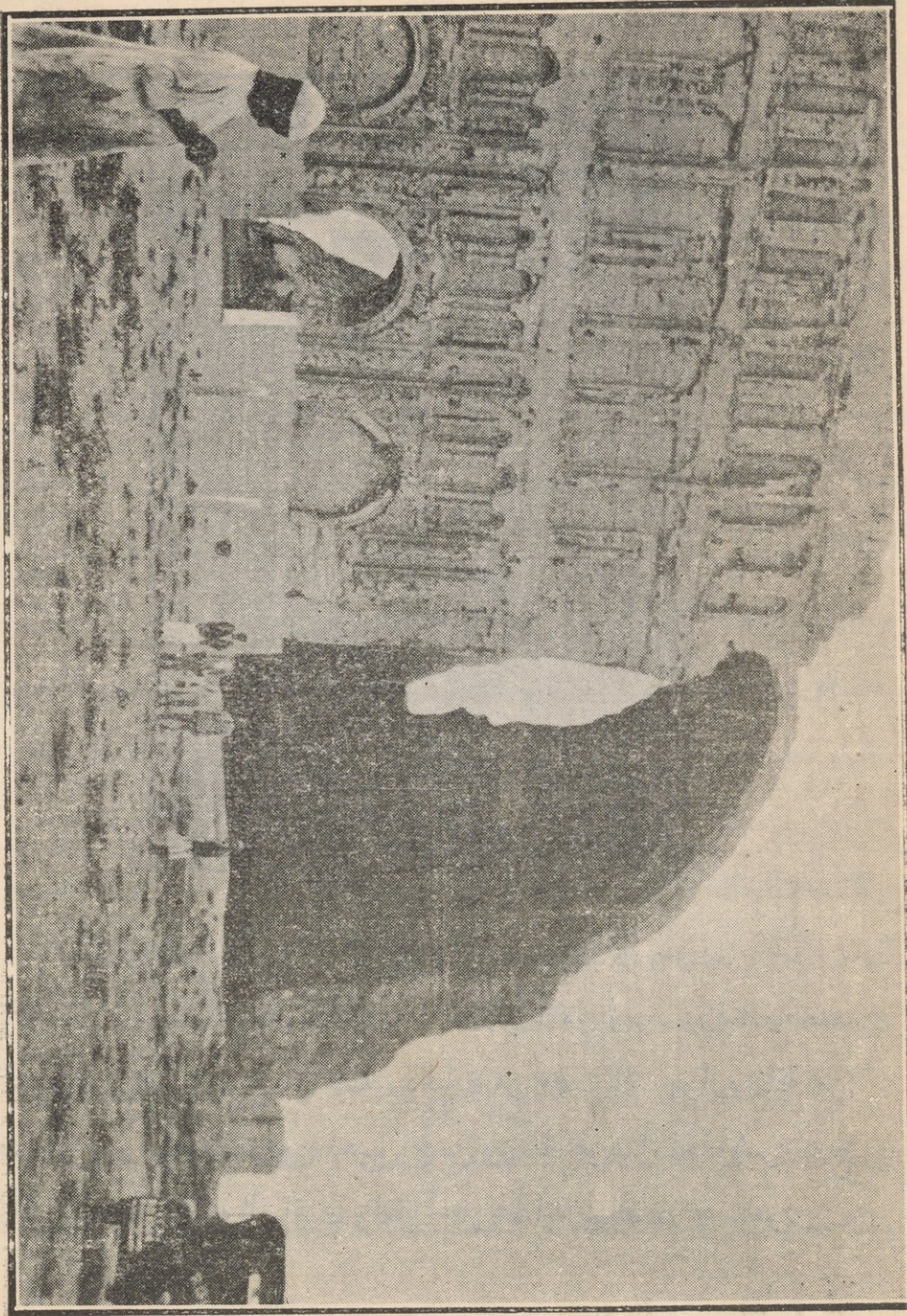
نالوا استقلالهم سنة ٢٥٠ ق م اتسع ملكهم وظل ٤٠٠ سنة وقاوموا الروم
في آسيا وكان ملوكهم يمضون الصيف في الشمال واذا ما اقبل الشتاء حلوا
طيشفون شرق دجلة تجاه بلدة (سلوقية) التي بناها سليوكاس الاغريقي على
الضفة الغربية . ولما كبرت طيشفون أصبحت عاصمة ملك الفرطانيين وحاول

الروم غزوها فأعياهم ذلك حتى جاء الامبراطور (تراجان) فحمل سفنه
من البحر الى البر وسيرها على اسطوانات الى دجلة وعبره بها واحتل
المدينة وبعد فترة اضطراب ظهر (أردشير) ملك فارس وغلب الفرطانيين
وجعل طيشفون مقره فأسس اسرة الساسانيين وأعاد اصلاح سلوقية وشاد
حولها مجموعة من بلاد اطلق عليها العرب اسم المدائن وفي سنة ٥٣١ ميلادية
ظهر في الميدان أعظم الساسانيين (كسرى الاول انو نشروان) وشاد
القصر الابيض ولما ظهر الاسلام وانتصر سعد في القادسية فتح البلدة وأخذ
ذخائرها التي لا تقدر وفي بهو القصر صلى سعد الجمعة بالناس لأول مرة في
املاك فارس ولما ظهر للعرب أن موقع طيشفون ليس صحيا ولو اشطر الكوفة
وبغداد والبصرة وقد جملت بغداد بكثير من المواد التي نقلوها اليها من
طيشفون وسلوقية حتى لم يبق فيها من أثر واضح الا قصر كسرى الذي
غالب معاول أبي جعفر المنصور الذي نقل من آجره الكثير رغم معارضة
خالد بن برمك وكان يريد له أثرا خالداً فشك الخليفة أنه يتعصب للفرس قومه
ولما أعياه الهدم استشار خالداً في ايقاف الهدم فقال له : كنت أرى عدم
الهدم ولكن أما وقد بدأت فلا يصح ايقافه لئلا يقال عجز سلطان العرب
عن هدم مصنع من مصانع فارس فندم المنصور وأوقف الهدم

وكم ضم القصر من آيات البذخ والغنى لملوك فارس الاقدمين وقعت كلها
غنائم للعرب على يد سعد من أكداس الذهب والفضة والملابس الموشاة
والاحجار الكريمة والاسلحة المرصعة الى ذلك مقادير المسك والعنبر والكافور

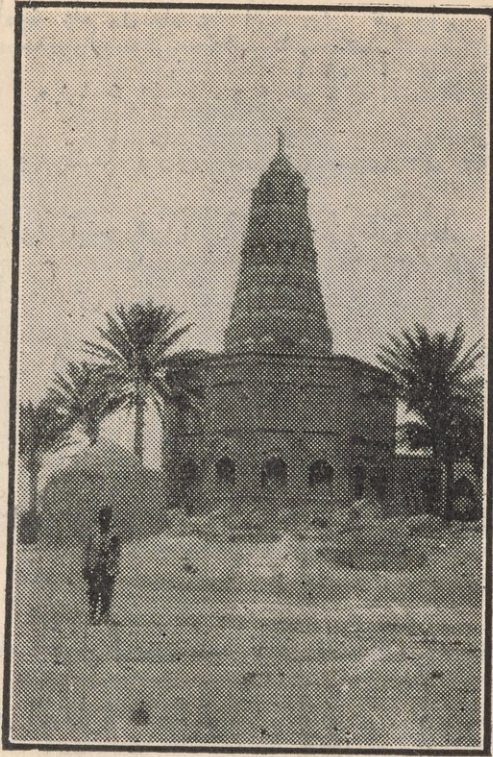


كل أحياء بنداد من تلك الأزقة التي تذكر المرء بعهد هرون الرشيد
والاعطار وجواد من ذهب خالص أسنانه ركبت من زمرد ورقبته رصعت
باليواقيت وكان له سرج من فضة وداليات من ذهب الى جواره ناقة من
فضة ومن ورائها رضيعها من ذهب . ومن بين ما حوت أسلحة كسرى درع
كامل من ذهب تزينه اليواقيت ولعل أجل مخلفاته بساط ذرعه سبعون



آب ان کسری

مجله علمی و ادبی
شماره ۱۲۸
تیرماه ۱۳۰۳
چاپخانه مطبعه...



الى جوار قبر زبيدة زوج هرون الرشيد

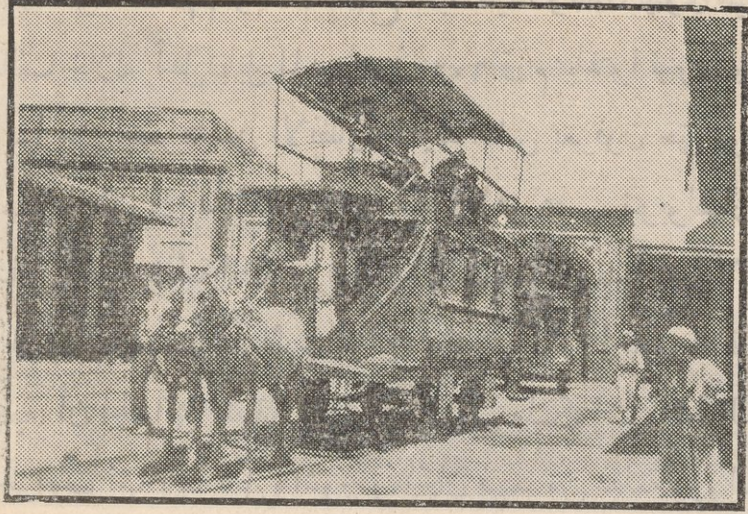
ذراعا في ستين وكانت رسومه تمثل حديقته حيكمت أرضها من ذهب وطرقها
من فضة ومروجها من زمرد وجداولها من لآلى واشجارها وثمارها
وزهورها كانت مزيجا من الماس والاحجار الكريمة . وقد أرسل سعد الى
الخليفة بالاشياء الفنية القيمة وبخمس مالتى من الغنائم ووزع اربعة أخماسها
على جنوده الذين ناهزوا ستين الفا فنال كل منهم ما قيمته ثلاثمائة واثنا عشر
(٣١٢) جنيها

وقد كان القصر الابيض زينة طيشفون وأجل ما خلفه فن العمارة
الساساني . بناء شامخ قام مدخله على اثني عشر عمودا من رخام وكان ذرعه
١٥٠ قدماً في العلو و ١٨٠ عرضاً و ٤٥٠ طولاً ولقد كانت سعة البهو الكبير
الايوسط ١١٥ في ٨٥ قدماً وكان يحمل قبو سقفه مجموعة من نجوم الذهب
والكواكب السماوية تبدو فوق الافق . هنا كان يجلس كسرى على عرش
من ذهب يستمتع للشكواوى ويقيم العدل . وقفت أستظل بذلك القبو الهائل
وسرعان ماتوا لذكريات العظمة البائدة فكنت أنظر فلا أرى لها أثراً
وكان حفيف الريح في أوراق الغاب البرى الذى احاط بتلك الخرائب كأنه
صوت ينعى أولئك الجبابرة فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء
وينزع الملك ممن يشاء .

عدت في المساء وقيل بغداد عبرنا نهر ديالة رافد دجلة وقد دفعت
سياراتنا رسم عبور القنطرة سبعة قروش ونصف (روية) وتلك قاعدة
متبعة في كل قناطر العراق

الى الحلة : قمت اليها في القطار وهى من مدن الكلدانيين وان لم يبق

لهم فيها أثر اليوم وهى وسط اقليم خصيب يستفيد من سد الهندية أكبر
وسائل الري في العراق كلها وهو يروى ثلث مليون فدان ويقول الناس ان
مياه الفرات أكثر خصباً واغزر فيضاً من دجلة وهو أعذب شرباً وأصلح
للصحة ولقد أقام الاسكندر المقدونى أبنية ليسيظر على مياه شط الهندية الى
الغرب وشط الحلة الى الشرق وهما شعبتان للفرات وقد أعاد الانجليز اليوم



لايزال ترام بغداد تجره الجياد

بناء سد الهندية لامداد فرع الحلة الذي كادت تسده الرواسب بينما فرع الهندية
كان يتعمق حتى كاد يودى بالمياه سوي. قمت في سيارة مسيرة ساعة الى :

بابل : التي بناها الكلدان على الضفة اليمنى للفرات فاذا بها تل من

الطين حوله المزارع وفي وسط ذلك التل رأيت بعض اطلال يقولون انها
مقر الحداثق المعلقة وقصور بابل وكانت بابل اول الملكيات العظيمة
التي قامت في غرب آسيا وهي ثمانية ملكيات العالم بعد مصر وكان يطلق عليها

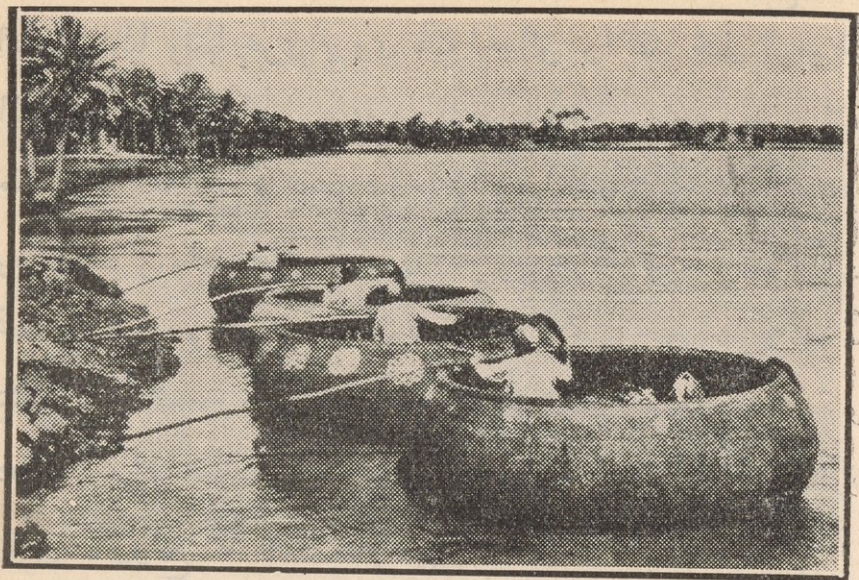
ارض شنار وفيها ظهر نمرود طاغية على الارض ومن بابل تقدم الى
ارض آشور وبنى نينوى ولبثت آشور ونينوى خاضعين لبابل طويلا وفي

ما منيهم

القرن التاسع قبل الميلاد نال الاشوريون استقلالهم وفي ٧٤٥ ق م هزموا بابل وأخضعوها لملكهم وبذلك أصبح العبد سيدا وظلت نينوى سيدة زهاء قرن حالف خلاله أهل بابل الميديين وفي ٦٠٦ ق م باغتوا نينوى وأمعنوا في تخريبها حتى اخفوها عن الانظار ولم يعد الناس يعرفون حتى موقعها وبسقوط نينوى بدأ العصر الثاني لبابل وهو عصر نبوبولصار الذي بنى الحدائق المعلقة ذائعة الصيت واحدى عجائب الدنيا وقد أقامها لاستمتاع زوجه الميضية بنت أحد أمراءهم الموالين وقد ورد في إحدى الاقاصيص الاغريقية أن الحدائق المعلقة شادتها سمراميس ملكة آشور الخيالية التي تقول الخرافات انها بانية بابل واشور وما كان فيهما من عظمة ورواء فأراد نبوبولصار ان يشيد بلدة تفوق كل ما تقدمها فسخر في بنائها مهندسى نينوى الذين ألزمهم باقامتها قسرا وهم له أسرى ارقاء فأخرجوا بابل الثانية في رواء وجلال فاق كل ما تقدمها وقد روى هيرودوت ابو التاريخ أنه فى القرن الخامس ق م أقيمت بابل فى مربع يشقه الفرات وكان ذرعها ١٥ ميلا مربعا يحوط كل أولئك سور علوه ٣٥٠ قدما وسمكه ٨٧ تتخلله مائة بوابة من نحاس ولم تكن موطننا لاخلاط الناس بل لمترفى القوم وملوكهم وهى أفخر مدن العالم القديم جميعا وأجل مبانيها :

الحدائق المعلقة : أقيمت أسسها من الصخر المنحوت رغم

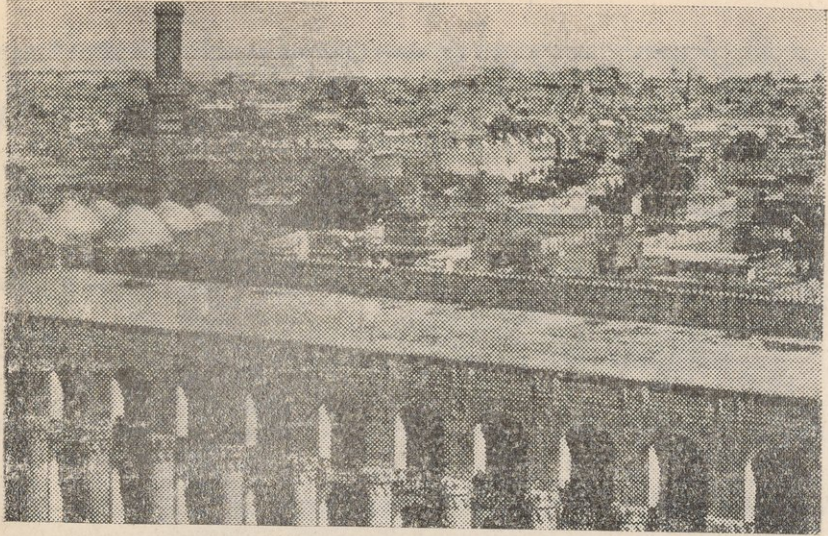
صعوبة الحصول على الصخر وسط أرض دجلة والفرات الطينية ولم يعلم من أين جاءوا بتلك الاحجار ولم كلفهم ذلك من جهد ومال . حقا أن



زوارق بغداد ويسمونها (جونه) وتصنع من جدائل الخوص
ثم تقام جرانها على أضلاع من عصى ثم تطلي جدرانها بمادة غير مسامية
الحدائق لم تكن تفوق في العظمة والابهة قصر نوبولصار ولا معبد
(بل ماردوك) إله بابل وحميها ذاك الذي أقيم من طبقات يتوجها هيكلان
من ذهب . الا أن الحدائق المعلقة كانت أكثر جمالا ورقة ولقد شغلت متسعا
ذرعه ربع ميل في الشمال الشرقي من البهو الرئيسي من القصر الملكي وقد
أقيمت في شبه مصاطب أو شرفات الواحدة فوق الاخرى من صخر ترفعه عدة
بؤائك وأقية الى علو يناهز ٣٥٠ قدما وكان يدعم البناء سور سمكه عشرون
قدما مكن لمرور عربتين متجاورتين في كل اربعة جياذ وكان يكسو كل
لافريز من هاتيك غشاء سيمك من الطين تنبت فيه أعشاب الزهور

وأشجار الثمار وكانت تروى تلك الحدائق من مضخة هائلة ترفع الماء الى
الطبقة العليا ومنها يجرى فيروى تلك الحدائق ولا تقاء خطر الرطوبة ونز
الماء بطنت الاقيية كلها بطبقة من الرصاص وكان يتخلل تلك الاقيية
مقاصير للراحة بولغ في نقشها وزخرفها تؤمها الملكة وحاشيتها تخلصا من
وهج الشمس ولقح الحر في سهول الجزيرة المحرقة صيفا ولقد رأيت ما
تختلف منها في قبو طويل من الطوب والحجر تحته حجرات كانت أشبه
بمثالج لحفظ الطعام من العطب والفساد وعلى جانبيه بقايا لغرف عدة والى
جوارها بئر لها فتحات ثلاث الوسطى مستديرة بجانبها اثنتان بيضاويتان
ويظن أن روافع الماء كانت تقام عليها

والى شمال بابل رأينا القصر وقلعة نبوبولصار من الآخر بجانبها أسد
بابل الذى يظاً تحته رجلا وهو فى هندسة غريبة غير بابلية لذلك ظن أنه من
أسلاب الحرب من بلاد الحيثيين فى الشمال ويعزز ذلك صخر وجد الى جانبه
وكتب عليه بالحيثية . والى جنوبه مباشرة أطلال القصر الذى شاده
(نبوبولصار) على اطلال قصر أحد أسلافه وقد بدا لنا مجموعة أجزار من
اجر . ولقد تعقب علماء الالمان تصميم القصر ووضعوا لناهندسته . وفى
ركنها الشمال الشرقى على مقربة من (باب أشتار) مجموعة من بوائك مخربة
ظن أنها الحدائق المعلقة وكان يؤدى طريق مرصوف بالحجر من باب أشتار
الى القصر الملكى من جانب والى معبد مردوك من الجانب الآخر . وقد
رأينا بقايا جسر أو قنطرة من الطوب كان يقام على الفرات يوم كان يشق



منظر عام لبغداد من السراى

طريقه القديم الى شرق طريقه الحالى ولقد كان يحوط المدينة أسوار عدة حتى أنها كانت فى غاية المنعة تشرف على أقصى شمالها قلعة بابل مما يؤيد أن حصار بابل كان لا شك عملا عظيما شاقا حتى أن الفرس لم يحتلوها إلا لما ان دخلوها عن الفرات ويظهر ان نبوبولصار جددها من اقصاها لاقصاها لا ز اسمه وآثاره تعمها جميعا مع انها كانت سابقة ازما نه بنحو ١٥٠٠ سنة حين كانت عاصمة (حامورابى) ولذلك صعب على البكاشفين ان يعثروا على أثر لتلك القرون الاولى التى تقدمت زمن نبوبولصار . والى جانب القصر كومة من أطلال أقامها الاسكندر وأحرق فوقها جثة صاحبه (هفستيون) وهنما مات الاسكندر نفسه ومات فيها من قبل نبوبولصار

ونبو كادرزر وبلشازار وكورش وكثير غيرهم

وهنا جرت أكبر موقعة بين سعد بن أبي وقاص وجيوش الفرس سنة

١٦ هـ حين فتح المدائن

الى الكوفة : قمنا في سياراة وأخذنا نسير وسط تلك السهول الموحدة

المملة ولم يكن يسترعى النظر فيحدث بعض التغيير في المنظر سوى التلال

العدة التي كنا نراها في اطلال بقايا القدماء ومن أهمها قلعة نمرود وتل

أور عاصمة السومريين . بلاد يسأم السائح المقام بها اليوم لولا ما تثيره

ذكريات ماضيها من عظمة . كنا نرتقي التل فاذا به اطلال لمدينة بأئدة

لا يكاد يرى فيها العابر العادي معنى ساميا ولا منظرا جذابا لكن سرعان

ما يمر بالخاطر حامورا بي الذي خط قوانينه في ألواح التي كنا نجد بعض

بقاياها مشورة فوق تلك التلال من سنة ٢١٠٠ ق م هنا يدكر المرء

السومريين وانهم أول من أزاح الستار عن كثير من حقائق العلم والطب

والفلك وهم الذين بدأوا الكتابة واخترعوا المزولة وقسموا اليوم الى

اثني عشر قسما وعنهم أخذ الاغريق

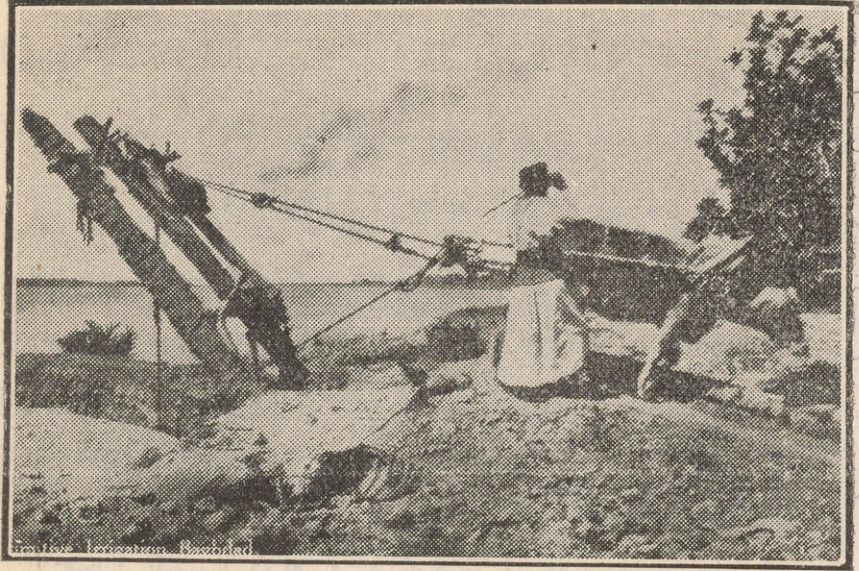
ومن الاماكن التي مررنا بها في طريقنا الى الكوفة : بلدة ذى الكفيل

التي قامت حول مدفن هذا النبي الذي يقده المسلمون واليهود ويعتقد

هؤلاء أنه من أنبيائهم وطالما حاولوا امتلاكه . يحجون اليه ويتوسلون

بالعطايا في مواسم معينة ويكثر عددهم حوله . ولم سمعت الكثير يرددون

القول بان بلاد الجزيرة هي خير وطن لليهود لأن ابراهيم الخليل عراقي

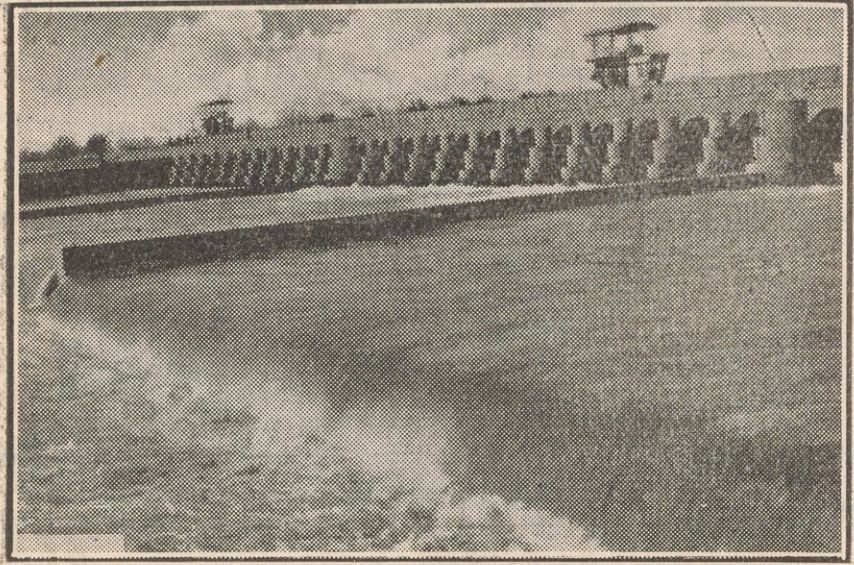


احدى وسائل الري الساذجة

وجل اليهود عاشوا هناك طويلا ولا يزال عددهم اليوم هناك يفوق عددهم في فلسطين وييدهم هناك معظم التجارة وبخاصة الاغذية والصباغة والمنسوجات ويهود العراق من سلائل أسرى اليهود الذين أحضرهم بختنصر الى بابل بعد تدميره للقدس وكثير من زعمائهم يدفن هناك من بينهم عذرا ويونس وناهوم . وغالب الظن ان الطوفان بدأ في النهرين وان جنة عدن حول القرنة عند ملتقى النهرين على مقربة من البصرة . وفي ألواح بابل الطينية قصص كثير من الشركات المالية اليهودية التي بلغت الأوج عهد بختنصر وكان منهم الجبابرة ويخال البعض أن الملكة (استر) هي الآلهة (أشتار) البابلية وهم الذين

ابتدعوا النقود في العراق نقلا عن (ليديا) ورغم وجودهم وسط العرب احب الشعوب للنقود بعد اليهود فان فنونهم المالية فاقت فنون العرب لأن العربي يحب جمع المال ويعمل له ولكنه يضيعه عاجلا أما اليهودى فيحرص عليه طيلة حياته وهم في العراق شريون في كل شىء في الازياء والعادات والخرافات وحتى في الزواج لا يخالط الفتى خطيبته ولا يراها الا يوم الاتفاق على المهر والفتيات يتزوجن مبكرات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة وفي الزفاف يحضر (الربى) ومعه كأس يملأها نبيذا يباركه ثم يشرب منه الزوج نصفا والزوجة الباقي وفي المآتم يحتشد أقارب الفقيد في بيته ويصيحون عاليا والجميع يشقون ثيابهم حزنا ويلقون بالثرى على رؤوسهم

أخيرا بدت الكوفة في قرية صغيرة وقفت بمسجدها الجامع حيث وقف الحجاج الثقفي يتوعد أهل العراق في خطبته المشهورة (يا أهل العراق الخ) وكان طاغية مستبدا مقره واسط التي تقع بين دجلة والفرات وسط الجزيرة وفي منتصف المسافة بين بغداد والبصرة وهناك كان قصره وقد قتل نحو ١٢٠ الف نفس وكان في السجن عند وفاته نحو خمسين الفا ولم يكن للناس حديث عهده الا من قتل اليوم ومن قطع أمس ومن شدة ظلمه في جمع الخراج كان يتنحى الناس عن ولاية الخراج لانهم لا يمكنهم أن يجمعوا منه نصفه رافة بالناس ويظهر أنه كان يحد لذة في سفك الدماء أرسله عبد الملك بن مروان ليثبت لبني أمية الملك في العراق فقام على الظلم حتى انقرضت دولتهم في المشرق وكان زياد بن أبيه في البصرة



سد الهندية اكبر مشروعات الري الحديثة في العراق
وفي مكانه اقام الاسكندر نظما للري كانت اثارها باقية

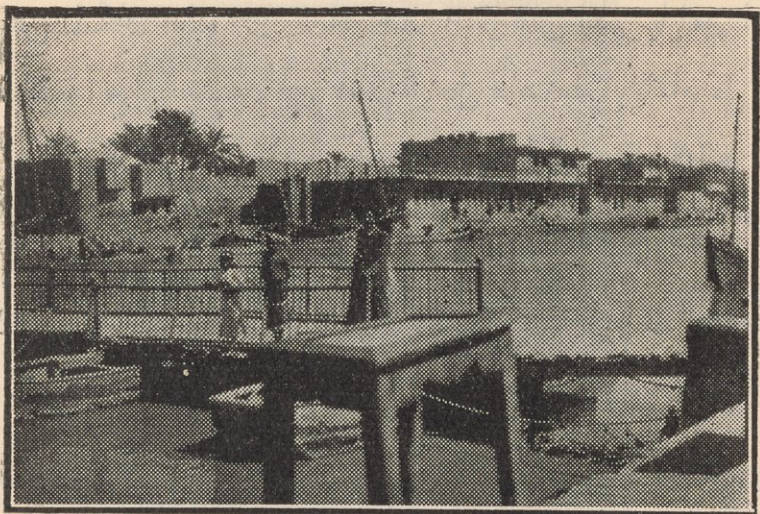
والمسجد محفوظ على شكله القديم يبدو كأنه القلعة بتكآته الاسطوانية
الخارجية ومنارته الوطيئة . فزاؤه فسيح تشرف عليه قبتان احدهما لضريح
مسلم بن عقيل والثانية لهانئ بن عروة وفي وسطه فتحة تحتها سرداب
يعتقد القوم أن الطوفان نبع من تحتها والى جانبها عامود من رخام يستخدم
مزولة كانوا يعرفون به مواقيت الصلاة وفي الركن الايمن للصلاة مقصورة
مغلقة في مكانها قتل سيدنا ابي رضى الله عنه وفي خارج المسجد من ورائه
كانت تقوم قصور الامارة والخلافة الاموية ولم يبق منها شيء اليوم (والحمد

الله كما يقول الشيعة هناك) فالكوفة في نظر الشيعة بلدة ملعونة وهي أكثر بلاد العراق بل والعالم نحسا ونكدا يرمى أهلها بالغدر والجبن وضعف النفس ففيها قتل علي وأهلها هم الذين أغروا الحسين أن يخرج في عائلته وفي وسط الصحراء تخلوا عنه في جبن وخسة وقتل أمام أعينهم وهنا أيضا غدروا يزيد حفيد علي فهم الذين حضوه على مقاتلة الخليفة الاموي ولما هم بذلك تخلوا عنه فقتل مع الفئة القليلة التي ناصرته

الى النجف : معقل الشيعة : أقلنا اليها ترام من الكوفة يسير على

قضان تجره الجياد في ثلث ساعة وأبصرنا على بعد في مجاورة الفرات : الحيرة حيث حارب ملكها النعمان بن المنذر جيوش كسرى وحيث كانت قصة عنترة العبسي بن الامير شداد العربي والام الزنجية وقد نال اعجاب علة من الاميرات بنات عمومته وذلك بفضل ما أوتي من شجاعة فائقة وكانت بلدة الحيرة أسبق من الكوفة شأننا بنى فيها المناذرة بعد تنصرهم القصور والكنائس ولما فتحها خالد تحول عزها الى الكوفة . والمناذرة عمال فارس على العراق كما كان بنو غسان عمال الروم على العرب وفيها بنى النعمان بن المنذر قصر (الخورتق والسدير)

بدت النجف وضاء وسط البادية في رواء وبريق يراه المشاة من الحجاج محط آمالهم وموضع عقيدتهم وفخارهم — وكثير منهم يقوم من بغداد على الاقدام وكم أجهد منهم الاعياء والجوع فماتوا في الطريق — ويقول القوم أن قباب الحرم ترى من أربعين ميلا اذا صفا اليوم وراق



على جسر الحلة

هو اؤه لانه يقوم على ربوة وسط صحراء ممهدة لا حزون فيها وكيف لا يراها
الاتقياء محط آمالمهم وهى مقر أول خايقة للنبي صلعم وفي زعم بعضهم هى
مقر من كان أحق بالرسالة من النبي نفسه ! وللقوم قصة يروونها عن نشأة
النجف هى أنه لما قتل على فى الكوفة حملت جثته على جمل أطلق فى الصحراء
فأخذ يسير على غير هدى حتى وصل ربوة تطل على بحر النجف على مسيرة
ساعة من الكوفة فبرك الجمل وهنا دفن القوم الجثة الطاهرة وأخفوها خشية
أن يعلمها أعداؤهم ومضت السنون حتى جاء هرون الرشيد لصيد الغزال
وتعقب فريسته وكاد يردىها لولا أن ارتقت تلك الربوة وهناك وقف الغزال
متحديا فى غير حراك ولا خوف فنزل الرشيد وشحد قوسه فخاتته ذراعا

ولم يستطع الحركة ثلاث مرات متواليات فدعر الرشيد وأبصر برجل كهل
فسأله عن المكان فقال أن أنا بحت بالسرنالني الضربيا أمير المؤمنين
فأقسم الخليفة أنه لن يصيبه بأذى فقال الرجل هاهنا مقر الامام علي . عرفه
الغزال مأمنا ولا يجرؤ أحد أن يصيبه بسوء وهو فوق العظام الطاهرة فنقب
الرشيد الارض حتى رأى عظام على تحت لوحة من رخام فتركها وأقسم ألا
يروح بسر تلك البقعة حتى أقام عليها المسجد ثم أخذت مباني النجف تحوطه
الى ان بلغت شكلها الحالى

اخترقت سوق النجف المسقف فادى بي الى باب المسجد الذى بهر
أنظارنا بزخرفه وطلائه ، هندسته فارسية وما آذنه وقبابه تكسى بالذهب
الخالص فى بريق خاطف . جزت الباب الى الفناء السماوى المربع تطل
عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح وأنى لقلبي الكليل أن
يصف ابداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور
والزجاج والقيشاني فاق فيه جميع المساجد الاخرى . نظرت فاذا أصوات
البكاء وولولة النادمين وتقيل المتبركين واستلقاء المنتحبين على الارض تثير
الشيخن وتهز القلب ، اصوات تشعر بمأساة قتل الامام مجسمة فلا يتمالك
المرء نفسه من البكاء ، وطائفة النقباء من الاشراف يقرأون أو رادا بعضها من
الكتب والبعض من الذاكرة ويقودون الزوار ويتكالبون على مصاحبتهم
مقابل أجر يتقاضونه جبرا

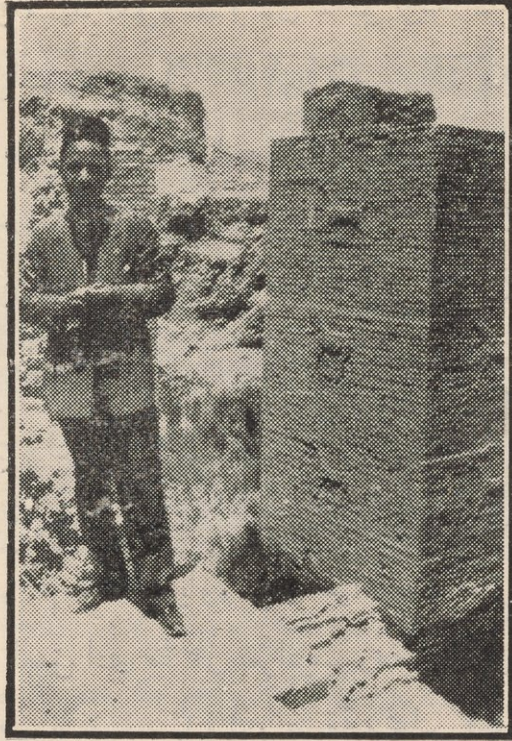


فوق أطلال حدائق بابل المعلقة و بجوارنا أسدها المشهور

وبعد أن أديت الزيارة خرجت أطوف حول الحرم واذا بالمقابر تمتد الى
الآفاق من قباب فاخرة الى اضرحة بسيطة لا يواءم الاف الجثث التي كنت
اراهها تنقل على السيارات أو الاكتاف من الآفاق الاسلامية وبخاصة
العراق وفارس ويقول العلماء هناك أن المدافن عشرة آلاف لا تزيد ولا
تنقص لان سيدنا عليا يرسل ما زاد من الجثث بعيدا فلا يعرف أحدمقرها

والمقابر تباع باثمان هي من الموارد الرئيسية للحرم وتختلف قيمتها حسب قدسية الموقع فهناك مدفن عام (في وادي السلام) ثمن الدفن به نحو أربعين قرشا وفي المدافن الخاصة نحو جنيتين أما في الحرم وما يلاصقه من أراض فلا تقل القيمة عن ستين جنيتها هذا فوق ما يستفيده اهل النجف من مستلزمات الدفن وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج وبعد الغسل يطاف بها حول الحرم وبعد الصلاة عليها تدفن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا على ان يكشف عن مكنونها فتختفي ويدفن في مكانها غيرها !

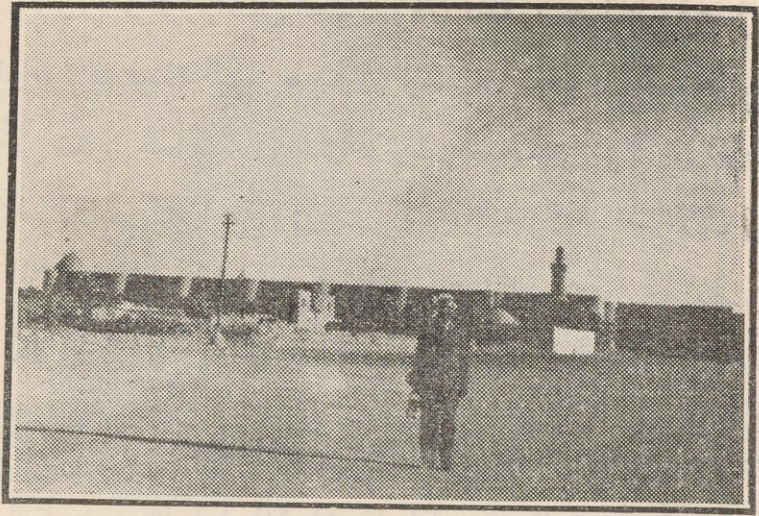
وفي النجف فئتان من الاهلين متباغضتان : حزب السجورت وهم الفقراء وحزب الشمورت وهم الاغنياء - والكلمتان من أصل تركي ولقد اثارهما الاترك يوم ان كان حكمهم السني مبغضا لدى الشيعة هناك فلبجأوا الى سياسة الاحزاب والتفريق بينهم كما يفعل المحتلون اليوم لكن في مكر سيء ودهاء كبير . ولكل فئة أشياع من العشائر في الخارج وكثيرا ما يقتتلون تحت امرة مجتهدهم وتعد النجف مصدر جميع الثورات والاضطرابات التي تحدث في العراق ومنها ثورة سنة ١٩٢٠ الشهيرة ضد الانجليز وبلي المجتهدين في النفوذ طبقة (الكلدار) ويدهم ثروة الحرم وهي لاتقدر وكلها من فيض احسان الزائرين حتى قيل ان الصندوق لما فتح عقب زيارة نصر الدين شاه كان وزن الذهب والفضة سبعة أطنان الى ذلك مصباح نحت في زمردة واحدة ومائلة (شمعدان) للشمع من ذهب ترصعها اليواقيت وبساط



على باب اشتهار ونقرش الثيران والتنين شعار الاله مردوك

تزينه اللاليء وقد أمر أن تكسى القباب والمآذن من ظاهرها بالذهب الخالص
لذلك ليس بعجيب ان نرى البلدة كالحصن حولها سور عتيد وخذق عميق
كأنها من بلدان القرون الوسطى كذلك فأنتك ترى نصف البلدة تحت الارض
في سراديب بعضها تحت بعض في طبقات قد تفوق الخمس. نزلت بعضها فبدت
كالتيه لا يعلم لها أول ولا آخر وهم يحتبثون فيها من وهج الصيف ويدبرون
فيها ثوراتهم ويكتمون أسرارهم وقد رأيت حول البلدة مجموعة من تلال

تراكمت من الثرى الذى استخرج من تلك السراذيب ومن فوقها بدا
(بحر النجف) فى مشهد جميل وسط وادى سحيق تزينه المزارع ويصله الماء
عن شعبة من الفرات ومن ورائه تمتد بادية العرب الى الآفاق وهى موضع
خزع للنجفيين اذ منها يتوقعون غارات الوهابيين من غلاة السنين وكنا
نشاهد قطرا من حمير تثقلها قرب الماء تسير صعدا فوق تلك التلال لامداد
النجف بالماء من ذاك البحر . وقد خيل الى أن أهل النجف كلهم من العلماء
يسرون وحول طرايدشهم العمامة الخضراء ويعيشون عالة على أموال
الصدقات والحجاج وفى البلدة من المدارس الدينية أكثر من ثلاثين تؤوى
فوق ستة آلاف طالب زرت احداها وهى فى داخلها تحكى المسجد ويقرأ
الطلبة على مشايخهم ثم بعد ذلك يأوون الى سراذيبهم ولكل مكانه الخاص
نزات درجا بعيد العمق ادى بنا الى سراذيب ومفارق لطرق كلها سلكنا
سبلنا فى احداها مررنا بغرف بها مناوور ضيقة ويجلس فيها طالب أو اثنان
وسط ظلمة موحشة وسكون رهيب ينكبان على التحصيل والدرس وهذه
السراذيب من أخص مميزات النجف توجد فى المساجد والمدارس والبيوت
يختزنون فيها متاعهم كيلا تفسده الحرارة وقد دعانى أحد كرامهم الى بيته
ونزلنا بعض سراذيبه وكان هجير اليوم لا جفا فشعرت ببرودة ورطوبة نقلتنا
الى المنطقة الباردة تماما فى دقيقتين وهناك قدم الى بعض البطيخ ويسمونه
(الرجى) والبطيخ عندهم يطلق على الشام فكان مثلجا منعشا شها
وصادف أن كانت البلدة فى هياج طائفى شديد يوم زرتها (٢٤ يولييه)

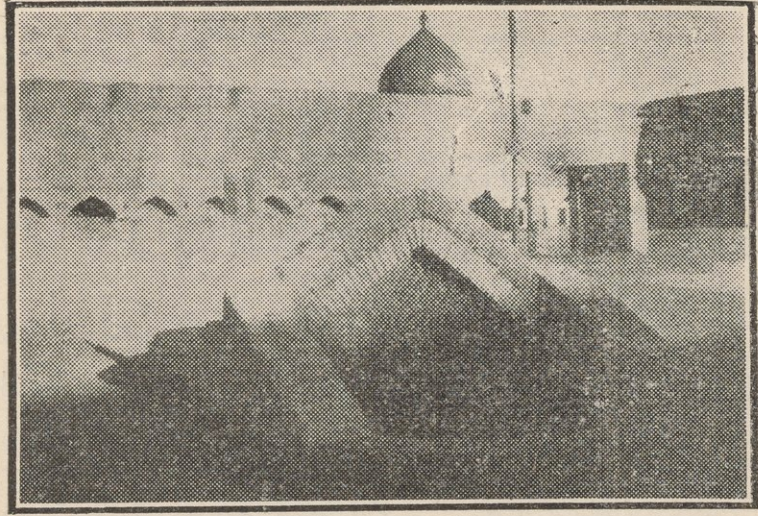


امام مسجد الكوفة حيث وقف الحجاج يهدد اهل العراق في خطبته المشهورة
لما شجر بين الشيعة والسنيين اثر كتاب أخرجه بعض السنيين وأسماه
(العروبة في الميزان) طعن فيه الشيعة فاهتاج أولئك وقام شيعي يخرج
كتابا ، خر للرد على أهل السنة فطالب الناس بمصادرة الكتاب الاول
فصودرو وطالب السنيون بمصادرة الكتاب الثاني فحاولت الحكومة ذلك
ولم تستطع لان الهياج هناك بلغ أشده وقد تشكلت هيئات ولجان طالبت
الحكومة برد حقوق الشيعة وهم أغلبية السكان (١) وان كانوا أكثر جهلا

(١) سكان العراق دون ثلاثة ملايين منهم مليون وربع من الشيعة ومليون من السنيين وربع
مليون اكراد والباقي يهود ومسيحيون ويزيديون وصابئة الخ فالفرق والتباذ هناك يساعد نفوذ
الاجنبى كثيرا

أما الحكومة فتعاضد السنين لانهم أكثر ثقافة من جهة ولان الانجليز
أميل الى معاضدة الاقليات من جهة أخرى ! لذلك ترى أكثر المتصرفين
(وهم المديرون) والوزراء من السنين وكان المغفور له الملك فيصل في
أوروبا فأبرقوا اليه فبعث اليهم يطمئنهم ويوصيهم بايقاف كل شيء حتى يعود
وكم كان ألمي شديدا لهذا الشقاق الذي لاشك يضعف مركزهم أمام الغاصب
وينال من استقلالهم كثيرا على أنى علمت أخيرا أن حركة مذبحه الاشوريين
وتصرف الامير غازي الجريء وكذلك موت الملك فيصل كل ذلك قد
ألف بين القلوب فتناسوا الاحقاد ولو الى حين

الشبيعة : لما مات النبي صلعم في غير خلف من الذكور قام أبو بكر
واوقف المرتدين وحمل لواء الاسلام الى الجزيرة ولما عاد عمر بن الخطاب
واصل دعاية الاسلام بفضل قائديه خالد ومعاوية فحنق عليه قوم واعتقدوا
أن الخلافة يجب أن تكون في سلالة الرسول لكن كظموا غيظهم حتى
مات عمر ثم جاء عثمان وقتل عاجلا وقام على زوج فاطمة بنت النبي صلعم
وأب أحفاد رسول الله وكان الخوارج هم الذين حرضوا على قتل عثمان
وأيدوا عليا لكنهم خرجوا عليه هو أيضا لما رضى بمهادنة خصومه (ومن
ثم سموا الخوارج) ودبروا مؤامرة لقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص في
وقت واحد فقتل علي بيد عبد الرحمن بن ملجم وهو ينادى للصلاة اذ جرحه
جرحا بليغا في رأسه مات بعده بيومين وقد مثل الناس بابن ملجم فعذبوه
وقطعوا أطرافه . بايع الناس الحسن بن علي وكان معاوية قد بويع

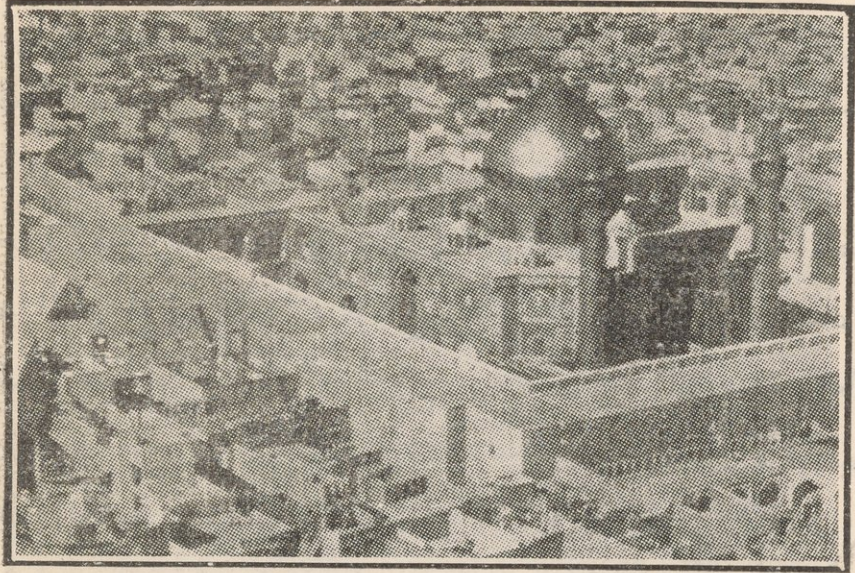


داخل مسجد الكوفة حيث قتل سيدنا علي ومن تلك العين نبع الطوفان
في الشام فزحف لقتال الحسن وتأهب الحسن للقتال في العراق لكن
ثار عليه جنوده وانفضوا من حوله فهادن معاوية وتنازل له عن الخلافة
وفر وقتل ثم بايع الجميع معاوية الا الخوارج والشيعية (شيعية
آل البيت أو آل علي) وقد اجتمعوا حول الحسين ابن علي في مكة
فقتله جنود معاوية في كربلاء هو وأفراد أسرته واتباعه جميعا
الا ابن واحد للحسين أمكنه الهرب ولقد جعل معاوية الخلافة وراثية
في أولاده وعين ابنه يزيد خلفا له . لكن ظل الخوارج يناوئون بني أمية
ومن بعدهم العباسيين وفي رأيهم أن الامامة والخلافة لا يشترط أن تكون
في قريش ويجب توافر الكفاية والعدل فان حاد الخليفة عن الصواب وجب

عزله فهم أبغض الفئات الاسلامية للحكم الوراثةي ويعدون نصراء الحكم
الديمقراطي كذلك قام الشيعة يناهضون بني أمية لكن لما قويت الدولة
الاموية واتسع نفوذها اختفى الشيعة وظلوا يعملون سراحتى بدأ اضمحلال
دولة بني أمية فظهروا ثانية وعاونوا العباسيين في خراسان تحت ابي مسلم
الخراساني على أن العباسيين لما تملكوا اخذوا يطاردون الشيعة

وأخذت طوائف الشيعة تتشعب وعاونها الفرس سرا على ذلك لأن
فارس رأته فيهم خير هادم للاسلام ولملك بني العباس أولئك الذين قضوا
على استقلال فارس وحاولوا القضاء على قوميتها. ومن فرق الشيعة من
يقول بأن الصحابة كلهم كفروا بعد موت النبي اذ جحدوا امامة على وان
عليا نفسه كفر لتنازله لابي بكر لكنه عاد له أيمانه لما تولى الامامة وهذه
فرقة (الامامية) ومن الشيعة قسم أو جب النبوة بعد النبي فقالوا بأن الشبه
بين محمد وعلى كان قريبا لدرجة أن جبريل أخطأ وتلك فئة (الغالية أو الغلاة)
ومنهم من قال بأن جبريل تعمد ذلك فهو اذن ملعون كافر

ومن الشيعة طائفة (الاثني عشرية) الذين يقدسون الائمة الاثني عشر
وهم على فالحسن فالحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر
الصادق فابنه موسى الكاظم فابنه علي الرضى فابنه ابو جعفر محمد فابنه علي
فابنه محمد الحسن العسكري فابنه محمد المهدي الذي اختفى في مغارة سامرا
وسينخرج آخر الزمان ليهدى الناس ويظهر العالم من الرجس والجور ومنهم
الاسماعيلية والباطنية الذين مر الكلام عليهم في الشام ثم القرامطة الذين تقووا



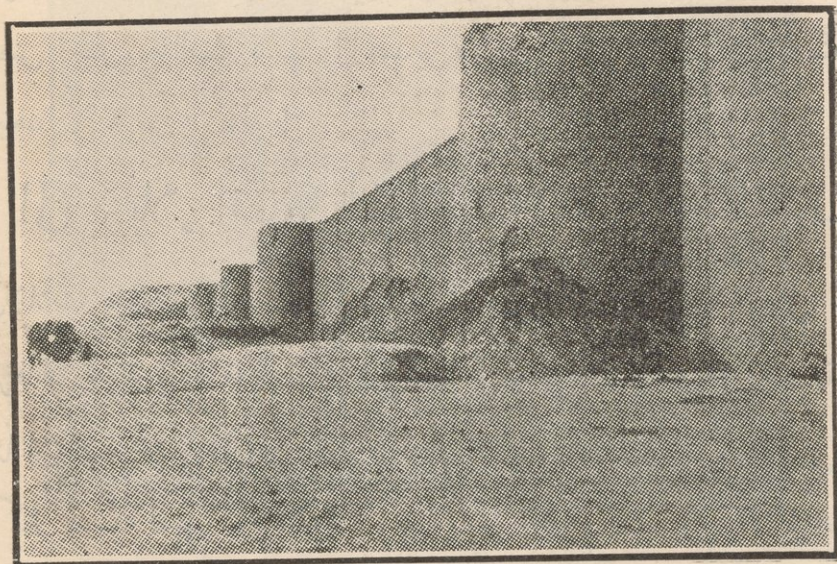
نظر النجف من السماء ويبدو مدفن الامام علي واضحا

حول الخليج الفارسي ويعرف عنهم الاباحة في النساء وقد أحلوا أنفسهم من كل عبادة واستحلوا النهب والرزائل وتركوا الصلاة والصوم وكانوا ممن يعملون على هدم الاسلام وفي مصر قام الحاكم بأمر الله بعد المعز ينشر مذهب الشيعة ويدرسها في (دار الحكمة) وكان اساسها ان الشرائع خاضعة للعقل والعلم وان الانبياء هم رجال عاديون وغاية ما في الامر أنهم فلاسفة وقد الهه الدرور وقالوا بأنه رفع الى السماء وسيعود لتطهير الارض كما أسلفنا ويرى جميع الشيعة أن الامامة ليست مصلحة عامة تناط باختيار الناس بل هي ركن من أركان الدين

زواج المتعة : ولقد استرعى نظري في النجف كثير من الاطفال

الذين يلبسون في آذانهم حلقات خاصة هي علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة جميعا وبخاصة في بلاد فارس . ففى موسم الحج اذا ما حل زائر فندقا لاقاه وسيط يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين فان قبل أحضر له الرجل جمعا من الفتيات لينتمى منهن وعندئذ يقصد معها الى عالم لقراءة صيغة عقد الزواج وتحديد مدته وهي تختلف بين ساعات وشهور وسنوات وللفتاة أن تتزوج مرات فى الليلة الواحدة والعادة أن يدفع الزوج نحو خمسة عشر قرشا للساعة وخمسة وسبعين قرشا لليوم ونحو أربعة جنيهات للشهر ولا عيب على الجميع فى ذلك العمل لأنه مشروع ولا يلحق الذرية أى عار مطلقا وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان ولا تنتظر المرأة أن تعتد بل تتزوج بعد ذلك بيوم واحد فان ظهر حمل فلوالد أن يدعى الطفل له ويأخذه من أمه اذا بلغ السابعة . ويرى أهل السنة فى ذلك الزواج وزرا كبيرا إذ حرمه النبي صلعم وكان مباحا فى الجاهلية وفى الحروب فى الاسلام ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل يوم أن كان الفتيات يستأجرن للحجاج فى معابد (اشتر ومردوك) ولا تزال لها بقية فى (عاهرات الآله) بين الهندوس وقد أشرنا إليها آنفا (فى جولة فى ربوع آسيا)

ويكاد يسود الشيعة فى جنوب العراق بين بغداد والبصرة وان كان اغلب الملاك والوجهاء والموظفين والبدو من السنين أما الفلاحون

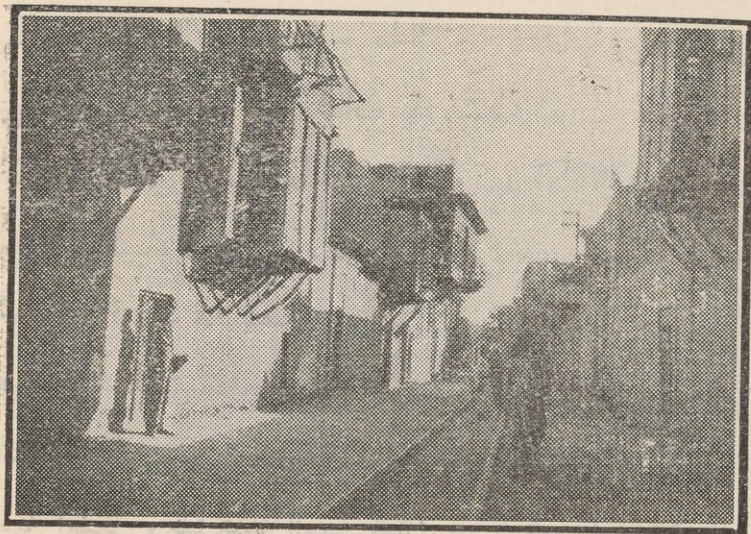


اسوار النجف وكأنها القلاع

المستقرون الذين تجرى في عروقهم بقية من دماء زراع بابل القديمة فكلهم
من الشيعة البسطاء الذين يبتغون فتاوى المجتهدين وهم الذين أوتوا حق
تفسير القرآن وفق ما قرره الأئمة ولعل تعصبهم الشديد راجع الى خضوعهم
ظوال السنين الغابرة لسلطان الاجنبي من غير دينهم فهم أبدا ضد كل
حكومة ويرون كل السلطان والنفوذ في طائفة مجتهديهم ليس غير وجل
اولئك المجتهدين يرجعون الى أصل فارسي ويطدحون الى ضم العراق لحظيرة
فارس يوما ما وحينذاك تتولاهاهم حكومة شيعية وقد بلغ بهم شكهم في الغير
انهم يحتمون غسل كل شيء دخل بيتهم ثلاث مرات خشية أن يكون قد لمس

غير شيعي وهم يغيرون ملابسهم قبل الصلاة وقد حدث أني لما قمت من خراسان عائدا الى العراق كان يرافقني شيخان شيعيان من العراق وكان معي بعض الحلوى والفطير قدمها الى صديق مسيحي فدعوتهما أن يأكلا منه شيئا فابتعدا لأنه من يد كافر !

الى كربلاء : قمت من النجف مبكرا الى كربلاء فوصلناها بالسيارة في ثلاث ساعات فكانت تحكي النجف تماما في أزقتها الملتوية تطل عليها شرفات متاربة متقابلة تكاد تظل الطريق وهي ثانية معاقل الشيعة فأنا قلنا ان النجف هي الرأس المفكرة للشيعة فكر بلاء قلب الشيعة النابض فهمي ا اكثر قدسية لديهم من النجف . هنا يبكي القوم نساء ورجالا واطفالا موت الحسين الذي تثير ذكرى فاجعته لديهم حماسة فائقة اشبه بحماسة أهل بابل وبكائهم على موت (تموز) . هنا زرت مدفن الحسين تحت قبة من ذهب يسمونها (الحضرة الكبيرة) يؤمها خلق كثير وبخاصة في محرم شهر الحج وهناك مسجد آخر يدفن فيه العباس وكان أخ الحسين من أبيه وكان يعرف القوم عن الحسين رفته وتسامحه وعن العباس دفته وقسوته في الحق لذلك قد يحنت الواحد هناك في يمين الحسين لكنه لا يحنت قط أن أقسم بالعباس وقد أبصرنا بصورة لرأس رجل في سقف مسجد العباس قالوا لنا انه حنت في يمينه بالعباس فطارت رأسه الى هناك ويعتقدون أن من يأتي ذلك تطير رأسه هكذا !

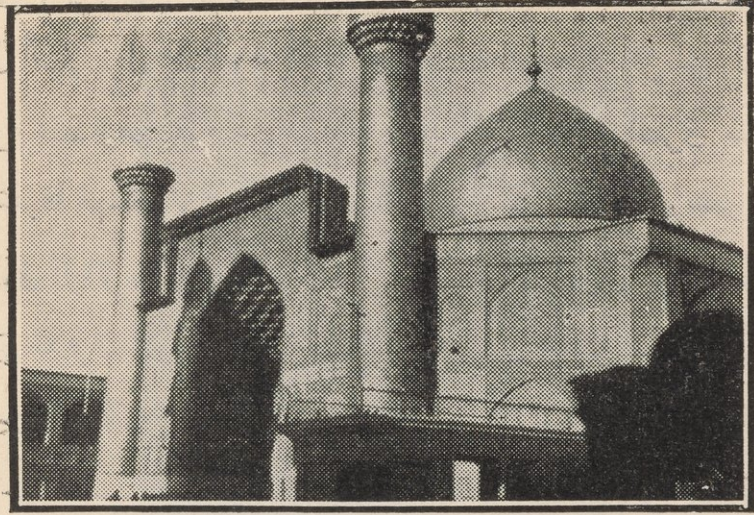


مثل من طرق النجف

عدت الى بغداد وزرت المتحف العام وهو على صغره يحوى مجموعة قيمة من مخلفات بابل وأشور وبخاصة من العهد السومري منذ سنة ٣٠٠٠ ق م. وفيه من صياغة المعادن والحلى من ذهب ونحاس وحديد شىء كثير ومجموعة من أحجار كريمة حفرت حفرا دقيقا جدير بكل اعجاب وقد استرعى نظرى خاصة غطاء للرأس من نحاس يحكى التمثال بشعره الجعد وآخر لسيدة تلبس الحلى الفاخر من ذهب وثالث بقبشارة من رأس عجل من ذهب مصمت وعند الرأس والذنب تقوم شعبتان منعرجتان تشد عليهما الاوتار ويطعم كله بالخشب والعظم والصدف والمتحف منسق خير تنسيق

الى البصرة: مدينة السندباد: أرجأت زيارتي لها الى آخر الرحلة

بعد عودتي من بلاد فارس خشية حرها اللافح فدخلتها وافدا من الخليج
الفارسي فاخذت باخرتنا تشق عباب مياه شط العرب الذي كانت تنأى
خفافه لعظيم اتساعه وكانت غابات النخيل تسد الآفاق سدا تتخلل تلك
الغابات مسابيل للمياه لا تدخل تحت حصر وهي بعض شعاب شط العرب
اللانهائية وقد أقيمت عند مصابها مراس صغيرة اقيمت حولها مساطح
البلح يجهز في صناديق خشبية للتصدير وغالب البلح من نوع أصفر اللون
مكور الشكل نواه صغير للغاية وطعمه لذيد سائغ شهى وهو أخضر فان
زاد نضجه اضحى رطبا غزير العسل بحيث يفوق بلح الواحات عندنا ولا
عجب فالبصرة من أغنى بلاد الدنيا بالتمر الذي يصدر منه بما لا يقل عن
مليون جنيه في كل عام ويجرى القول على لسانهم ان النخلة يجب أن تغمر
جنورها في الماء وأسسها في النار والهجير وتلك الظروف متوفرة في البصرة
بنقائعها الممدودة وحر صيفها المحرق ومن البلح يتخذون بعض
الكحول والخمر. ظلت الباخرة تسير طويلا وأرصفة الميناء ممدودة
على الجانبين وبخاصة الجانب الغربي وكانت حركة البواخر انجليزية وغير
انجليزية صاحبة اشعرتى بأهمية ذاك الشجر الذي خلته من قبل أقل
شأنا والارصفة كلها زودت بأحدث وسائل النقل من روافع تجانبها
سكة الحديد وتتجه عناية الانجليز الى هذا الشجر اليوم وسيتخذون منه قاعدة
تجارية وحرية هو وثمر حيفا الذي رأيت العمل قائما فيه وبهمة نادرة وذلك



مدفن الحسين في كربلاء

تبيتنا لمركزهم وتأميننا لطرقهم الى مستعمراتهم في الشرق
حللت الشجر ونقلت المتاع الى الجمرک وهناك وقف رجاله يتيمون على
الناس عجباً بما أوتوا من سلطة فلم يبدأوا التفتيش الا دفعة واحدة فضاغ
من وقتنا ساعات رغم تكرير الرجاء لهم أن يعجلوا بذلك ثم أقلتني سيارة الى
البصرة فاذا هي بعيدة عن الميناء بنحو عشرة كيلو مترات وتلك المسافة تخطها
أيدي المهندسين اليوم في طرق مرصوفة ومبان حديثة ويظهر أنها ستكون
غداً حى طبقة الاجانب والانجليز والاغنياء . دخلنا البلدة واذا بها أزقة
ضيقة قدرة لا نظام فيها ولبثت أعين النزل تلو الآخر فلم يرقى بها شيء قط
لشدة اهمالها وفساد هوائها وبعدها انتقلت الى حى (أشار) الحديث

وحللنا نزل (بيكادلى) وهو أفخم أنز الها رغم أنه بسيط البنيان والاثاث
لا يعادل أصغر نزل عندنا ولم يقبل أجر الليلة الواحدة أقل من ثلاثين
قرشا للنوم فقط وهو يقوم على ميدان جديد لا تزال تشق الطرق منه الى
جهات متفرقة مهمة . والبصرة أشبه ببلاد المراكنز الصغيرة فى مصر ليس
بها ما يروق الزائر سوى غابات النخيل الكشيفة التى تحوطها وشعاب شط
العرب التى تلاقيك أنى سرت بلياتها المدهشة على أن غالبها قدر مهمل وان
قامت البيوت مظلة على الماء فى هندسة عتيقة ولكل بيت زورقه (ويسمونه
البلم) وحتى جانب الشط الرئيسى لا تقوم عليه سوى الاكواخ الحقيمة
رغم اتساعه العظيم ومنظره الطبيعى البهيح وبخاصة اذا ركبت متنه فى
(بلم) وهو زورقهم النحيل الاينق فى أطراف معقوفة تطفى باللون الابيض
وهو أجمل مظاهر البصرة مطيتهم الرئيسية يشقون به أرجاء البلدة لأن
المجارى المائية تكاد تجانب الطرق جميعا أما المقاهى (البلدية) على نظام
نظيراتها فى بغداد فهى تخص أبدا بكسالى القوم ليلا ونهارا وجلهم من
لابسى العقال وفى كل مقهى (حاكى) يردد الانغام المصرية والعراقية
قمت بسكة الحديد الى حى الزبير الذى مات فيه ذاك الصحابى الكريم
وهو مكان البصرة القديمة ويقع الى غرب بصرة الحالية انشئ يوم بعث
عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان سنة ١٥ هـ وأمره ان ينزل مكانا قريبا
من الماء والمرعى والمحتطب فتخير هذا وشاد فيه البلدة والمسجد الجامع
الذى قواه فيما بعد ابو موسى الاشعري ثم جاء على واقام مسجده وكان



امام مسجد العباس اخ الحسين لايه

أكبر مساجد الاسلام طرا بما آذنه السبع وكان فيه مصحف شريف عليه
قطرات من دم ظن أنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل على
أنى لم أجد للمسجد من بقية تدل حتى على مكانه . وقد اختط العرب البصرة
نكايه في القرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها وكان عددها اذ ذاك
نصف مليون نفس بدليل أن ابا جعفر لما فرق نصف مليون درهم على

اهلها لم يصب الفرد منهم سوى درهمين ولقد لاحظت على أهلها ضعف البنية
وشحوب اللون لرداءة جوهم كثير النقائع والعفونات شديد التقلب في الهواء
حتى كان العرب يسمون البصرة (بالرعناء) وفي طريقى الى الزبير مررت
ببقايا برج متهدم يسمونه (برج سندباد) وأشار القوم الى مكان قالوا انه
كان منزل واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى ولذلك سمي
أشياعه بالمعتزلة خصوصا وانهم اعتزلوا جانبا فلم يكونوا مع على ولا مع
خصومه وفي البصرة كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وفيها اجتمع اخوان
الصفاء أصحاب الرسائل المشهورة ومنها بشار بن برد وسيبويه والحريرى
والاصمعى والجاحظ وكثير من أهل الفضل والادب

الى القرنة جنة عدن : طالما حنت نفسى أن أرى جنة عدن (التى

وعد الله المتقين) فقامت اليها فى زورق سار بنا صعدا فى شط العرب
ومناقعه اللانهائية حتى رسا بنا عند ملتقى النهرين دجلة والفرات عند بلدة
اسمها القرنة واذا بها قرية هى أبعد من البصرة حجارة وأمعن قذارة ويظهر
أنها كانت فيما مضى مجموعة من جنات خصبها وافر وزرعها عميم وقطوفها دانية
تجرى من تحتها شعاب النهرين اما اليوم فلم أر سوى نقائع الى مد البصر يؤمها
البعوض وأهلها مائيون بالمعنى الصادق تقوم قراهم وسط المياه فى بيوت
من غاب ويسمونها (بيوت القصب) ويتصلون بالزوارق والناس عوامون
مرحون لا يكادون يلبسون شيئا حتى فى الشتاء وقلبا ترى بينهم مريضا بالعين
او الساق على أنى سمعت عنهم انحلالا كبيرا وتلك نتيجة لازمة لشدة تجاورهم

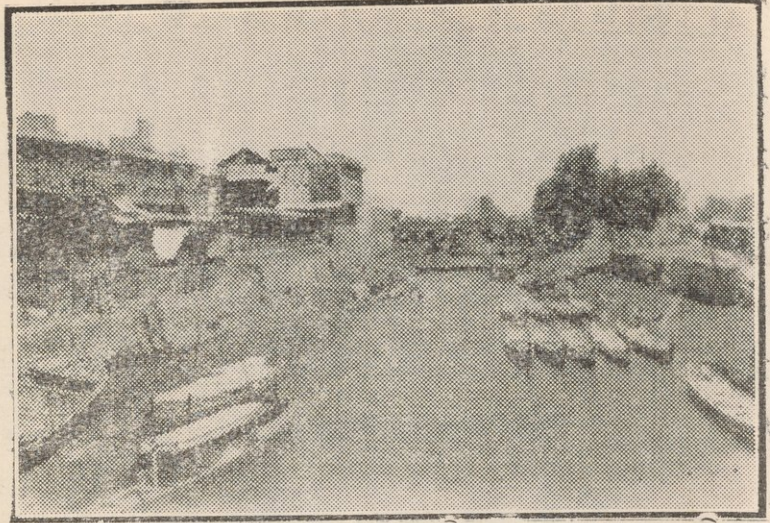


مثل من شوارع كربلاء

وقلة وسائل الترف والسرور لديهم غالب أرضهم اليوم تزرع أرزا وهي ملك للحكومة تؤجرها مساحات كبيرة لا تقل عن خمس سنين وغذاؤهم الارز والسمك وبعض أوراق الغاب وكلهم كساف بالوشم حتى على الخصر وفي داخل الجسد وأظرف ما في مساكنهم أنها سهلة النقل فقلبا يستقر البيت في مكان واحد ويتخيرون من أعشاب الماء الطافية دواء لامراضهم

هم وماشيتهم وقد لاقيت رجلا من الصابئة الذين يقطنون حول دجلة الى شمال القرنة وحول عمارة ولما كانت الحرب الكبرى وتهدد اقليمهم هذا نزحوا الى بغداد وقد ساعدتهم الحكومة على ذلك وانتحوا ناحية من السور القديم يقومون فيه بأشغال النحاس الدقيقة وقد زرت بعض متاجرهم عند عودتي الى بغداد

والصابئة : يخالهم المسلمون (أهل سبأ) ويقال لهم أحيانا عبدة النجوم وهم أهل كتاب يخالهم النصارى من شيعة القديس حنا يجاورون مسابيل المياه الغزيرة لانهم مغالون في أمر الطهر والغسل والنظافة . لهم زعيم اسمه (الشيخ جوده) يحرم على نفسه القهوة والشاي والطباق والسكر والخمر ويغتسلون جميعا مرة كل يوم أحدا وكلما دخل أحدهم سجننا أو قبل طفلا أو اهتاج غضبا أو فرحا وإذا نسي أحدهم حركة من حركات الطهر التي تستغرق ساعتين أعاد الكرة من جديد وعقيدتهم أن الله واحد لكنه وضع سره في ٣٦ من المخلوقات أو توأ من الاسرار والكرامات شيئا كثيرا ومن عقائدهم أن البكاء على الميت حرام فكل قطرة دمع تذرْف تصبِح نهرا كبيرا يعبره الفقيد يوم القيامة كذلك فهم يجرمون التقطيب ويمتدحون البشاشة والابتسام في جميع الظروف والرجل منهم لا يكلف الغير بشيء يعمله له حتى ولا زوجته فهو الذي يخدم نفسه ومن عادات زعماء الدين أنه عند انتخاب أحدهم يظل الاسبوع الاول دون أن ينام ويلبث ستين يوما يغتسل ثلاث مرات كل يوم بمراسيم خاصة ويؤدى الصلاة بملابسه المبللة



بصرة تشقها شعاب شط العرب وتلك الزوارق (بلم) مطيتهم الرئيسية

وهم يقدسون يوم الاحد لانه يوم الشمس ويؤدون صلاتهم باللغة المندية

(Mandai) التي يتعلمها الجميع في الصغر

ولا يبقى من هذا المذهب الا بقية آخذة في النقص وعدد هم بضعة آلاف

غالبيهم يقطن حول عمارة على دجلة شمال القرنة وكذلك في بلدة الناصرية

وسوق الشيوخ على الفرات و عملهم الرئيسي بناء الزوارق الصغيرة ويظهر

أن لهم صلة بالكلدانيين والشعوب التي تقدمتهم يؤيد ذلك أنهم يعتقدون

في التنجيم ويشتركون معهم في كثير من العقائد والاسماء لكن دينهم

يشجع طهارة القلب والايان الوثيق في الآخرة

تمت عائدا الى البصرة ومنها اقلني قطار بغداد مسافة ٥٥٠ كيلوا مترا

قطعناها في يوم كامل فلبثنا نسير وسط سهول رملية مهملة لم يتخللها شجر ولا
عشب ولبثنا الليل كله وسط تلك الرمال التي كان هبؤها يتطاير فيدرك كل
شيء وفي الصباح كنا في: (أوز) الكلدانية التي ولد فيها سيدنا ابراهيم
وعندها شعبة للسكة تؤدي شرقا الى الناصرية ومن هنا بدأت المزارع تتزايد
في بقع متناثرة وكانت القرى نادرة صغيرة في بيوت من الطين وكلما تقدمنا
زاد خصب الارض وكثر عدد القرى وفي نحو نصف الطريق وقفنا ببلدة
السماوة وتمتد الى غربها بادية السماوة المشهورة وعندها عبرنا الفرات الى
الديوانية فالحلة وعند الغروب دخلنا بغداد

قمت باكورة الصباح (الاثنين ٢٥ سبتمبر) عائدا الى الشام مودعا بلاد
العراق تلك التي كانت مهد الانسان الاول والتي فاخرت بمدنيتها القديمة
وبانها مقر جنة عدن ومدفن كثير من الائمة الاطهار وموطن هرون الرشيد
والسندباد البحري على أن تلك الظروف الطبيعية الجميلة التي جعلت الجزيرة
مهد الانسان الاول هي التي كانت عوامل هدمها إذ أطمعت فيها من حولها
فغزاها جنود آشور وميديا والاعريق والفرس والروم ثم الساسانيون من
الفرس وهم بناء ايوان كسرى ثم المسلمون واخيرا الانجليز . قمت
وذكريات ذلك الماضي خالدة مجيدة يراها الزائر ماثلة في خياله فحسب
ويزيدها امعانا في الخيال ما رأيته من اعتقاد القوم الى اليوم في السحر
والسحرة مما أذ كرني بسحر بابل وهاروت وماروت ولا يزال كثير من
الناس يسمي العراق ببلاد السحر لأن خرافاتهم لا حد لها رغم أن الاسلام



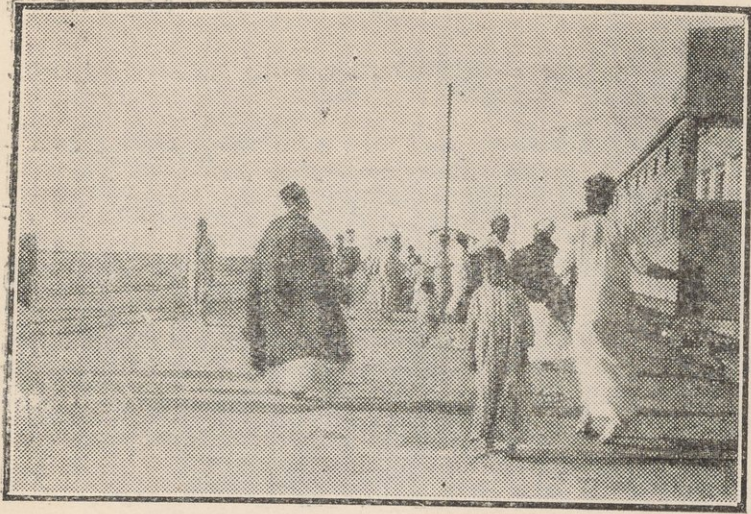
الصابئة مهرة في أشغال النحاس

محا منها الكثير ، من ذلك : اعتقادهم في الحسد وأثر العين الخبيثة فبعض الناس حساد بفطرتهم تؤثر عيونهم في الغير أثرا سيئا ولو كان ذلك خارجا عن ارادة أولئك الحساد والويل لمن عرف عنه ذلك وكم من مرة طلق الزوج زوجته لاعتقاده أنها حاسدة وهم يتقون العين بلبس اللون الازرق وتعليق الخرز الازرق في بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم - ويظهر أن تلك العادة اثرت حتى على بعض بلاد أوروبا - لذلك كنت أرى لون القيشاني بالمساجد جميعا في لون أزرق وحتى السيدات يحكن في طرف ازارهن بقعة ترقا . . كذلك كنت أرى كثيرا من أبواب البيوت قد دق عليها حذاء

قديم وانت تسمع دائما عبارة (ماشاء الله) يقولها الناس جميعا . ويتركون
عيون الاطفال قدرة وارديتهم مهلهلة مخافة العين وقد تطوف الام على سبع
فتيات عذارى في بيوتهن وتعطي كل واحدة قطعة من رصاص تضعها في
فمها وتبصقها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الارض ثم تأخذها الام
وتصهرها في روث البقر ويوضع ذلك على رأس الطفل وكثيرا ما كنت
أرى الطفل يرسل شعره ويلبس لباس الفتيات خشية أن يحسده الناس لان
الفتيان مفضلون على الفتيات

وكثيرا ما يلجأ الزوج الى (فتاح الفال) فيكتب له ورقة يضعها على
رأسه ثم يقرأ تعاويذ ويأمره أن يذيقها في الماء ويشرب بعضه ويحاول أن
تشرب زوجته الباقي ثم يعطيه بخورا يحرقه عند الغروب وعند ذلك تجسه
زوجته ورأيت رجلا يغسل يده من دجلة ثم رمى فيه بيضة وعقب وراءها
بحجر وذلك لكي يجب فيه من يريد ولشفاء السعال الديكي الذي يسمونه
هناك (حميرة أو خنزيرة) يذهب الرجل الى بائع أحذية ويفاجئه قائلا
(يا كلب سوى لي كلب خاطر الكلب ابن الكلب) فيسلخ له قطعة جلد
يحملها الطفل المصاب فيشفى ! وبعضهم يسقى الطفل ماء ولغ فيه كلب
أو خنزير .

ويجب أن تحبو المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عقمها والمسيحية
تركع تحت نعش في الكنيسة وكل النساء من مختلف الديانات يعلقن خرقا
حول مدفع قديم يسمونه (ابا خزامة) رأيت عند القلعة القديمة في بغداد

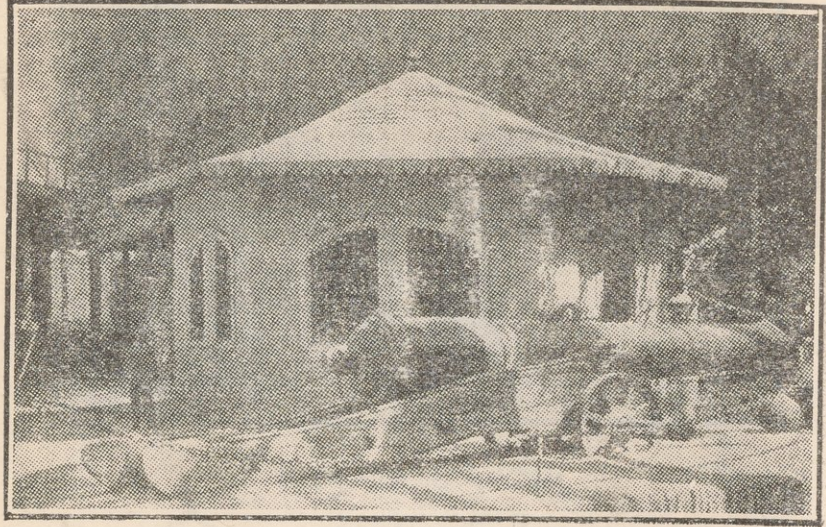


القطار يشق بنا سهل الجزيرة المهملة

وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها في فوهة المدفع ليعيش طويلا . وروى لى
البعض ان سيدة من الاغنياء مرض طفلها فلبست خرقا مقطعة وخرجت
بها وهى عارية الاقدام تستجدى من سبعة بيوت بقولها (من بركتكم)
وابتاعت بما تجمع لديها قطعة ذهب وكتبت عليها (يعيش) ثم لبسها طفلها
وقد تستجدى من سبعة أطفال باسم محمد ثم يصهر ما جمع ويعلق في رقبة
الغلام ليعيش طويلا .

واذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدت فريضة الحج الى السكاظم أربعين
يوما . تخرج كل يوم مبكرة عارية القدم ولا تكلم أحدا واذا وصلت الضريح
قرعت بابه ونهت الامام أنها حضرت اليه وبذلك تضمن زوجها سريعا

كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التي توزع في الافراح
ويأكلن منه لان ذلك يعجل بزواجهن . والشيعه يعدون الايام الاولى من
محرم شوّما لان الحسين قتل فيها . وكذلك أيام صفر لأن النبي مات فيه .
ويوم السبت والخميس أسعد الايام واذا القمر خسف في رمضان وجب ازعاج
الحوت الذي يقترب من القمر في زعمهم وقد يتلعه لذلك يعمدون الى
الطبول والصفائح يقرعونها ارهابا له . وفي تقليم الاظافر يجب البدء بالخنصر
ثم الوسطى ثم الابهام ثم البنصر وأخيرا السبابة هذا في اليد اليمنى أما في اليسرى
فيبدأ بالابهام فالوسطى فالخنصر فالبنصر فالسبابة وكثيرا ما يلجأون الى سيد
من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين — لطرد الجن من الاطفال
واكل قلوب الصبية الصغار شفاء لبعض الامراض لذلك يحاول الكشير
اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض ويعتقدون ان الجن قد يحب فتاة
أدمية قد يناديها فتقوم وراه ليلا الى سراديب الدار ثم تعود والجن في
زعمهم لا يتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة بأذى قط لذلك لا تجرؤ امرأة أن
تمر في مكان مظلم موحش ألا وهى تحمل طفلة والبيوت لا تسكن الا اذا شاع
عنها الخير وقد يبقى البيت الجديد طويلا دون ان يستأجره أحد خشية ان
يكون مجلبة للنحس وكثيرا ما يسمون الاطفال (مش عاوز) أو (وحش)
أو (حصبة) خوفا عليهم . واذا سقط اناء ولم ينكسر وجب كسره وإلا
كان شوّما واذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلا (ملح وسكين) والا
حل النكد لا محالة ومن أمثال تلك الخرافات شيء لا يحصى ويخيل الى أن



المدفع المحوط بأسرار السحر ويسمى (أبا خزيمة) في بغداد

كثيرا من خرافاتنا وصلت إلينا عن طريق الجزيرة وبابل وما فيها من
تخمين وأوهام وسحر

هضبة إيران

بلاد فارس

نبذة تاريخية : فارس بلاد ذات مدينة قديمة وماض مجيد وهي مقر
الآريين الاصليين الذين كانوا منبت اللغة الآرية التي انسلخ عنها كثير من
لغات أوروبا وأنت تلمس ذلك في كلمات كثيرة تراها مشتركة في لغتهم



الشارع الرئيسي في كرمان شاه

ولغات أوروبية أذكر من بينها ما يلي :

كلمة أخ = برادر بالفارسية ، فراتر باللاتينية ، برودر بالألمانية ،

برات بالروسية

وكلمة أب = پدر بالفارسية ، باتر باللاتينية ، فاتر بالألمانية

وكلمة أم = مادر » ، ماتر باللاتينية ، موتر »

وكلمة ابنة = دختر » ، تختر بالمانية ، دوتر بالانجليزية

وكلمة باب = در » ، تر » ، دور »

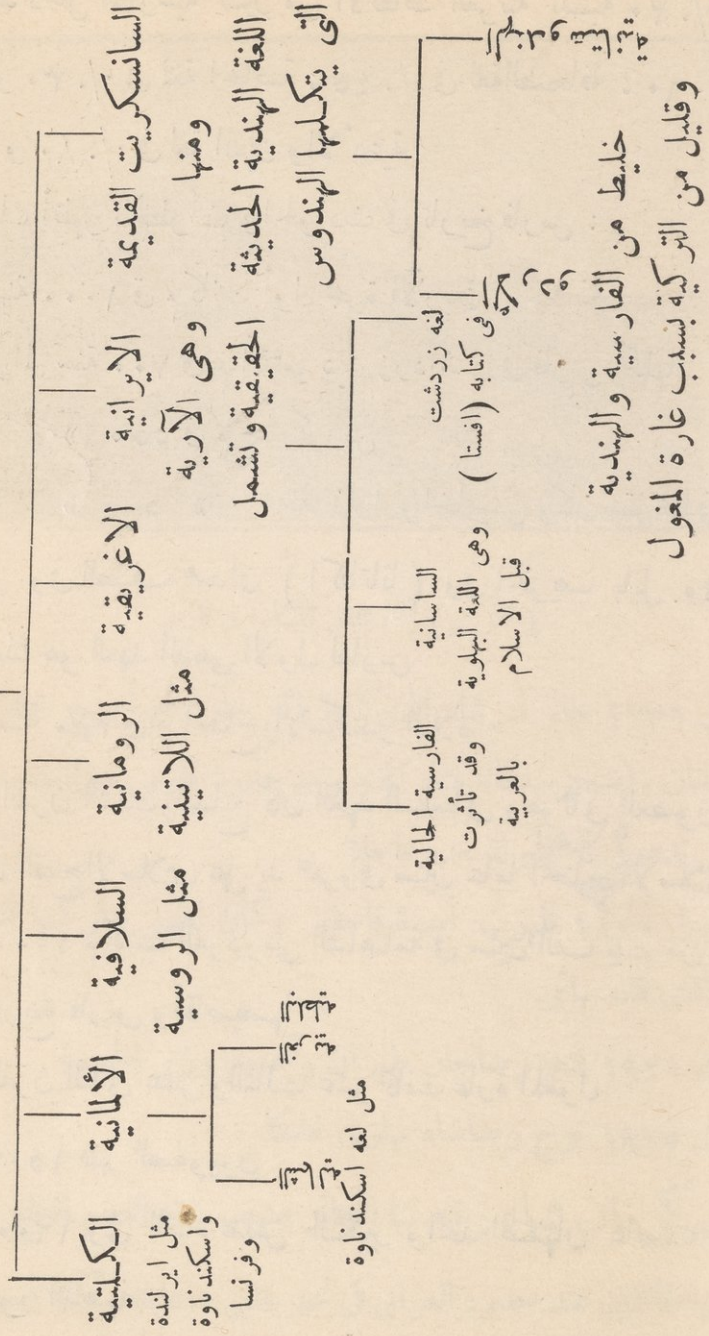
وكلمة يحمل = بردن » ، برد » ، بردن »

وكثير من الافعال الفارسية تنتهي بمقطع (en) مثل الألمانية تماما

كذلك النفي بالفارسية في أو نیست وكذلك كلمة بادبمني رديء وكلمة

جرم بمعنى دافئ وهاك تشعب اللغات الآرية :

اللغة الآرية الهندية



ولقد دخل الفارسية كثير من الالفاظ العربية بنسبة ٢٠٪ في لغة العامة و ٣٠٪ في لغة الخاصة ، ٤٥٪ في لغة الصحافة ، ٦٠٪ في لغة القانون و ٨٠٪ في لغة الدين والادعية

واليك أظهر الخطوات والحوادث في تاريخ فارس :

في سنة ١٠٠٠ ق م كانت أول هجرة الآريين

وحوالي سنة ٧٠٠ ق م انتشر دين زرداشت في فارس كلها

» » ٥٥٠ ق م جاء كورش

» » ٥٠٠ ق م جاء دارا واخاميس وكان مقرهما في الربيع

برسبولس وفي الصيف همدان (اكباتانا) وفي الخريف بابل وفي الشتاء

سوسا وهذا هو العهد الذهبي الاول لفارس

وفي سنة ٣٣٠ ق م اجتاح الاسكندر البلاد

وبين القرن الثالث والسابع كان العهد الساساني وهو ثاني العصور الذهبية

وبعده كان الفتح الإسلامي على يد عمرو في ستين عاما احتاج الإسلام البلاد

وفي ١٠٠٠ م كتب الفردوسي الشاهنامه في ستين الف بيت من الشعر

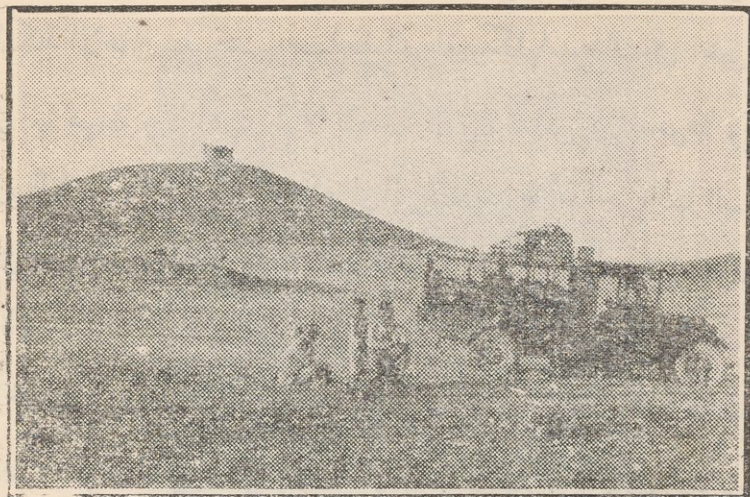
حوت تواريخ فارس واقاصيصها

وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر كانت غارة المغول

وفي ١٥٠٢ ظهر الصفويون

وفي ١٦٠٠ ولي الشاه عباس الكبير واتخذ اصفهان عاصمته وهذا

بمآلت العصور الذهبية



(اللورى) أداة النقل الممتازة فى فارس

وفى ١٧٣٦ جاء نادرشاه الذى كان بائع جلود ثم أصبح جنديا وانتصر على الافغان واضحى سلطانا فتح الهند ومد حدود فارس من السند الى القوقاز ولما قتل تدهورت الدولة بعده عاجلا وقبيل ١٨٠٠ ظهرت أسرة قاجار وكان اظهر ملوكها الشاه نصر الدين الذى قتله بهائى

وفى ١٩٢١ فتح رضاخان طهران وأصبح وزير الحرية

وفى ١٩٢٥ توج رضاشاه بهلوى مامكا

الى كرمان شاه : قام بنا القطار صوب بلاد العجم فقطع المسافة بين

بغداد والخانقين عند حدود العراق فى نحو عشر ساعات وكنا نسير فى سهول

العراق العادية شبه الصحراوية المهملة والاراضى غالبها ملك للحكومة ولا تزيد ملكية الاهالى على خمس مساحة العراق كلها وذلك فى ظنى اكبر سبب فى أنها مهملة ولا أدرى لم لا تقطعها الدولة للناس كي يخدموها ويزيدوا فى موارد البلاد. والخانقين بلدة كقرى الريف عندنا استأجرنا بها السيارات لنوغل فى بلاد العجم اذ لا يكاد يشق هضابها خط واحد لسكة الحديد وكان حظى أنا فى سيارة كبيرة من نوع (اللورى) وتلك أكثر السيارات ذيوعا هناك فأخذت تسير بنا فى أرض مغضنة تزيد جبالها تعقيدا كلها تقدمنا وكنا نرتقى هضبة ايران تدريجا وعلوها يتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وخمسة آلاف وكانت مناظر الجبال جميلة لولا أنها لا يكاد ينبت بها زرع وهى أجمل من مناظر العراق المبسوطة المملة ولو أعوزتها روعة الجبال المنزرعة التى تتوجها الثلوج على أنها كلها اوغلنا فيها زادت الشجيرات وكثرت المسابيل السريعة وفى منتصف الطريق تعطلت السيارة وكسر محركها فنزلنا نترقب سيارة اخرى ولبثنا كذلك وسط تلك الصحراء الجبلية المخيفة ست ساعات حتى وفقنا الى (لورى) عائد فنقلنا ثم واصل السير بنا ولقد بدا الفرق جليا بين أهل العراق الكرماء وبين أهل العجم فمثلا كنت انا الذى ادعو رفقاء السيارة إلى تناول الطعام أو المرطبات ولم يحاول أحدهم ذلك عكس ما رأيت فى تنقلاتى ببلاد العراق واول ما آلمنا من أهل فارس المعاملة السيئة التى لاقيناها فى الجمرک حيث كان التفتيش شديدا شدة غير معقولة فقد أخرجنا عمال الجمرک سبع ساعات فى غير ضرورة وكنا كلها حللنا محطة جديدة

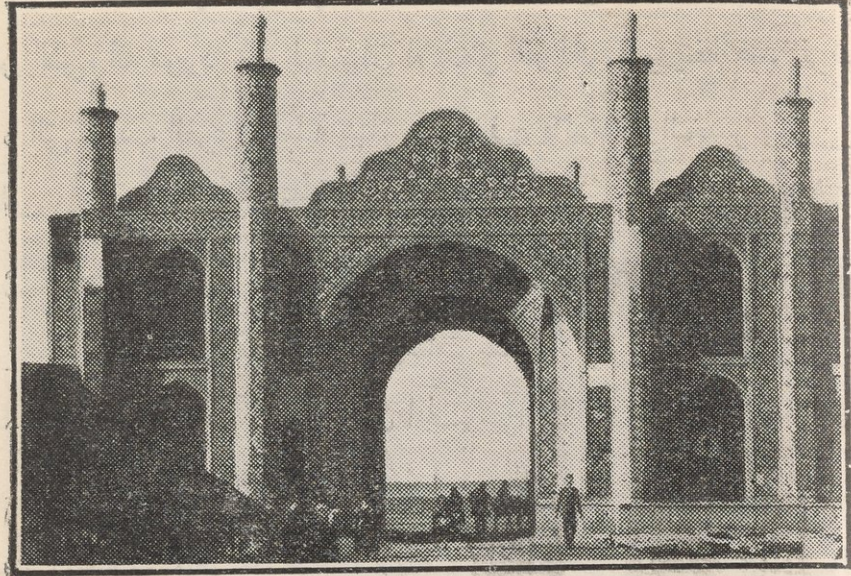


آثار دارا في طريقنا إلى همدان

طلبت جوازات السفر وفحصت ووقفنا ننتظر التأشيرات طويلا وبعد تمام
أربع وعشرين ساعة دخلنا :

كرمان شاه : وهي مدينة أشبه بالمرأ كثر المتأخرة عندنا حللت بها
نزل (فرنسا) أجمل فنادق البلدة والطعام فيه شرقي شهى ولقد مكثت فيه
يومين لا أستعيد قواى بعد عناء اليومين السالفين. أخذت أجول في المدينة و اذا

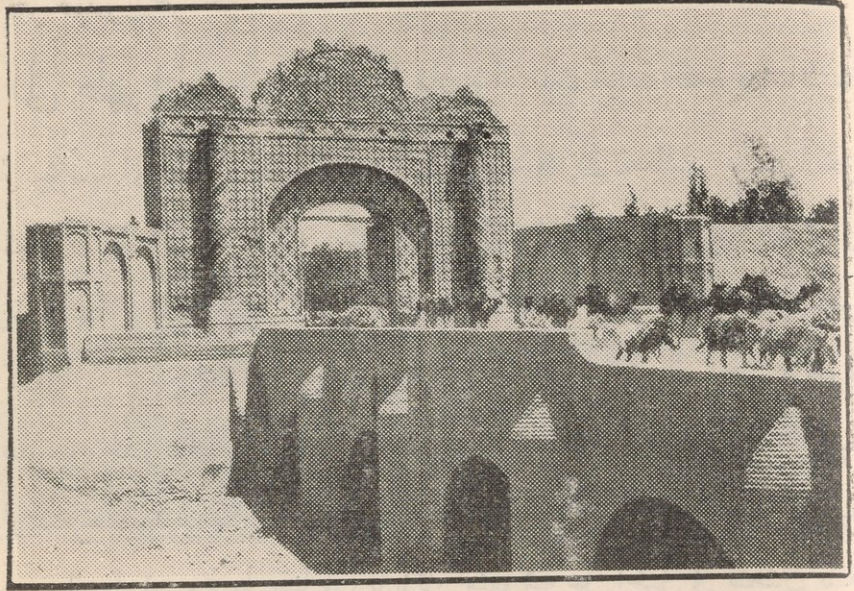
سيل المتسولين دافق بحيث لا تمضى دقيقة دون أن يتوسل اليك أحد طالبا
الاحسان وكثير منهم يتخذون الامر حرفة وما كاد الاصيل يقبل حتى
أدهشني سيل السيدات يختلطن مع الرجال وهن نصف محجبات يلبسن أزارا
شبهها بأزار أهل العراق لكن النقاب شبكة من قماش أسود مقوى تقف مائلة
أمام الوجه وما كان أشد دهشتي عند ما علمت أن كل أولئك من الساقطات يجرين
وراء الرجال وبخاصة الاجانب وكثير من أزواجهن يعلم فيهن ذلك لا بل
ويرضاه لانه مورد رزق لهم ولعل سبب ذلك الفقر والعوز المالى وزواج
المتعة المنتشر فى فارس كلها وضعف صحة الرجال لادمانهم الافيون مما
جعل الوانهم شاحبة وجسومهم ضامرة ضعيفة وقد ساعد ذلك على عجزهم
حتى عن العمل فزاد فى فقرهم وفى عدد متسوليهم وكنت أرى من الشبان
من لا يكاد يسير على قدميه فى تقاطيعه الغائرة ولونه المصفر وكثير منهم
يبدو فى هياكل عظمية وقد علمت أن الحكومة قد أباحت شرب الخمر
بعد أن كانت محرمة كى يقبل الناس عليها ويعقلوا الافيون لىكنى لاحظت
الكثير منهم يدمن النوعين معا. وزراعة الافيون فى بلاد فارس قديمة ترجع
الى عهد سومر وبابل منذ ستين قرنا قبل الميلاد وتنتشر فى نحو ١٨ مديرية من ٢٦
ويقدر انتاج البلاد منه بنحو مليون ونصف مليون رطل ويعيش على تجارته
خلق كثير فمثلا ربع سكان اصفهان يشتغلون به وهو ثانى الصادرات (بعد
البتروىل) ويصدر ثلثا محصوله بعد أن تتسلبه الحكومة لانه حكر لها وقد بلغ
الصادر منه سنة ١٩٣٠ بنحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيها وغالبه يصدر الى الشرق



باب خراسان . وبوابات طهران القديمة تسترعى النظر بجماله الفنى

الاقصى عن طريق سكة حديد سيبريا والافيون الفارسى من أجود الانواع
فى العالم ويستهلك ثلث المحصول فى فارس نفسها وجزء كبير يباع فى البلاد
تهريا فهو يدر على الناس مالا يقل عن ربع مليون جنيه من الارباح
وتدخينه منتشر فى كل البلاد خصوصا الجنوبية وفى طهران نفسها فمن سكانها
الذين يبلغون ربع المليون أكثر من ٢٥ الفا يدمنون تعاطيه أما فى كرمان
من بلاد الجنوب فيتعاطاه ٢٥ الفا من ستين الفا مجموع سكانها حتى
يقول الفرس وهم يمزحون (فى كرمان يدمن الافيون اربعة أشخاص من
كل ثلاثة من السكان) ورغم أن عصبة الامم لا تبيح أكثر من استهلاك

١٢ رطلا لكل عشرة آلاف نسمة في فارس يستهلك كل عشرة آلاف
٤٥٩ رطلا أي ثمانية وثلاثون ضعفا ويساعد نشره هناك ويبرر تدخينه
بعض الشيء انه مورد كبير لهم وان له بعض الفوائد فهو ينفع ضد قرصة
البرد التي تصيب القرى الجبلية شتاء وقد عرفت فائدته في التخدير وكان
يضاف الى لحوم بعض الافاعي وسمى (تيريس) أو (تريا كا) والفرس
اليوم يسمونه تريا كا والمدمن له تريا كي ورغم أن الحبة الواحدة منه
تضر ضررا بليغا فان الفارسي يتلع حبات عدة ولا يموت لكن ذلك قد يسمم
جسمه ومن أخطر اضراره انحلال الجسم واكتئاب الفكر وغباء العقل
وهم لا يكتفون بتناوله أو تدخينه كبارا بل يعطونه مخففا للاطفال فالامهات
يسقين الاطفال منقوع قشر الخشخاش لينيموهم ويسمونه هناك
(شربات باشا) أي شراب الاطفال وبعضهن يضع حبة منه تحت ظفر
الاصبع ويتناوله الطفل ليرضع منه وينام . أليس في ذلك أكبر الخطر على
أجيال الفرس المقبلة من الوجهة الصحية والعقلية ؟ ويبلغ من قوة تأثير
الافيون أن الحيوانات التي تعيش في حجرة تدخين الافيون تعتاده فتضطرب
اذا منع عنها فكأنه أثر حتى على حيوانهم فاضحي مدمنا ! والحكمة هي
التي تبيعه اليوم في أصابع تلف في ورق وثمان الواحد قران ونصف - والقران
اثني عشر مليا - وكنت أرى رفقاء السيارة اينما سرت يدخنونه في دواة
اسطوانية مغلقة تماما الا في ثقب يضعون فيه نصف هذا الاصبع أو ثلثه
وللدواة (مبسم) في طول الشبر يضعونه في الفم ثم يعمدون الى قطعة من



باب الجرك في طهران

الجرك في ملقط ويقربونها من قطعة الافيون حتى تنفذ ولا يضعون الافيون
في (التباك) أو التبغ كما كنت أظن من قبل
ولقد كنت أعتقد أن أسوأ ما يرى البؤس مجسما في بلاد الهند التي
زرتها من قبل ولكني أكاد أقول بأنه هنا أشد وأنكى فلا تكاد تقع العين
في أي مكان الا على من شوه البؤس أبدانهم ، هذا نائم من غير حراك وذاك
يحمل طفلا وتلك تبكي في كثرة مخيفة فهل خص الله تلك الجهة بذاك الفقر
المميت ؟ ألق بقشرة من بطيخ أو تفاح وأنت، تدعر لهجمات عشرات الناس
عليها يلتهمونها وكننا نرى طوال الطريق الناس يحمل كل رغيفا من الخبز

يكاد يبلغ نصف قامته طولاً والخبز هناك رقيق ممطوط كأنه الفطير يشوى
على الحجر فيبدو أسمر محبباً

الى طهران : قمت أغادر كرمان شاه تلك البلدة الفقيرة بمناظرها

الغنية بيئتها الى طهران مسيرة ١٤ ك . م . بعد أن تعطلت يوماً آخر
وذلك لأن المسافر مضطر أن ينتظر السيارات المسافرة ان لم يرد استئجار
سيارة خاصة وهذه تكلفه كثيراً وكانت السلطة العسكرية إذ ذاك تسطو
على سيارات الناس لتضع فيها جنودها وموئها عنوة وبدون أجر وتقوم
بها صوب الحدود التي كانت تائرة هناك لذلك كان كثير من أصحاب
السيارات يخفونها فيفتش المسافر عنها سرا حتى اذا ما تكامل عدد الركاب
قامت بهم السيارة . وفي طريقنا مررنا بأثار منقوشة على الجبل في فتحتين ينبع
من تحتها ماء مثلوج وهي لدارا يسمونها (طاق بستان) أو (بسيتون)
وبجوارها صخر نقش بثلاث لغات منه أمكن العلماء فك طلاسم التاريخ
القديم على نحو ما خدمنا حجر رشيد في مصر ثم مررنا بقرية (أسد آباد)
الصغيرة وهي موطن السيد جمال الدين الافغانى وقد لقب بالافغانى خطأ
فأثار المكمان على صغره في نفسى أجل الذكريات . وكانت سيارتنا (فورد)
عتيقة بدا عليها الضعف فتعطلت بنا مرارا حتى انا قطعنا المسافة الى همدان
في ثمان ساعات وزاد الطين بلة أن زملاء السفر بينهما أثنان ممن تأخذ الخبز
بليهما ويدمنون الافيون فكلما مررنا بمقهى أو (شاي خانة) - وتلك
كثيرة على طول الطريق - أوقفوا السيارة ونزلوا يشبعون أمزجتهم أما أنا



قمة دما فاند أعلى ذرى فارس وهى بيت الله فى زعم المجوس

فكنت أطلب الشاى يقدم لنا بدون سكر ويضع الرجل فى يدك بعض قطعه الصغيرة ، تلقى بالقطعة فى فمك وتشرب عليها الشاى وتلك طريقتهم فى شربه فى بلاد فارس كلها . وكان من الرفقاء واحد يعرف قليلا من العربية فأخذ يحدثنى عن بلاده فى نعمة المبالغة ويحاول اظهار كل شىء بمظهر الفخامة والعظمة فتعرض للتاريخ وأشاد بماضى فارس المجيد . وثنى على الانجليز والروس وأخذ يلعن ويطنن ويقول بأن الفرس نجحوا تماما فى طردهذين الكابوسين وكلاهما مبغض لجميع أهل فارس كذلك فهم يبغضون أهل العراق ويطمحون الى تملك بلادهم يوما وهم جميعا يمتنون العرب المقت كله

ويتبرأون منهم ويقولون بأن العرب رغم أنهم أدخلوا الاسلام في بلادهم واحتلوها طويلا فان فارس حافظت على شخصيتها ولغتها وهم ينظرون الى العرب نظرة احتقار ويفاخرون بانهم من اصل آرى لاسامى ولعل ذلك راجع الى أنهم يتأثرون لماضيهم الذى هزه العرب يوم فتحوا بلادهم . حدث أن عرفى هذا الرفيق باآخر لاقيناه فى نزل فى همدان وقال له بأنى مصرى أتكلم العربية فكأن جوابه فى غير ذوق ولا أدب : اننى أمقت العرب مقتا .

ومن مبالغات صاحبي هذا انه قال بأن طهران تحكى فى عظمتها برلين وباريس فلما جئتها لم أجدها شيئا يذكر الى جانب أسيوطمثلا و نعمة التفاحر وحب الفخفخة طبيعة فى أهل فارس جميعا ورغم أن ذلك ضعف خلقى فانه فضل من جانب العصبية القومية والاعتزاز بها

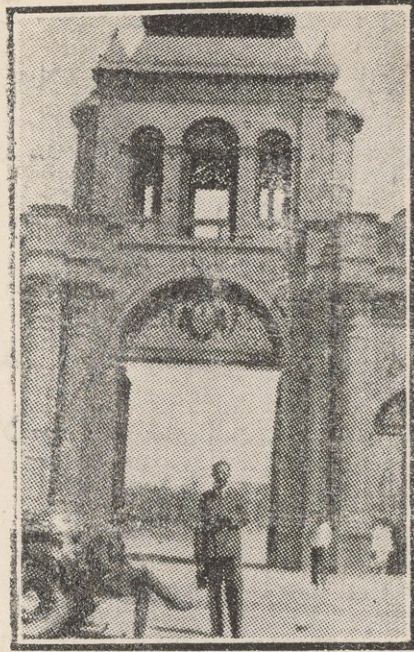
وكنت أعجب لتلك الوحدة القومية التى كنت أشاهدها تسود أهل فارس جميعا رغم شقة الخلاف الجنسى واللغوى هناك فلتقاليد الفارسية لا يكاد يكون لها وجود بينهم لكثرة الامتزاج الجنسى ومع ذلك كانت الوحدة القومية قوية جدا وهم كالانجليز من أكثر الشعوب اختلاطا فأول من نزل بلادهم القاطنون حول بحر الخزر ثم دخل الآريون النورديون من شرق روسيا والطورانيون المغول من غرب سيبيريا منذ ٢٠٠٠ ق م وقد قيل ان بلاد العرب خضعت لثلاث قوى جعلت منها وحدة سياسية : اللغة والدين والتقاليد وهى أكبر مساحة فى الدنيا حل بها هذا وساعده تشابه البلاد



الاحتفال بعيد رضا شاه في حجر دما فاند

في الظروف الطبيعية أما فارس فعلى نقيض ذلك تقوم بها نحو ست لغات مختلفة تنقسم كل منها الى لهجات عدة - وأن أخذت تسود اللغة الفارسية اليوم بفضل انتشار المواصلات والتعائم والخدمة العسكرية فنحو ثلاثة أرباع الناس يتكلمونها اليوم - كذلك في الدين ترى شيعة مختلفة هناك وان كان غالب السكان من الشيعة الذين يفوقون عشرة ملايين ولا يزيد السنون على ثلاثة أرباع المليون ويحلون نواحي كردستان واذريجان وبلوخستان ومن الاقليات : المسيحيون والبارسي عبدة النار والصوفية والبهاية التي اثرت على العقول المثقفة هناك زما وبدرجة قد تفوق أثر الاسلام ولقد

قاومت الفلسفة الزردشتية هناك الاندماج في العرب ولذلك لا يعد الغزو الاسلامي نصرا من هذه الناحية ويخال البعض أن سبب ذلك يرجع إلى أن جنود العرب لم يصحبوا نساءهم معهم فتزوج غالبهم من الفرس فتبع الابناء أمهاتهم ووعوا ما لقنوه من تقاليدهن الفارسية فخرج من ذلك نشء جديد يغير الحاكم والمحكوم . ويقول المستشرقون ان الفرس كانوا ارجح عقولا وأكثر مغامرة ونشاطا من العرب سادتهم ولما اجتاحت بلادهم المغول عهد هولاءكو وتيمورلنك استخدموا موظفين من الفرس وأبقوا القوانين الفارسية ولما جاءت أسرة الصفويين وحدت البلاد ولما انقضى عصرهم في منتصف القرن الثامن عشر كانت العناصر الفارسية هي السائدة في البلاد فاهل فارس وحدة قومية تفوق في عصبيتها شعوب آسيا جميعا وكثيرا من شعوب أوروبا والفرسي رجل اجتماعي في مجموعه يفوق في تلك جميع الشرقيين وأكثر الفئات ميلا للاجتماع في الشرق عادة الطبقات الارستقراطية الرافية فقط أما في فارس فتري حتى عامة الناس والطبقات الوضيعة كذلك والفرسي اكدفاً من العربي في الصناعة وأقدر على ادارة الأعمال والظهور بمظهر الرأسة لذلك كنا نشاهد كثيرا من رؤساء البوليس في الافغان والعراق وفي الهند من أصل فارسي فالفرسي قوى الملاحظة سريع التعلم وان مال الى النظريات الفلسفية أكثر من ميله الى العمليات وهو مرح يحب الشعر وأوتي قدرة مدهشة على استظهاره فبعضهم يحفظ ديوان سعدي وحافظ وقصص زهرا ب عن ظهر قلب والفرس كسائر الأمم الاسلامية ليس



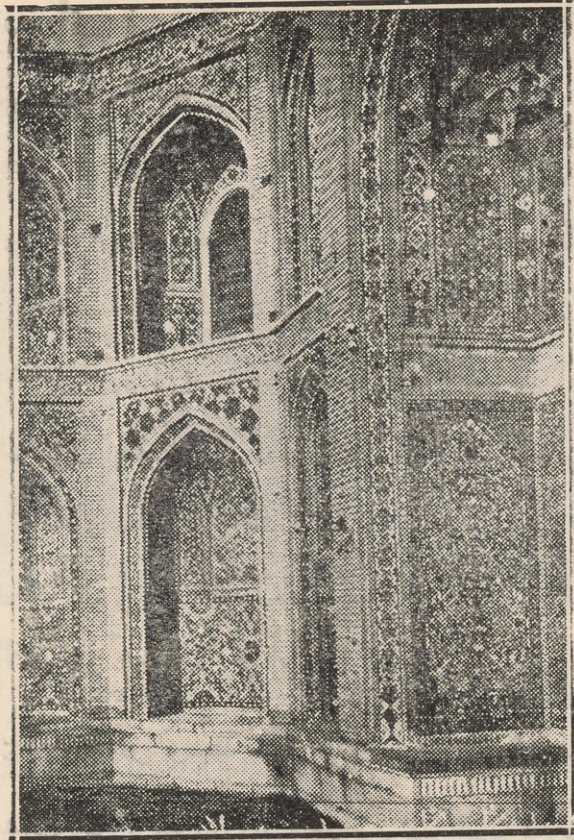
أمام باب بهلوى الجديد وشتان بين الفن القديم والحديث

هينهم نظام الطبقات . وفي تقديره للجمال يفوق الكردى والعربى والافغانى
وهو يخلق لنفسه السرور مما حوله من ظروف ولو كانت شديدة وقدرته
العسكرية يؤيدها التاريخ منذ زمان بعيد

امضينا ليلتنا فى همدان : فى نزل جميل وتجولنا بها فى الصباح فظهرت
تفوق كرمان شاه عمرانا وامتدادا تحفها البساتين الياعة وارتفاعها ٦٠٠٠
قدم يشرف عليها جبل ألفند alvend وموقعها جميل جذاب ويقولون انها
هى نفس بلدة (اكباتانا) التى نهب الاسكندر كنوزها القيمة فى عودته من

الشرق وكان الاشوريون يسمونها هجماتانا وكانت قاعدة ملك ميديا وبجوارها
مدفن أستر (Esther ، ومورد كاي Mordecai) ولذلك قدسها اليهود
وأحلوها من قلوبهم محلا ساميا وهي وطن بديع الزمان وبهامات ابن سينا
وفي المدينة حركة هدم للقديم وانشاء جديد وهي السنة التي يسير عليها
شاه فارس المصلح اليوم ولذلك أحبه الناس حبا وزينوا دورهم ومتاجرهم
بصورته ولا يستطيع أحد التعرض للأحزاب والسياسة ومن فعل فقد حياته
وقد أقام من الناس عسسا على بعضهم وهؤلاء يجزون خيرا على تبليغاتهم
والنزعة العامة الإصلاح ورفع شأن البلاد وإيقاظها من سباتها الذي غطت
فيه أجيالا

قمنا من همدان الحادية عشرة صباحا الى طهران ومررنا بمساحة شاسعة
من سهول كثرت بها المزارع وفي السادسة مساء دخلنا بلدة قزوین أي بعد
سبع ساعات رغم جودة السيارة ومهارة السائق فعجبت كيف كان القوم
ينقلون قبل مجيء السيارات - ولم تستعمل لديهم الا بعد الحرب العظمى -
كانت تنظم القوافل بالدواب من بغال وحمير لنقل الناس وجمال لنقل المتاع
فكانوا يقضون في طريقهم شهورا متعبة ممضنة وهم معرضون لخطر هجمات
الصوص ولم يكن الامن منتشر كما هو اليوم ولا تزال ترى لتلك الحيوانات
بقية في كل مكان خصوصا في الريف والقوم جميعهم مهرة في ركوب الخيل
فهم مطيتهم الرئيسية الى اليوم والحق أن السيارات تلعب دورا هاما في
تطور البلاد يشغل بها نفر عديد وأينما حللت وجدت (الجراجات) تلحق

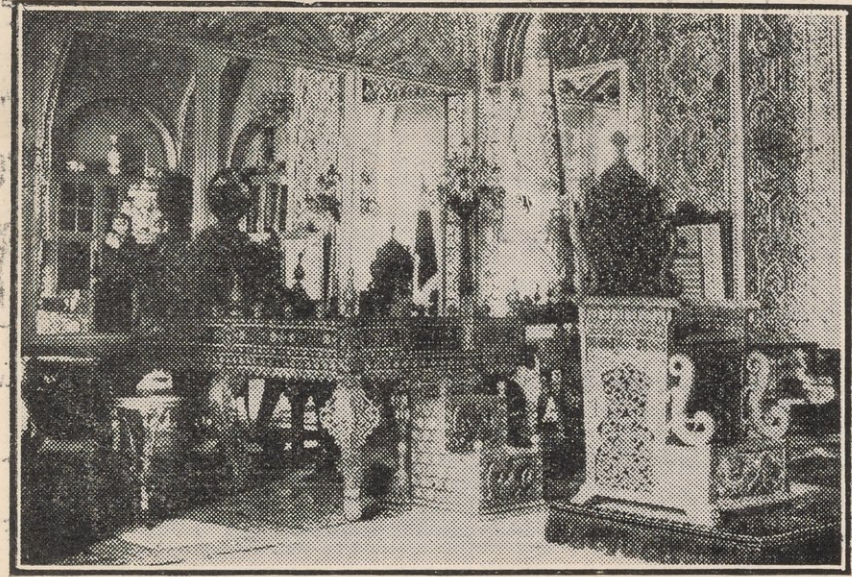


ابداع الفن داخل مسجد سياه سالار بطهران

بها (المسافر خانات) لنزول المسافرين وقزوين بلدة صغيرة ولكنها أجمل من همدان لأنها كانت يوماً ما عاصمة الشاه عباس يسترعى النظر بها دار النظمية في بواباتها الشامخة يزينها القيشاني الازرق البديع وآى الذكر الحكيم كذلك مسجدها الجامع بقبته الزرقاء الجميلة وقد أقام الصلاة فيه خالد بن

الوليد والحسن بن علي الذي كان يصحبه في الفتح الاسلامي وكثير من
أحياء البلدة قديم أقيم في سرايب ضيقة محجة من وهج الشمس وبخاصة
الاسواق المتلوية وقد لاحظت جودة الطرق ورصفها على جانبي همدان
وعلمت أن الفضل في ذلك يرجع للانجليز والروس أبان الحرب . فكل
فريق كان يخشى الآخر الروس زاحفون الى همدان من الشمال والانجليز
من الجنوب . واصلنا سيرنا صوب طهران وسط الرابي الجافة وفي بلدة
كرج التي تبعد عن طهران بساعة واحدة عجز السائق عن السير وقدرات
رأسه ولعب الافيون بعقله فأصر أن تنام ليلتنا هناك فحضعنا لأمره وفي
الصباح كانت البلدة وسط مزارع غنية وشجر كثيف وهي من أشهر
الاراضي الزراعية في إيران كلها لذلك أقيمت بهامدارس الزراعة ومصانع
السكر البنجر الذي يزرع حولها وفي ضحي الخميس ٣ أغسطس دخلنا :

طهران : فأخذنا نمر وسط بلدة مخربة متهدمة من أثر معاول الاصلاح
الجديدة التي بدأت تحاول القضاء على القديم وتقيم العمران على أحدث نظام
فالطرق زيد في اتساعها وبدى في رصفها بالاسفلت بعد أن كانت بقطع
الحصى والمباني الشامخة أخذت في الظهور بعد أن كانت أقبية وطبئة مغلقة
وكانت تبدو على بعد جبال دمافاند الى ذرى فارس (١٩٤٠٠ قدم)
وأروعها تكسوها عمائم الثلح الابيض الوضاء وخلف القمة تمتد جبال
البرز وبلاد طبرستان القديمة . حللت بها نزل (جراند أوتيل) من أكبر
مخادقها في شارع (لالزار) أحدث الطرق التي تم تنسيقها عندهم ثم طفت

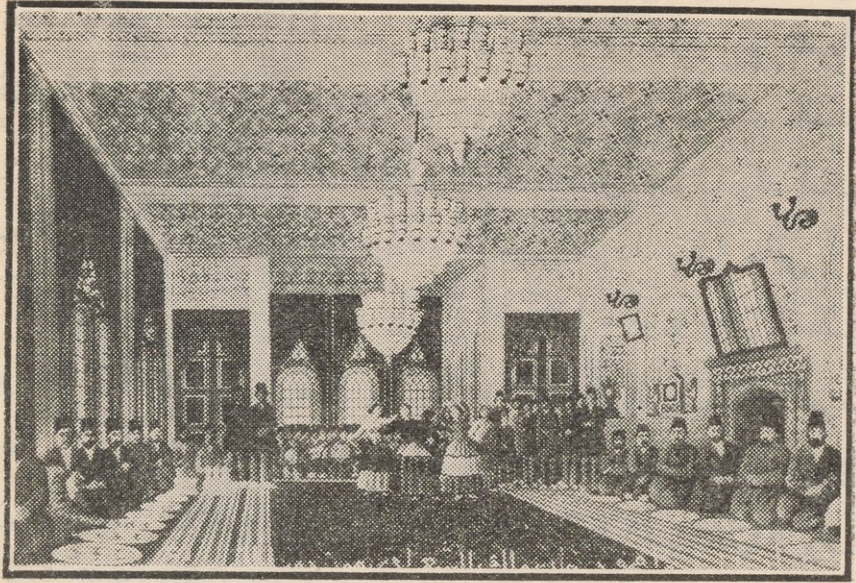


عرش الطاووس الذى سلبه نادر شاه دن الهند فى آصر جولستان فى طهران

أرجاء البلدة فراقنى بواباتها العالية المزدانة بالقيشانى والنقش البديع وهى من أخص مميزات طهران أذ كرتنى بعاصمة الصين : بكين وبواباتها . أما اسواق البلدة فحذت عن جاذبيتها شعابها لا تدخل تحت حصر واكلها مغلقة بالاقية وجماهير الناس بها متلاصقة وأصواتهم لا تخبو قط . وغالب البيوت ذات مدخل مزر كمش بالقيشانى يؤدى الى فناء يتوسطه حوض ماء كبير يغتسل فيه القوم ويغترفون ما يحتاجون من ماء والحجرات تطل على الفناء فى مربع ذى شرفات جميلة ويغلب أن تزينه حديقة بسيطة والفرس مشهورون بميلهم للحدائق مثل اليابانيين وان أعوزها التنسيق وكال الذوق

وبالمدينة عدة مساجد فارسية الهندسة قصيرة المآذن نجيلتها . والمقاهي هناك قليلة بالنسبة لما رأيت في العراق وأحب وسائل اللهو دور السينما والنساء نصف سافرات يلبسن الازار المهفوف وعلى الوجه ظلة مخزومة أفقية وقليل من لبس الزى الافرنجي وهن أكثر حرية من نساء العراق وجمالهن فائق لولا طول الانوف وتحديدها والمبتدلات منهن هالتي كثرتهن فأنت طوال الطريق تراهن في زينتهن وطلاء وجوههن يسرن ذهابا وجيئة يحاولن اجتذاب المارة بالنظرات والغمزات والوكيزات ولا يكاد يخلو منهن مكان وقد علمت أن في طهران وحدها من أرلئكن ثلاثين ألفاً حسب الاحصاء الرسمي وهذا بلاء زواج المتعة المنتشر هناك ولعل للإباحة الروسية الممقوتة التي أدركت البلاد زمنا أثرا في ذلك الانحلال الخلق المشين وأنت ترى الرجال كل يساوم غانيتها على قارعة الطريق في غير حياء كأن الامر عادى وذلك شر ذائع في بلاد فارس كلها بنسبة لم أرها في أى بلد آخر اللهم الا في شنغاي بالصين وهى هنالك تعزى الى انتشار العوز والاباحة الروسية ويقيني أن تلك وصمة عار في جبين الدولة الفارسية

قمت يوم الجمعة متعبا لان شدة الحر لم تمكني أن آوى الى مضجعي الا في ساعة متأخرة من الليل والجو هناك أميل الى الحرارة لكنه أرحم بكثير من بلاد العراق والسماء تغشاها الغيوم المتقطعة مما يخفف من وهج الشمس بعض الشيء خرجت أجوب ارجاء البلد واذا المدينة هادئة الحركة مغلقة المتاجر لأن الجمعة هو يوم العطلة العامة وغالب أصحاب الاعمال يحترمونه



مثل من الحفلات الراقصة القديمة في قصر الشاه

فيوقفون أعمالهم والناس هناك أنظف من أهل الريف وان كثير بينهم
المتسولون كثيرة مروعة فالتسول والفقر في فارس آفة مهلكة وأن وجد
من بين الفرس أفراد مفرطون في الغنى ومن العادات المنفرة بينهم جميعا
التجشئ والبصق والتمخيط اينما وجدوا وحتى المهذبين منهم ترى الواحد
لا يمسح انفه بمنديله بل يضغظه بين اصبعيه وينفر نفرة تشمئز لها النفوس
على أنهم مؤذبون تسمعهم يرددون (خيلي ممنعون) ومعناها (عظيم الشكر)
دائما وأن أرادوا الاستفهام أو النداء أو الرضى بما يقال صاحوا قائلين (بلي)
بأمانة اللام في رقعة وأدب ويبدأك الكبار بقولهم (سلام عليكم) والصغار

بقولهم (سلام) فقط سواء أعرفوك أم لا . وأزياؤهم اليوم تكاد تكون
 موحدة فكلهم يلبسون الحلال الافرنجية وعلى رؤوسهم القبعات
 (البهلوية) وهي المميز الواضح لهم جميعا ولا تكاد ترى للزى القديم
 اليوم من أثر وهو العمامة (أو القاووق) والعباءة من الصوف وقد استثنى
 الشاه من ذلك رجال الدين يظهرون في عمامتهم السوداء وقليل ماهي
 ويخيل الى أن مستقبل طهران بل وايران كلها سيكون عظيما بفضل
 مجهود الشاه الحالي فهو يريد أن يرى بلاده تناظر في القريب بلاد الغرب
 رونقا ورواء لذلك أخذ يهدم القديم وينشئ الحديث بسرعة عجبية في كل
 البلاد ولقد أعاد لبلاده هبة في قلوب الاجانب انتزعها منهم انتزاعا وقد
 كان مركز البلاد مهددا باعتداء الروس من الشمال والانجليز من الجنوب
 وزاد ذلك الخطر منذ سنة ١٩٠٦ حتى كانت الحرب الكبرى فتقدموا داخل
 البلاد بحجة مطاردة الاتراك ولما أن انسخت الروسية عن الحلفاء خشيتها
 أنجلترا واحتلت بلدة (قزوين) وماجاورها خصوصا وقد نشطت حركات
 البلشفيك عند بحر الخزر وفي اذربيجان واخذت شروط ولسون تلعب بلب
 الناس في فارس تحت زعامة رضا خان فعرض الروس تنازلهم عن معاهدة
 ١٩٠٧ واستعدادهم للتنازل عن جميع الامتيازات التي كانت للروسيا في
 فارس وفي يونية سنة ١٩١٩ قدم ممثل السوفيت في فارس التصريح التالي :
 (١) التنازل عن الديون الروسية في فارس (٢) التنازل عن التدخل في
 شؤون فارس (٣) الغاء الامتيازات والمنح الروسية هناك (٤) التنازل عن

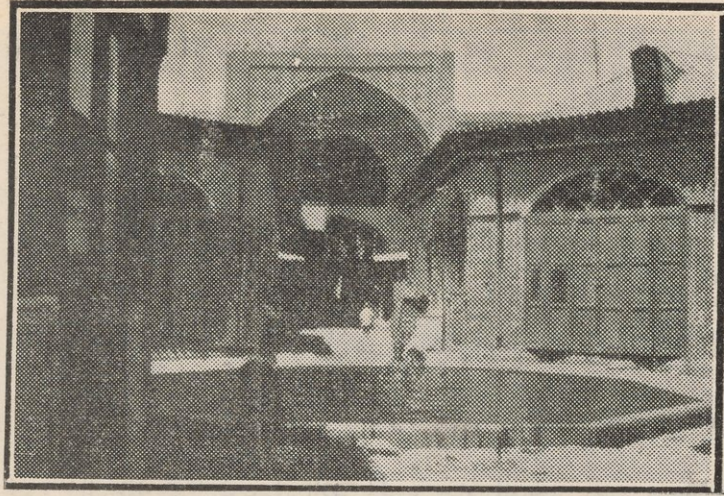


مثال للجمال الفارسي

البنك الروسي في فارس (٥) ترك الطرق
والسكك الحديدية الروسية للحكومة
الفارسية (٦) تنازل الروس عن كل
أملاتهم هناك . وكان غرض روسيا
من ذلك احراج انجلترا ولقد اعترفت
روسيا باستعدادها لمساعدة فارس عسكريا
ضد أى اعتداء وجعل بحر الخزر بجزراً
حرا لها وبذلك أضحت العلاقة بين
الدولتين وثيقة جدا لكن العلاقة ضعفت
قليلا لما حاولت روسيا بلشفة فارس
وكانت على وشك الزحف لولا أنها
خشيت انجلترا من الجنوب وكان الفرس

مهرة في انتهاز الفرس وأتاحت لهم الظروف قائدا عظيما مخلصا (هو
رضاخان) من عائلة متوسطة حارب مع الروس وأجبه جنوده فزحف
بهم على طهران سنة ١٩٢١ وأصبح القائد العام ووزير الحربية وفي اكتوبر
١٩٢٣ اضحى رئيس الوزراء ثم اعتلى العرش فشابه مصطفى كمال في أنه رجل
سياسة ورجل سيف معا وهو محب للنظم الاوروبية لكن يظهر انه كان

أحكم من مصطفي كمال لانه أدخل اصلاحاته دون أن يغضب رجال الدين
ووجه أول اهتمامه لاصلاح الجيش فأعد جيشا محترما من أربعين ألف
مقاتل وبينما السلطان احمد شاه يترىض في الرفيرا كعادته قام رضاخان وكاد
ينتخب رئيس المجلس لكنه قال بأن النظام الجمهورى يتنافى مع أصول الدين
الاسلامى فتوج ملكا سنة ١٩٢٥ وأجلس على عرش المغوليين فى قصر
جولستان وكان قد اغتصبه نادر شاه من الهند قديما ثم عدل الدستور وتم
ذلك دون اراقة قطرة دم واحدة وأخذ توا فى اعادة النظام وأصلح الضرائب
والمالية بمعاونة بعض الاجانب من أصدقائه وفى ١٩٢٨ فتح البنك الملى
(الاهلى) ووطد علاقته السلمية مع جيرانه وفى ١٩٣٢ اصبحت بلاده
عضوا فى عصبة الأمم وطالبت بما يأتى : (١) الغاء اتفاق الروس والانجليز
سنة ١٩٠٧ والغاء المحاكم القنصلية والحرس القنصلى (٢) تعويض عن
المناطق التى خربت خلال الحرب وألغاء المنح المالية لتستقل البلاد ماليا
(٣) تثبيت الحدود الفارسية . لكن الانجليز اشترطوا ان تتعاون
فارس مع انجلترا وأن تقبل مستشارين منهم ومدربين للجيش الفارسى
فكان رد الشاه على ذلك الرفض فى أباء والتهديد بالحرب فكأنهم اعتمدوا
على نفوسهم وأزاحوا الكابوس الاجنبى والغوا الامتيازات التى كانت
تفت فى عضدهم وأضحى بغضهم للاجانب شديدا وبخاصة الانجليز . والشاه
والشعب الفارسى يتصرفون فى كل ماله علاقة بالاجانب فى شدة وصرامة
لا تقبل هوادة . بلغنى أنه حدث مرة أن احد الالمان زار طهران ولما عاد

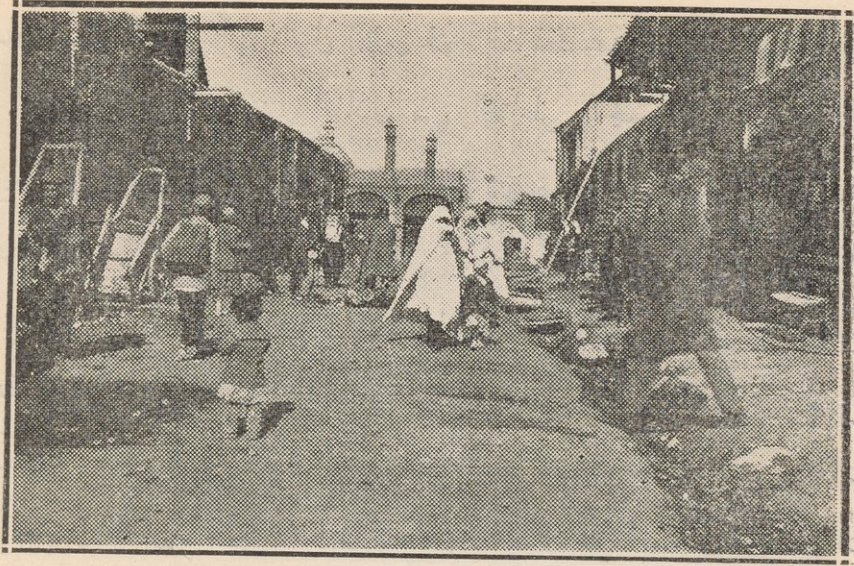


لايخلوبيت من أحواض الماء في نارس ويرى هذا الحوض وسط سوق طهران والرجل يقتسل فيه
لبلاده كتب نقدا لفارس عموما ولاستبداد الشاه خصوصا وكانت الكتابة
ماسة بكرامة البلاد فعرض سفير الفرس في برلين الأمر على القضاء فحكم
ببراءة الكاتب وبمجرد وصول الخبر لمسامع الشاه أصدر أمرا بالاستغناء
عن جميع الموظفين من الالمان في بلاد فارس كلها - وقد كان جل الخبراء
الاجانب الذين تستعين فارس بخبرتهم من الالمان والفرنسيين - فيكانت
تلك مباغثة قاسية عاد الالمان يصلحون مركزهم بعدها من جديد وقد لاقاني
عالم ألماني في مشهد (الدكتور باسوقس) وهو ممن يقومون هناك بأصلاح
ذات البين وارجاع المركز الالمانى لما كان عليه لدى الشاه . تصرف حازم
يدل على مبلغ احترام القوم لانفسهم والمحافظة على قوميتهم

دهشت كيف تكون بلاد متأخرة كهذه نحن نفوقها في التقدم بخطى
واسعة قد تحررت من الامتيازات الاجنبية ونحن نرسف في أغلالها ؟ أليس
الامر مجرد جرأة في الاقدام على الغائها في غير تردد فنحفظ بذلك كرامتنا
وندل على أنا شعب جدير بالاحترام ؟

بعد أن اطمأن لالغاء الامتيازات وعدم تدخل الاجنبي بدأ بأصلاحاته
الداخلية فمن الوجة المالية اتخذ الذهب معيارا للنقود بعد أن كانت الفضة
من قبل وجعل التجارة الخارجية احتكارا حكوميا ليقاوم زيادة الواردات
ومنع دخول الفضة بتاتا وعدل الضرائب فبلغ الدخل خمسة ملايين جنيه
يضاف اليه ضريبة السكر والشاي وهي حول مليون جنيه وضريبة الطرق
حول ستمائة الف جنيه وضريبة البترول وهي ١١٥١٩٧٩ جنيها . وقد
نقذت ضريبة الدخل - ولا نستطيعها نحن خوفا من الاجانب - منذ أبريل
سنة ١٩٣٠ وتشمل ٣ .٪ من أرباح الشركات وبين ١ و ٣ .٪ ممن
زاد دخلهم على ٥٠٠ تومان (والتومان اثني عشر قرشا) والجمارك أهم
موارد الدخل العام وهو ينفق على الجيش ٤٤ .٪ من مجموع الدخل

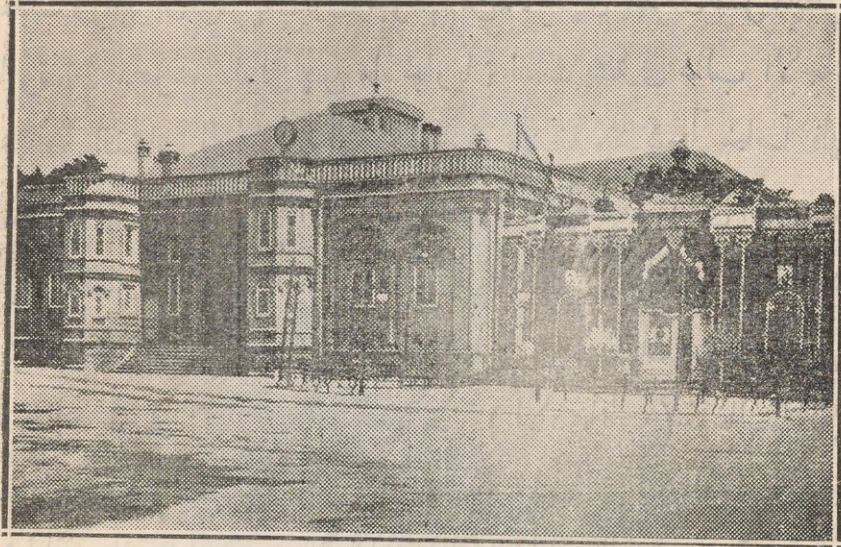
ولقد بدأ اصلاح الجيش بمعاونة مدربين من السويد وفي سنة ١٩٢٦
جعل التجنيد اجباريا فخريجو الجامعة لا بد أن يخدموا في الجيش
سنة واحدة وطلبة المدارس الثانوية سنة ونصفا ومن يعولون أسرة يخدمون
أربعة شهور ونصفا ويشرف على وزارة الحربية الشاه نفسه ومجموع الجيش



بعض الاحياء القديمة في طهران

النظامى اليوم كامل العدد ثمانون الفا ويحاولون ابلاغه مائة الف وفي
طهران مدرستان حرّيتان يدخلها الحاصلون على الشهادة الثانوية فضلا عن
البعوث الحرّية الكثيرة الى المانيا وفرنسا وقد بدأ نواة الاسطول البحرى
والجوى والحرّية غير مسؤولة أمام البرلمان بل أمام الشاه وحده
أما فى التعليم فقد عمم المدارس القروية ومدتها أربع سنين ومدارس المدن
مدتها ست ثم المدارس الثانوية ست اخرى وبعدها المدارس العليا وهو يحاول
جعل التعليم اجباريا وأهم ما يرمى اليه التعليم هناك الاعتزاز بالوحدة
القومية وتمجيد ماضى البلاد وتثقيف العقل والجسم والتربية الدينية

ويعنى الشاه اليوم بالطرق العناية كلها . حقا شهر الفرس بذلك من زمان بعيد حتى قيل أنهم أول الامم فتحها فقد عبدوها منذ سنة ١٧٠٠ ق . م وكنا نشاهد بعض أطلال من القناطر والجسور القديمة لا تزال باقية ولقد كانت شهرتهم تفوق في الطرق شهرة الروم ولقد كان النقل الى الحرب الكبرى بالدواب لكن تدخل الانجليز والروس ساعد على العناية بالطرق وربطت أطراف البلاد بالسيارات كذلك شجعت الظروف الحربية إقامة المطارات وقد تسلمها الفرس اليوم وبفضل العناية بالطرق زاد نفوذ الحكومة المركزية ورخصت أجور نقل السلع التجارية وخفت ويلات المجاعات وقد أمن الشاه تلك الطرق بأقامة المخافر على امتدادها في فترات قصيرة وحتى وسط الجبال المقفرة التي لا يقطنها أحد الى ذلك الا كثار من (المسافر خانات) أو (كرافان سراي) في كل مكان ومن أول ما يشغل اهتمام الشاه السكة الحديدية التي يفكر في نشرها جديا وقد بدأ العمل في وصل البحرين: الخزر والخليج الفارسي بخط حديدي لكي تستقل البلاد عن جاراتها في أمور النقل والتجارة وهو ماض في مدها رغم كثرة الصعوبات التي تواجههم كرداءة الثغور في البحرين وكثرة الجبال بين طهران وبحر الخزر ما لا يقل عن ٢٥ ميلا من الانفاق لذلك ستكلفهم السكة غاليا ويرى البعض أنه يفضل مد الخط بين طهران وبغداد ولم يقبل الشاه أن يعرض الامر على شركات أجنبية بل يعتمد في النفقات على ضرائب مسكر والشاي التي تزيد وحدها على مليون جنيه كل عام ويخال بعض

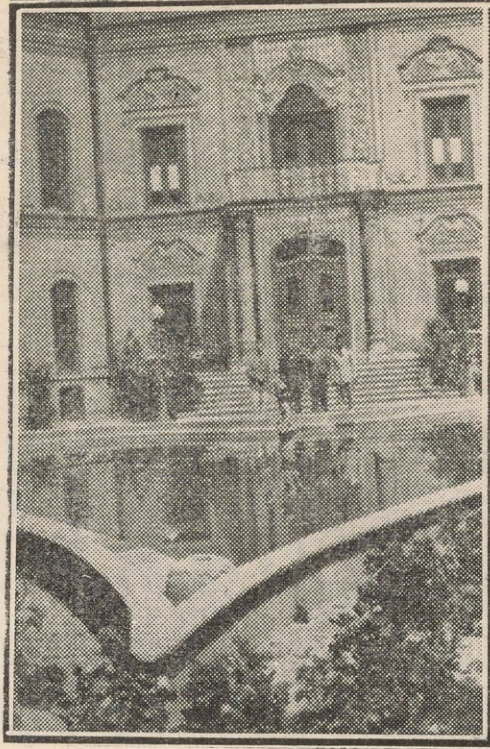


دار البرلمان في طهران

الاقتصاديين أن في ذلك خطرا على ثروة البلاد وتعطيلا لاموالها التي هي في حاجة اليها في أمور أخرى على أن ما قاسوه من عبء التدخل الاجنبي الممقوت جعله ينأى ما استطاع عنهم وعن رؤوس اموالهم على أن البلاد ينقصها الشيء الكثير من ذلك الشؤون الصحية والعناية بها فمياه الشرب مثلا من المشكلات هناك حتى في طهران نفسها فهم اعتادوا من زمان بعيد أن يتعقبوا منابع العيون ويخضعوها لحفائر تسير منها سراديب الى أحواض تحتزن فيها وكالما طغت سال الماء الزائد الى المجارى التي تسقى البلدان وتراها تجرى على جوانب الطرق مكشوفة لكل عابث فترى هذا يغتسل

وبعده آخر يستقي ثم ثالث يبصق ويتمخط ورابع يلقى بالماء القذر فيها وقد
شاهدت في طهران قوماً يغسلون وجوههم من ماء يجري بعد أن غسل به الطريق
ولما وقفت مدهوشا قالوا أليس ماء جاريا ؟ لذلك يشتري غالب الاجانب
ماءهم من السفارة الانجليزية التي أقامت لها مضخة ومرشحا خاصاً فليس
بمستغرب اذن أنك ترى الامراض منتشرة وبخاصة الجدري الذي يشوه
وجوه الكثير وتشويه العيون والقرع منتشر حتى بين الطبقة المثقفة فيندر
أن ترى رجلا من الطبقات الفقيرة سليم الرأس ويزيد ذلك سوء عدم صرف
القاذورات فكثير من بيوتهم تخلو من (الادبجانات) وغالبهم يبول
ويتغوط في الخلوات ويغتسلون على مجارى المياه التي يستمد منها غيرهم
والاطباء هناك قليلون ولذلك كان متوسط المتاع الصحي فيمن تتراوح
سنتهم بين ٢٥ و ٥٠ سنة أقل من نظرائهم في البلدان الراقية بعشرة أضعاف

الى خراسان : اعترمت القيام الى أرض خراسان حيث مقر الامام
الرضي أحد أئمة الشيعة وابن الامام موسى الكاظم في بغداد وضريحه في
مشهد ثمانية مدن فارس وأولى البلاد المقدسة فهي كعبتهم تبعده عن طهران
مسافة نائية هي فوق مائة وستين فرسخا والفرسخ وهو وحدة قياس
المسافات عندهم نحو ستة كيلومترات أعني نحو ألف كيلومتر أو يزيد كان
القوم يقطعونها على متون الابل والبغال والحير فيما بين اربعين يوما وستين
وهي بالسيارات اليوم بين يومين وثلاثة . أخذت مكانا أماميا في سيارة
كبيرة من ذرات العجل المزدرج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة

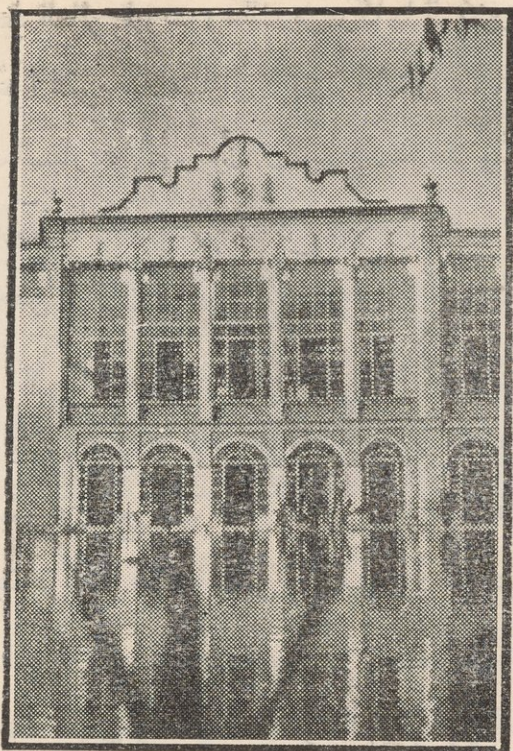


دار المفوضية المصرية العامة في طهران

والعشرين عدا بين نساء ورجال وشيوخ وشبان وبدأنا السير ليلا وكلهم
أيمان صادق لا يبتغون من وراء كلفهم تلك ونصبهم هذا الا زيارة قبر
الامام ومعهم زادهم أما أنا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل
ساذجة للنوم والطعام . وبين آونة وأخرى كان يصيح الجمع في ابتهاج قائلين
(لاهم سل آلى مهمد آلى مهمد)

وأخذنا نمر بالمحاذ التي يسميها القوم مسافر خانات أو كرفان سراي
وهناك نجد أمكنة تحكي الخان بها حجرات فقيرة الاثاث وغذاء بسيط كنا
تتروذ منه ونأخذ قسطا من الراحة ثم نستأنف السير . ولم تكن تقوى القوم
لتنسيهم ملاذهم فقد كان الفريق الاكبر منهم يحمل الغلابين لتدخين الافيون
فينتحون جانبا من المكمان ويمر الغليون عليهم جميعا وكان في جوارى الى
جانب السائق أحد علماء كربلاء بعامة السوداء الضخمة ولحيته المرسله
وسحنته الناحلة وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن
نسل العلم والعلماء ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه (حق الخمس)
يقصدون الاغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لأنهم من
السادة سلالة الرسول ولما علم الشيخ بأني سائح سأ كتب عن رحلتى قال لى
أكتب عنى (أنا العلامة حجة الاسلام ونفر الملة والدين السيد)
على أنى لما تحدثت اليه لم أجد من علمه ما يؤيد تلك الالقاب الا أنه رجل
طيب القلب وديع الخلق كريم الطبع

جد السائق فى السير على ضوء القمر وقبس مصباحه فخانه نظره وما
نشعر الا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق وتنزل هوة من دونها وادى
سحيق فكلمات تنخلع لرجاتها قلوبنا وصاح الجميع وارتطم هذا بذاك وذاك
بجانب من السيارة ثم كانت صدمة عنيفة وفرقة أصمت آذاننا واذا هى
صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب وقد
أصيب من الركاب كثير ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا



في (لوقطة) وهو مثل دن القصور الفاخرة القديمة

وصدمة شديدة في الركبة اليمنى أحدثت بها كسرا لا أزال أعانى منه فقفزت
من السيارة ونمت على الصخر تأمها حتى الصباح حين رأيت العجلة قد كسرت
من أساسها ولولا لطف الله لكننا اليوم في عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا
يوما كاملا في تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولا قوت فتباغت بكثرة
أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر وكان تدرج
الى طهران ثم عاد الينا وأصلح ما أفسدت غفلته واستأنقنا سيرنا حامدين

شاكرين الله أن أنجانا من خطر الموت في تلك الناحية النائية وكم من
سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركبها الكثير في تلك الطرق
الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا الى رضى الامام عنا ، وما كدنا نسير
بعيدا حتى وقفت السيارة فجاءة وتبين أن البنزين قد نفذ ولم يكن لدينا منه شيء
فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة
أخرى اعارتنا بعض البنزين والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهابا ورجعة
في كثرة هائلة كلها تحمل جماهير الحجاج ويقولون بأن هذا الخط على
وعورته أكثر البلاد حركة في نقل المسافرين لان مشهد خير لديهم من
مكة المكرمة تغنيهم عن حج بيت الله الحرام في زعمهم فترى الفانى منهم
والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل اليها ويود لو يموت بها ليدفن
في أرضها الطاهرة .

لبثنا نسير وسط الرابي وصعدنا ما هو بالغ الوعورة في طرق لياتها
المتعاقبة من الاعاجيب وكلها مجدبة عريت عن النبت الا في بعض بطون من
الاوادية حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه
بأبنيتها الوطيئة من الطوب واللبن وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبا
صحراوى وتلك بداءة أرض خراسان التي بدت أكثر جدبا من سابقاتها
ومن البلدان الكبيرة التي مررنا بها (سمنان ودمغان وشاروت وسابزوار)
ثم نيسابور وكلها كراكن الصعيد عندنا حولها تكثر البساتين والمزارع
ووعجت لانى رأيت القطن يزرع هناك بكثرة ويؤتى محصولا لا بأس به

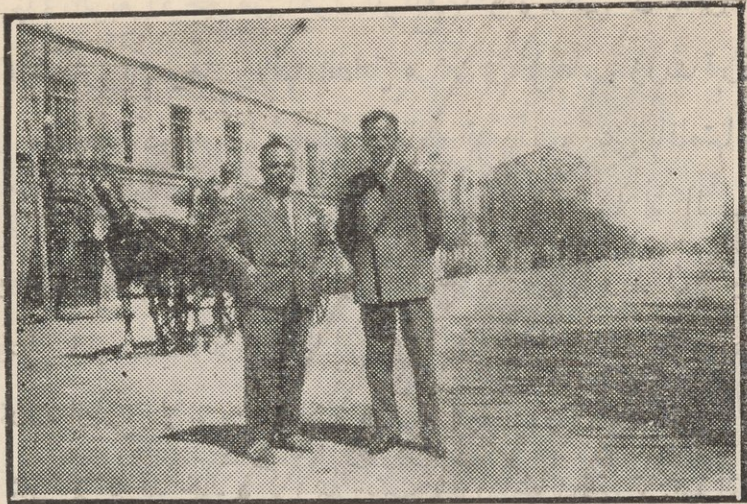


نستريح قليلا في أحسى (المسافر خانات) التي تنتشر في غالب طرق العجم

وقد أقاموا له بعض المصانع التي تستهلك غالب الخام وقد بلغني أن ثمنه قد انتعش وأنا هناك فبلغ ١٢٠ قرشا للقنطار بعد أن هبط هبوطا خيفا وزراعة الحبوب خصوصا القمح والشعير منتشرة في كثير من بلاد فارس خصوصا خراسان وقد يزيد المحصول على حاجة الناس لكن رداءة طرق المواصلات وغلوها توقف تصديره وتجعله كثيرا رخيصا في بلد وشحيجا غاليا في مكان آخر أهله يتضورون جوعا لذلك اضطرت الحكومة أن تحتكر الحبوب في بعض الجهات وهي تتقاضى ضرائب الارض حبوبا في بعض الاحيان وبذلك حفظت أثمان الحبوب عند حدها المعقول وقاومت المجاعات التي كانت تفتك بالناس من قبل فتكا ذريعا وقد أقامت مخازن للقمح في البلدان الكبيرة لمقاومة

ذلك والعادة أن الناس هناك يأكلون خبز القمح ممزوجا بالشعير أما في مناطق
الشمال على مقربة من بحر الخزر فالارز عمادهم ومن النبات الكثير النمو
هناك الطباق والفاكهة والتوت لتربية دود القز ويزرع قصب السكر حول
بحر الخزر والبنجر في جهات عدة فالزراعة الآن هي عماد البلاد والصناعة
في بدنها وتحاول الحكومة رغم فقرها أقامتها مقتفية أثر اليابان في ذلك
خصوصا مصانع النسيج وتجهيف الفاكهة والسكر ولا يزرع من أراضي
العجم أكثر من عشرها فقط وفوق نصف المساحة كلها لا يصلح حتى للدراعي
الفقيرة اذا فرضنا أن رأس الغنم يحتاج الى ثلاثة أفدنة فقط أما الاغنام
ذوات الذنب المنتفخ الغليظ الذي يزيد وزن الواحد على ثمانية عشر رطلا
أو اخر الربيع فيلزم للرأس منها عشرة افدنة في العام ومع ذلك ترى الاذئاب
ضامرة جدا في فصل الشتاء وكنا نرى من هذه الكثير في سيرنا والرعاة
ربع سكان العجم وهم طبقة مغيرة يخشى بأسها وبخاصة اهل خراسان
ومثلهم مع المزارعين مثل الذئاب مع الحملان والاراضي غالبها في ملكية
طائفة قليلة من الملاك لكنهم يحسنون معاملة المستأجرين لقلة الايدي
العاملة والملاك هم الذين يقدمون الماء والبنور ويدفعون الضرائب مقابل
استيلائهم على نصف المحصول والزراعة على قلتها عماد ثروة البلاد رغم أن
المزارع يغالب الطبيعة القاسية

فطر البلاد نادر وثلجها لا يسقط الا في الشتاء والربيع وبفضله امكن الزرع
ولما كان المطر غير ثابت أثر على الينابيع والمجارى في الجهات الخصبه لذلك

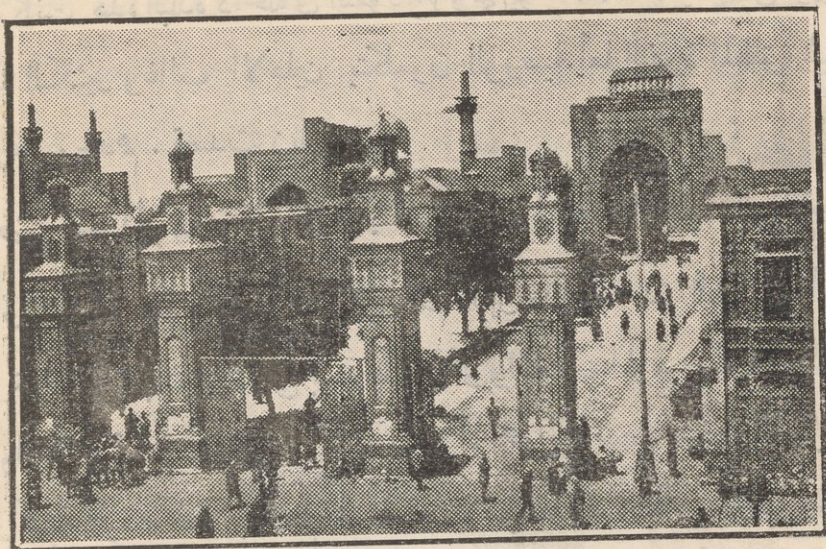


في خيابان بهلوى اكبرشوارع مشهد الى جوار صديقى السورى

لا تكاد تزرع الاراضى الصالحة الا مرة كل خمس سنين فى المتوسط ويخال
البعض ان طريقة الزراعة (البعلى) تفيدهم كثيرا لو لجأوا الى استخدامها
وحالة الفلاح هناك لا بأس بها يسكن بيوتا من الطين وغذاؤه القمح
والجبن واللبن الحامض ويسمونه (دوك) وفى الصيف يستهلك قدرا كبيرا
من الفاكهة والخضر أما اللحم فمرة كل أسبوع فى الشتاء فقط . وأحسن
الطبقات حالا التجار وهم معروفون بالمكر والدهاء حتى جرى المثل قائلا :
ارمنى واحد يغلب عشرة من الاغريق لكن فارسيا واحدا يلعب بعقول
عشرة من الارمن

استوققت السيارة قليلا في نيسابور مثنوى رفات (عمر خيام) الذى عاش فيها فى الربع الاخير من القرن الرابع عشر وأوصى أن يدفن فى بقعة تظللها الاشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت قبره وسط الحقول تظله حقا أدواح عالية قديمة وبجانبه قبة أنيقة عنى باقامتها ونقشها العناية كلها فخلتها له واذا هى مدفن محمد المحروق من سلالة الحسين وقد أسموه بالمحروق لانه نزل ضيفا على أحد سرات القرية ولما أن خيم الليل اعتدى على بنت مضيفه فأحرقة الناس فى مكانه هذا ورغم جرمه هذا شيد قبره وقدمه الناس لانه من سلالة طاهرة ! ويزور الخيام من الاجانب خلق كثير لانه قد خلد ذكرا بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس الى جميع اللغات ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهمهم اياه بالزندقة لانه كان إباحيا فى شعره والحكومة تتنوى اقامة بنيان يلىق بمقامه لكنها لا تزال تخشى غضب رجال الدين . عادت الربى فتسلقناها ثم اشرفنا على مشهد وهى فى حجر الجبال بعد ان لبثنا فى الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيرا . هنا وقف السائق ونبه القوم أن هاهى مشهد فارقبوها تبركا فأخذوا يحاولون رؤية القبة وسط الضباب والدخان المنبث وكل من لمح منها قبسا قرأ آيات التبريك وعمد الى قطع الاحجار يجعلها فى كومه ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر

مشهد مقدس : (طوس قديما) دخلنا مشهد تحفها المزارع والبساتين وهى فى منطقة غنية بالفاكهة وبخاصة العنب ويسمى (أنجور) والخوخ واستوقفنا



المدخل الرئيسى للحرم الشريف فى مشهد

البوليس لفحص الجوازات وقد تكرر ذلك فى الطريق اكثر من عشر
مرات ثم أخذنا نخترق طرقاً فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المباني الحديثة
الوطيئة وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس لكن يد
الاصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت فى طهران وقد حلت نزل (مهما
نخانة ملي) وهو جميل نظيف وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية
بعظيم امتداده وهو اثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر
على البلاد حتى قال القوم بأنه حدث مرة أن حاول بعض الناس ان يعلو

ولد بها الغزالي والفردوسى صاحب الشاهناة

جبناء بيته الملاصق لها فمنعه القنصل اذ لا يجوز كشف حرمة الدار الانجليزية
وقد كانت هذه البلدة داخلة في النفوذ الروسى يوما لذلك لاقيت من الروس
هناك الكثير وغالب الاهلين يتكلمون الروسية أما النفوذ المطلق اليوم
فللفرس وحدهم . قصدت زيارة :

ضريح الامام الرضى : الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من
أميال واذا المسجد والحرم فاخر الى حد كبير مداخله عدة الباب تلو أخيه
فى زخرف جذاب وفن شرقى بديع بالقيشانى والبلور والمرمر والرخام وأمام
كل واجهة رئيسية - وهى أربع - هو (أو صحن) مربع تحفه الحجرات
المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها
الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والاحذية وما آرب أخرى والباب
الرئيسى للضريح يكسى كله بالذهب الخالص فى فجوات وتعاريج جذابة
وفوق الضريح قبة تكسى بالذهب الخالص وللمسجد مئذنتان دقيقتان عليهما
غشاء من ذهب الى ذروتيهما أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك
فحدث فى دهشة فائقة . كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقا بينهم ومنهم
المثقف أنيق الهندام والمتسول البائس فى الخرق البالية والاقذار التى يشع
منها الوخم وينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا .
هذا الى العلماء فى عبااتهم ومهائمهم السوداء للشرفاء منهم والبيضاء لغير
الشرفاء يخضبون لحاهم المرسله بالحناء ومن زوار الاجانب خلق كثير عراقيون
وهنود وافغان ومن كافة العالم الاسلامى والى جوانب الجدران كلها يرتقى

الكثير في خمول زائد وجلهم بمن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم
ويتوسط أحد الافنية سبيل مذهب أنيق في داخله نافورة حولها السلاسل
تحمل العقاب للحتسين ويشرف عليهم كهيل توقد حوله الشموع صباح
مساء وبين آونة وأخرى يمد (مغرفة) يحرك بها الماء والسعيد من استطاع
أن يتذوق هذا الماء الطاهر ويسد الجماهير المكان سدا .

أخيرا دخلنا باب الضريح الفضى واذا المدفن وسط شبك
الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة وقد أتممت طوافي حوله في
ثلث ساعة كدت اختنق خلالها من كثرة الزحام وهنا رأيت عجبا نواح
وصياح ولطم وتقيل واستلقاء على الارض ولمس للاعتاب بالحدودوما ألى
ذلك مما تقشعر له الابدان . هنا أسرع شيخ يطوف بي وناولني أدعية
مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع واسجد وأقبل فأسرعت بالتخلص منه
يفضل زميل فارسى عرفته نخطب المطوف قائلا بانى عالم قارىء خير بكل
أولئك وقد علمت بعد أنى لو رفضت الاذعان للامر وحدى لظن أنى ملحد
بولكانت ما لا تحمد عقباه . خرجت الى الفناء واذا فى كل ركن من أركانه
عالم يرتقى منبرا وحوله خلق كثير جلوس على الارض فى وجوم وشبه
ذهول وهو يقص عليهم أبناء على والحسن والحسين والاسرة الشريفة كلها
وجميعهم يبكون وكلما أشار فى قوله الى الفاجعة صاحوا عالياً ولطموا
جباههم وخدودهم فى فرقة مؤلمة ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز
والكهل الفانى والمثقف والامى الجاهل وكنت أعجب لسيل دموعهم



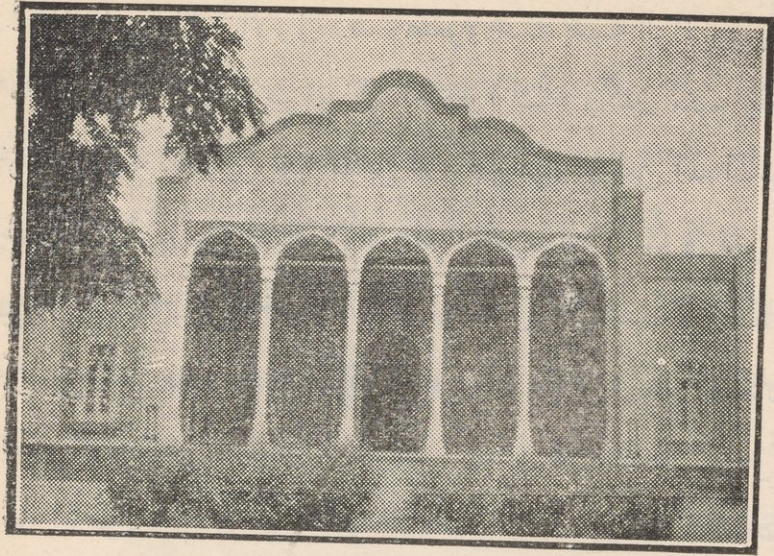
في داخل الحرم يشقه مجرى الماء

وبكائهم المر وذاك التبشير يظل طوال اليوم في جميع أركان الافنية وما أن
أوشك الغروب حتى سمعت من شرقة الباب الاوسط طبولاً تفرع في نقرات
مثلثة ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات من أبواق طويلة مزعجة وظل ذلك
حتى غربت الشمس فكأثمهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذي يدخل
الرهبنة ويلقى الرعب في القلوب وفي وقت الاذان ترى عددا كبيرا كل يصيح
في ناحية ثم تقوم الصلاة ويجلس صبية صغار على المنابر يصيحون بعبارات

التبليغ والقوم يصلون . جهل فادح واعتقاد في الترهات والبدع ما كنت
أخاله بلغ هذا الحد فكأنهم يعبدون الرضى من دون الله فنامر من الابواب
مفرد كائنا من كان الا واجه الضريح وانحنى وتمتم ثم قبل الباب وانصرف وهم
يرمونه وشدرا كل من جاز الباب من الغرباء ولم يفعل ذلك . فقلت في نفسى
أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء من أفراد الشعب لا ابتغاء
مرضاة الله بل للملء جيوبهم هم وذرائعهم الذين لا يحصيهم عد ؟ وهل خلقنا
للبكاء والعيويل واهاجة الشجون بتكرار أقاصيص ما أنزل الله بها من
سلطان ؟ تأخر معيب وتدهور يعطى الأجنبي عن البلاد أسوأ الفكر وحتى
تقضى حكمة الشاه على كل أولئك سيظل حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد
وبجوار المسجد مكتبة حوت مجموعة قيمة من المخطوطات في سائر العلوم
الاسلامية حتى قالوا أنها أكبر مكتبة اسلامية في الدنيا وفيها بعض المصاحف
يخط سيدنا على نفسه . وفي وسط أحد الافنية مصلى يسمونها جوهر شاه وكانت
بيتا لسيدة اسمها جوهر فلما أراد الشاه اقامة المسجد رفضت أن تتبعه إياه
فتركها لها وأقام مسجده حوله وبعد اتمامه اقامت هي في مكان منزلها مصلى
ولذلك سميت (جوهر شاه) ويؤدى كثير من أبواب الحرم الى أسواق مشهد
المسقفة المتوية وهي من أجمل أسواق فارس ويحرم على غير المسلمين دخولها
لأنها داخلة ضمن الحرم المقدس وارضه مقدسة ولجرد الشك في شخص
غريب ينهالون عليه ضربا مبرحا وكثيرا ما مات من الغرباء لهذا السبب وكم
من مرة سئلت ان كنت مسلما ومن أية ولاية جئت فكنت اجيب (بلى مسلم)

وكان بعضهم يعود فيسأل (مسلم شيعي ؟) فأعيد الجواب (بلى مسلم) وهم
يمقتون السنين مقتهم للكفار وكلها شرب أحدهم قال (لعن الله عمر وبنى
أمية) اذ يكرهون اسم عمر جدا وأكثر الاسماء بينهم ذيو عا حسين ثم
حسن ثم علي ثم محمد . عصبية عمياء وایمان في غير تفكير ولا تعقل . ویناهز
الحجاج الى المكان سنويا الملايين وبخاصة في شهر رجب وعربات نقل
المسافرين لا تغيب عن العين ساعة واحدة

أخذت أتجول في القسم المستحدث من المدينة وهو جميل طرقة فسيحة
يجانبها الشجر وتجرى الى جوارها قنوات الماء وتقوم عليها المباني
الوطيئة وهناك بعض متزهات لا بأس بتنسيقها تكتظ بالمتريضين في كثرة
هائلة ومن بينهم كثير من المتبدلات اللاتي يفقن الرجال عدا وكنت
أخال ان للرضى حرمة تمنع ذلك لكن يظهر أن الحالة الاجتماعية في فارس
كلها هكذا وحتى في النزل لا تخلو حجرة من الخليعات يحتمس الجميع
الخمر وكانوا يدهشون لي كيف أنام في غرفتي وحيدا وحتى في الحرم
الشريف يقصد الرجل ورفيقته الى الفقيه العالم معلنين إياه أنهما يريدان
زواج المتعة (أو الصيغة) ليلة واحدة او اثنتين مقابل كذا فيقرهما ويعد
الامر بعد ذلك مباحا وقد بدا لي أن غير الرجال على نساءهم تكاد تكون
معدومة فكأنه يحل لها بعض ما يحل لنفسه والأمراض السرية لا يكاد يخلو
منها أحد وجل موتى الغرباء بسبب (الزهري) وقد حاولت الحكومة جعل البغاء
رسميا في مناطق معينة لتخفف من ويلات تلك الاباحة فلم يقبل علماء
الدين ذلك



مدفن نادر شاه في مشهد

قصدت زيارة الحضرة يوم الجمعة فكم ان الزحام فوق كل تصور وحاولت دخول الضريح فلم أستطع لأن أرضه فرشت بالزائرات بحيث لم يبق موطيء قدم وكان يسير في الطرقات كثير من المهرجانات يصيح الصبية حولها احياء ليوم الجمعة وبأيديهم الاعلام وبعد صلاة الغروب أخذ العلماء يقصون على الناس نبأ فاجعة علي والحسين والجاهير حولهم عرايا الصدور يضربونها بأكفهم تارة وبسلاسل ثقيلة تارة أخرى وفق نغمات موحدة في شكل بشع مرعب وهكذا تتحكم الشعوب في قلوب القوم تحكما معيبا . حاولت دخول الضريح رغم الزحام الكثيف لأرى قبر هرون الرشيد الذي علمت أنه

بجانب قبر الرضى نفسه غير أنى رأيته منبوذا في ناحية غير ظاهرة حتى
انتى لم ألاحظه في المرة الاولى وقد وضعوه بحيث يلبسه الزائرون بأدبارهم
عند ما يطوفون حول الرضى وذلك احتقارا لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد
الزيارة ويرفسه برجله ووجهه مقابل للامام ويقول (لعن الله المأمون
وأباه) وذلك لأنه سنى أولا ولأنه والد المأمون الذى اتهم فى دس السم فى
الغيب للامام ثانيا وقد سافر الرشيد الى هناك فى حملة ضد أحد الحكام الذين
مالاوا بنى أمية فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن فى هذا المكان الذى
أقام عليه الاسكندر المقدونى علما وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم
ولما جاء المأمون ولى الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله ولما عاد الى
بغداد وهزم أخاه الامين وتم له الأمر دس للرضى فمات ودفن الى
جوار الرشيد

وعند مدخل المسجد مكان القصاص لمن أذنب داخل ارض الحرم والحكم
لرئيس الحرم فكانها حكومة وحدها فى خارج الباب مضيقة يعد فيها رئيس
الحرم طعام الغداء يوميا لمن طلب من الغرباء ذلك . وقد مات أحد العلماء
ويسمونهم (مولاة) فكانت جنازته مهيبة وفى صباح الجمعة قام عالم يؤبته
ومن دونه الجموع المحتشدة جلوس على الارض ليكون وكانت عبارات
التأبين من قصة الحسين أيضا وعلمت أنه منذ خمس سنين فقط كان اذا مات
أحد العلماء وجب تعطيل مصالح الحكومة واغلاق المتاجر والبنوك ثلاثة
أيام كاملة

وللا مام الرضى من الاوقاف شيء كثير فكل المباني التي تقع في الحى كله ملك له هذا غير الاراضى الزراعية والهدايا الشمسية التي تقدم اليه فكلما مات غنى أو وقف جل ماله عليه وفي أحد أبواب المسجد فيروزة معلقة في حجم بيض النعام يقولون بأنها لا تقوم ويقصون عنها من الخرافات ما لا يقبله العقل ، فمثلا لما احتل الروس البلدة ابان الحرب الكبرى ربطوا خيولهم داخل (الصحن) و ضربوا القببة بالقنابل فلم تصبها وحاولوا ضرب تلك الفيروزة مرات فطاش سهمهم وحجر الفيروز كثير هناك ومناجمه في قرية فيروز آباد في جنوب شيراز وفيها جبل جل كتلته من الفيروز على اختلاف طبقاته

والحى الذى حول الحرم كله محرم على غير المسلم تطوقه السلاسل عند مداخله وكثيرا ما كان يلجأ اليه المجرمون والقتلة والمدينون ليحتموا فيه فترفع عنهم العقوبة ما داموا داخله

والذى شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدسة الشاه عباس اكبر الصفويين هناك وعاش أوائل القرن السابع عشر وكان عصره ثالث العصور الذهبية في تاريخ فارس كله. صرف قومه عن زيارة مكة المكرمة لكرهتهم للعرب ولكي يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة في بلاد يكرهونها وكثير من الحجاج كانوا من السراة . فاتخذ مشهد كعبة وجه اليها الشعب ولكي يزيدا قدسية حج اليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافة تتفوق ١٢٠٠ كيلومتر فتحول اليها الناس جميعا ويندر من يزور الحجاز اليوم



الموسيقىات المتجولات (والتارة) احب الآلات الموسيقية عندهم

وهم يحترمون كلمة (مشهدى) عن كلمة (حجي) لان من زار مشهد لا
شك أكثر قدسية واحتراما ممن زار مكة ! وكم كنت أسمعهم ينادون بعضهم

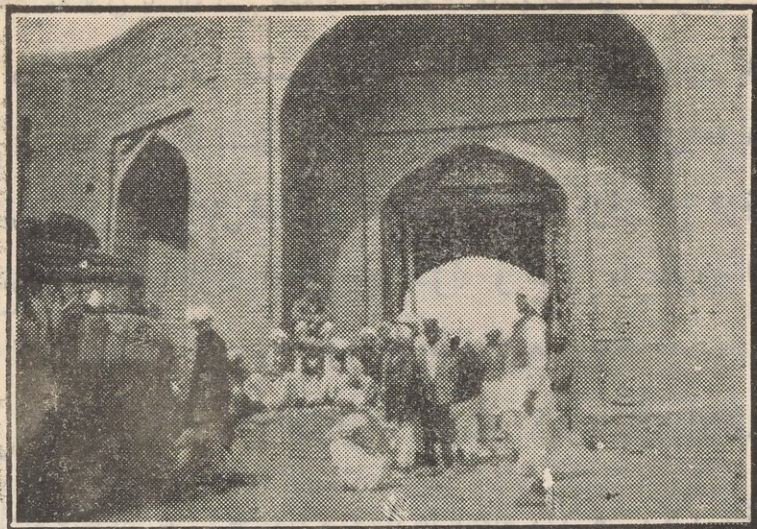
باسم (مشهدى فلان) حتى فى مشهد نفسها

وقد لاحظت من بائسى الروس هناك عددا كبيرا رجالا ونساء وأطفالا

وكلما دخلت (النظمية) مقر البوليس وجدت مهاجرين منهم وافدين من بلادهم هروبا مما يقاسونه من مفضض الجوع والبؤس وأنت ترى الفتيات يجلسن على جوانب الطرق تفرش كل منديلا أمامها لتستجدي المارة وكثير من الفرس يتزوج من الروسيات وغالب خدام النزل منهم . وقد زرت مدفن (نادر شاه) الذي مدفون في بلاد الهند وأخذ من الاسلاب القيمة شيئا كثيرا من بينها عرش الطاووس الذي لا يزال يعرض في قصر جولستان في طهران وعليه توج الشاه الحالى والمدفن يقوم وسط حديقة فسيحة تحوطها الاسوار العالية وتكاد تكسوها الادواح الكبيرة. وملاهي القوم قاصرة على المقاهى ودور السينما أما الراديو والتشيل والمراقص فنادرة وموسيقاهم شرقية بحتة وهى أقل تشديدا من الموسيقى التركية وأحب الغناء ما كان صيحات أشبه بأغنية الفلاح المصرى وهويسقى زرعه بالعود فى صعيد مصر وغالب الانغام من (نغمة العجم) مما يؤيد أن هذه البلاد هى أصل تلك النغمة وأحب الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه (تاره) ذو أربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع ولا تشد عاليا ورقبته بالغة الطول وهى مقسمة بأربطة وبطن العود (القصة) دقيقة الوسط منتفخة الجانبين وهى أصغر من (قصة) عودنا ونغمته مطربة بين (المنديلين) و (الطنبور) والدف والناي مستعملان بكثرة والسكان على قلته

وحساب الايام عندهم شمسى يقسمون السنة الى اثني عشر شهرا كل شهر من الستة الاولى واحد وثلاثون يوما ومن الثانية ثلاثون وعامهم

هذا هو سنة ١٣١٢ وبدؤة الهجرة النبوية على أنه أفترق نحو أربعين عاما بسبب زيادة أيام السنة القمرية وأسماء الشهور متفقة مع البروج الفلكية (الحمل والثور والجوزاء الخ) بأسمائها الفارسية التي ترجمت عنها الى العربية ويكتبون برج كذا بدل شهر كذا وهم يحتفلون بأول السنة وهو أول يوم في الربيع ويسمونه النيروز (نومعناها جديد و روز يوم) وفيه تعطل الاعمال ومصالح الدولة أسبوعا ويظل الاحتفال في البلاد نحو عشرين يوما ويرعاه المسلمون والزردهشتيون ويرجعونه الى عهد جمشيد الاكبر الذي حكم قبل الطوفان ويقولون عن هذا الملك أنه عاش سبعمائة عام وفي السنة الاخيرة من عمره بلغ قوة الآلهة فأرسل صورامنه ونصبا له في جميع الجهات ليعبدها القوم وفي العيد يلبس الناس زينتهم ويروون قصص زهرا ب ورستم وكوش على مسمع من الاطفال . أما شهرا محرم وصفر فأيام حداد لا يدار فيها لهو ولا موسيقى ويحيون لياليها بجلسات الحداد يستمعون لقصص على والحسين وهم يبكون وغالب البيوت تراعى ذلك ليلة الجمعة من كل أسبوع حتى في غير هذين الشهرين وفي يوم عاشوراء (العاشر من محرم) تقام حفلات في البلاد كلها لمأساة الحسين فنقرع الطبول وترفع المشاعل ويسير الجماهير ويضربون صدورهم وجباهم بالسيوف والسلاسل واذا سار الموكب جرى ببعض الخيل والبست أردية بيضاء وجواد الحسين عليه ثوب خضب بالدماء تخرقه السهام ومن خافه الحسين والعباس وباقي أفراد العائلة المقدسة على الخيل في كامل أسلحتهم ومن ورائهم الناس في أردية خضراء ويلى ذلك هودج يمثل حجرة الزواج لقاسم الذي كان زفافه ليلة الفاجعة وكان



كبار الحكام في (أسلام قلعة) يشرفون على تفتيش متاعنا على حدود أفغانستان

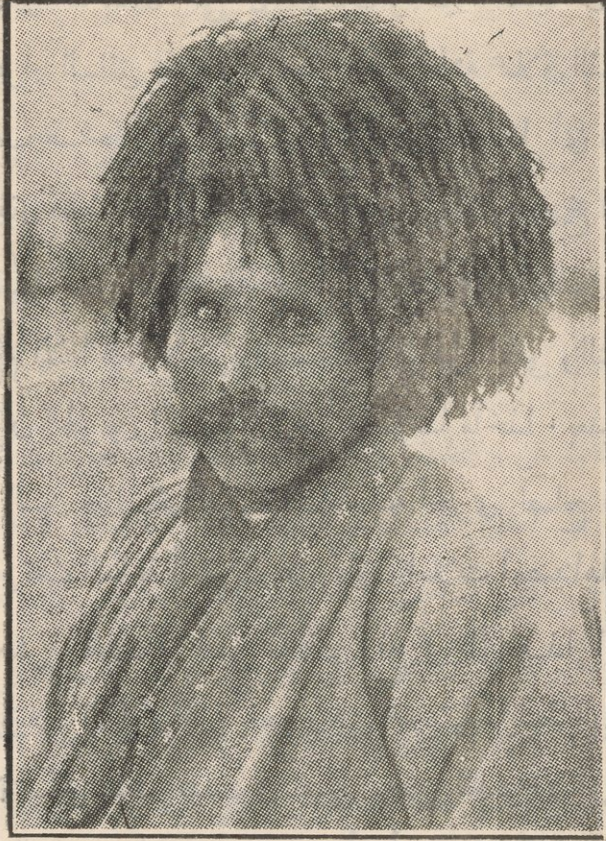
عبد الله رضيعا لذلك يحمل في مهده وحواله أطفال يركبون الخيل وبعد ذلك جماهير حملة السيوف والسلاسل ثم من ورائهم (شمر) اللعين الذي قتل الحسين ومعه أتباعه في أردية حمراء وتنتهي الحفلة بتمثيل موقعة كربلاء والقتال بين الفريقين ثم تحمل جثة الحسين والعباس وعبد الله وغيرهم وأيديهم وأرجلهم مظلة من ثيابهم تقطر دما وترفرف على جثة الحسين حمامتان مخضبتان بدم وتقول خرافاتهم ان الحمام هوى على جثة الحسين يبكي فتخضبت أرجله بالدم ولبس الحداد في رقابه ولذلك نرى أرجل الحمام حمراء ورقابه يطوقها السواد والى جانب الجثة تسير فتاة تمثل بنت الحسين وقد نقشت شعرها ولطخته بالعشب والوحل وكثير من المشيعين يحملون يدا مبسوطة هي

شعار الشيعة لان يد العباس قطعت وسقطت مبسوطة على الارض - لذلك كثيرا ما كنت أرى من المتسولين المشعوذين في فارس يحملون يدا من صفيح على عصى طويلة يستجدون بها - ويحمل رجل عصى من حديد تتدلى منها أشرطة من قماش تمثل لسان (شمر اللعين) وقد مزق كل ممزق وكل من قطع واحدا منها باركه الله وأجاب سؤاله وكثيرا ما يمثلون الفاجعة برواية تعرض على المسارح ويحضرها الاطفال جميعا

من خراسان الى افغان : اعترمت زيارة بلاد الافغان

ورغم ما سمعت هناك عن وحشيتها وافتقارها للنظام والأمن وكان الظروف جميعها تضافت على تعطيلي فقد لبثت أربعة أيام وأنا أنتظر قيام سيارة الى هيرات وكل يوم يرجئني صاحب (الجراج) الى الغد حتى كان مساء الجمعة آخر ميعاد وعنده رجاني أن أظل حتى الصباح ثم جئت في الصباح أخاطبه تلفونيا فقال عصرا تقوم فاحمل متاعك الينا في الرابعة مساء فكيان ذلك وهناك استبقاني حتى يكمل عدد المسافرين وظل ذلك الى ما بعد العشاء ولما هممنا بالركوب اختلف احدهم وهو أفغاني وأصر أن يجلس الى جانب السائق وهو المكان المعد لي وله اجره الزائد وظلت المناقشات والمحاورات الى العاشرة مساء فغضب الرجل وأضرب عن السفر فقالوا تعال صباحا فعدت الى النزل وأويت ليلتي وفي الصباح لم يكن النزاع قد فض فعرضوا على أن أسترد نقودي لأن الرجل يصر على الانسحاب هو وسبعة من صحبه فقلت هل هذا مقدار محافظتكم على عهدكم ؟ أهكذا تعاملون ضيفا تعطل نحو

السبوع انتظارا لسيارتكم ! فأخذت السائق الحماسة وقال انى أوثر أن أقوم برا ب واحد مثلك على كل أولئك وأخيرا اتفقنا أن نحشر نحن الاثنين الى جوار السائق رغم أن الرجل كبير الجثة عملاق القامة . تحركنا التاسعة ونصف صباحا والمسافة كلها فوق ستين فرسخا أى ما يقرب من أربعائة كيلومتر قطعنا ثلثها الى الرابعة مساء حين وقفنا نستريح فى مسافر خانة بدوية صغيرة بها حجرات محتقة من طين أمامها بستان غير مشذب ولم نجد من الطعام الا الخبز الاسود السميك والبيض المقل والشمام فأكلنا أكلا شهيا لأن الجوع والاعياء كانا قد أخذنا منا مأخذا . بعد ساعتين قلت لهم نستأنف السير فقال السائق سنقف ساعة أخرى نصلح خلالها بعض مافي السيارة وتلك الساعة أسفرت عن ثمان كاملات أمضيها فى هذا المكان الموحش . فقلت فى نفسى ما الذى دفع بى الى هذا المسلك الوعر الممل ! وما الى وبلاد الافغان التى يقصون عن همجيتها ما يثبط العزم ويصرف المسافر عنها ؟ لكن عدت فقلت فى نفسى وهل اللذة الا فى مغالبة ذلك وتحقيق غايى التى وضعتها نصب عيني وهى أن أزور بلاد الارض ما استطعت وهل المرء فى الدنيا الا مجاهد يحاول اصابة هدف جعله قبلته فان وفق أرضى ثورة النفس والا فالخير قصد ؟ سأمضى مهما كان الطريق وعرا مخوفا . قطعنا مرحلة أخرى الى الفجر حين اضطرنا التعب أن نأوى الى خان خرب نمنا فيه على الارض حيث لم يكن ثمة فراش وفى الصباح لم نجد مانسد به رمقنا غير خبز قفار اسود سميك وشاى يعلم الله مبلغ ما حوى من



أعجب ما في التركان تلك القانسوة من جدائل الوبر والصوف

وكانوا خطرا على الامن في طرق ايران وأفغانستان الوعرة

اتربة وأفذار . وقبيل الظهر كسنا في الجمرک الايراني في قرية كاريز هنا تجلى
اهمال الموظفين وبطؤهم المسم في فحص متاعنا ثم جاءت الثانية بعد الظهر
فذهب الرئيس للنوم تاركا ايانا في مكان قفر ليس به ما يقي وهيج الشمس

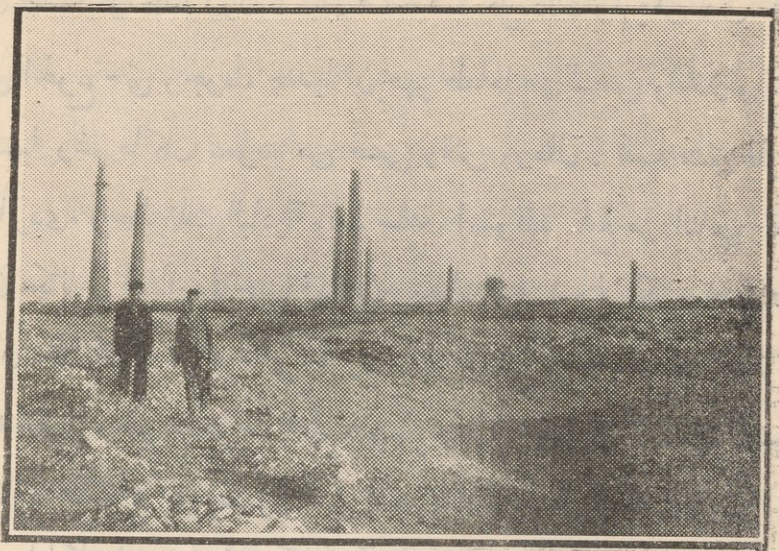
ولا غبرة الجو ولم تمض الجوازات الا عند الغروب وكان يطالب القوم
بنقود وهم يرجونه تخفيفها وأخيرا قبض منا ما تيسر ضريبة غير مشروعة عيانا
بعد ذلك تهامس السائق وبعض الركاب قائلين بان الافضل امضاء الليل
هنا فثرت محتجا وقلت كفى ابطاء وعطلا فالمسافة كملها كان مقدرها لها يومان
وها قد مضى اليومان وبقي فوق ثلث الطريق قالوا اننا سنقضى الليل في
غير طائل على الحدود الافغانية وهي أمعن في الجذب والوحشة وسوء المعاملة
فأمضينا ليلتنا في ذلك المكان القفر وجوت صاحب الخان أن يمدني بفراش
على (مسطبة) في الشارع لان داخل الخان قدر لا يطاق فقعل ونمت نوما
عميقا وفي باكورة الصباح قمنا الى الحدود الافغانية في اسلام قلعة

افغانستان

أرض الجبال

أسلام قلعة : وصلنا الحدود في ساعتين عندها مخفر فارسي أبرزنا
له جوازاتنا ولم تمض الا بعد أن عززناها بقروشنا ثم دخلنا القلعة واذا
اسمها أكبر منها وهي عبارة عن بناء كبير خرب أقيم من الآجر كنت أخال
حولها مدينة فأذا بها تقوم وسط صحراء مجدبة يكسو أرضها الحامول والعاقول
والهالوك اليابس وقد كانت من قبل تسمى (كافر قلعة) يوم كانت ملكا

لفارس وكانوا يطلقون عليها ذلك الاسم لاعتقادهم أن الشيعة من الفرس
كفار ولما أن ضمها ملك الافغان السابق (أمان الله خان) لبلاده أسماها
(اسلام قلعة). وقفنا وسط تلك الصحراء أو الداشت كما يسمونها أمام مدخل
القلعة وكان يتقدمها بعض الجنود في سراويلهم الفضفاضة تكسوها الى الركبتيين
جلايب طويلة وعمائمهم الطويلة في شال ممدود تترك منه ذوابة خلفية هادلة
الى العجز. طلبت لقاء رئيس القلعة فدخات اليه في غرفة تفرش بالبسط وهو
ووكيله جلوس على الارض فسلمته خطاب التوصية الذي حملته من سفارتهم
في طهران بعد أن عاوتني في ذلك مفوضيتنا العامرة هناك فأشار أن أجلس
وأشرب الشاي. والرئيس ذو وجه مقطب وسحنة غاضبة أمي لا يعرف القراءة
لذلك ناول الكتاب لوكيله الذي أطلعه على ما فيه . طاف الغلام علينا
بأقداح الشاي الاخضر وناول كلا منا بعض فئات السكر في أيدينا كي نلقي
بقطعه في أفواهنا ونشرب وراءها الشاي وكلما فرغ القدح عاد فلاءه لنا
جميعا رغم اني كنت أشير بأني اكتفيت ولا أستطيع المزيد فكرر ذلك
الى القدح السادس وهنا أضربت عن تناوله فبدت عليهم علامات التأثر
وعلمت بعد من السائق أن من الواجب على أن أبقى في القدح بعض الشاي
ثم أنسكسه بما فيه فوق الطبق علامة الاكتفاء . نزلنا لفحص الامتعة فأقبل
جمع من الموظفين والرقباء بعمائمهم المتفخخة وأحذيتهم الملتوية في ذوابات
رفيعة ومقوسة امام الحذاء وخلفه وجلس الجمع على الارض ويبد كل ورقة
ثم أخذ الجند يحملون المتاع من السيارة قطعة قطعة ويفتشونها بكل دقة وبطء

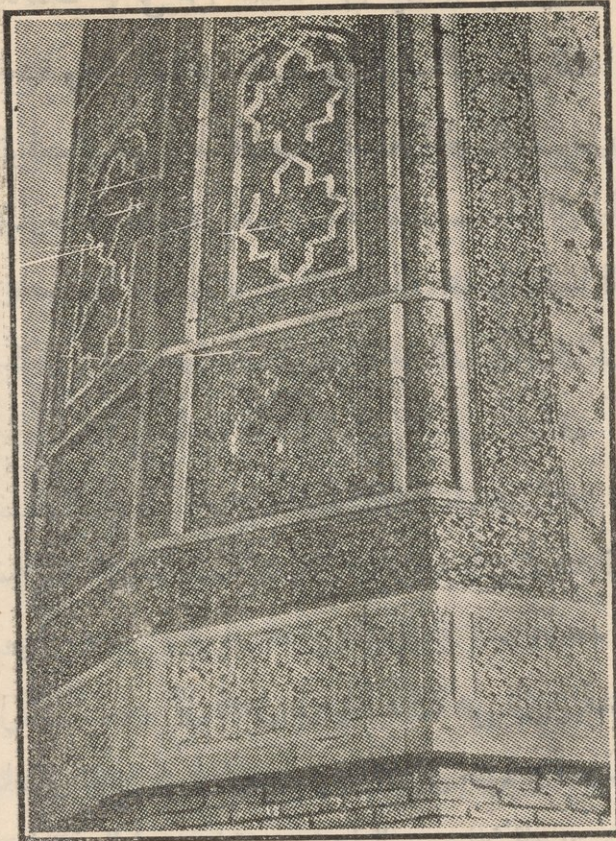


تلك القبة والمآذن السبع بقايا مساجد العباسيين في مدخل هيرات

وكلما وجدوا شيئاً غريباً أو جديداً أمسكوا به وأداروه عليهم جميعاً وأخذوا يقصون حوله الاقاصيص في بطاء عجيب حتى اننا لم نفرغ من هذا العمل إلا بعد ثلاث ساعات . قلت لهم فقد تم كل شيء قالوا انا ننتظر الجوازات ولبثنا على تلك الحال النهار كله الى الرابعة مساءً وخلال كل ذلك كان يطالب المسافرون بنقود دفعوها أربع مرات لاشخاص مختلفين والجدل والمساومة والممانعة في تسليم الجوازات كانت علانية . وكلما وجد جنودهم شيئاً يروقهم من متاع المسافرين أخذوه ثم تكون مجادلة بين الجندي وصاحب المتاع حتى يتفقا وقد أعجب جندياً أبريق من نحاس لكن صاحبه

استعادته وهو غاضب ولما وضعه في السيارة وأوشكت أن تستأنف السير أقبل
الجندي خلسة وأخذه دون أن يعلم صاحبه . كل ذلك ولم يكن لدى طعام
فأمدني الجوع حتى رجوت جنديا ان يجهمز طعاما من البيض والخبز والشمام
فكان شهيا رغم ما كان يسوده من حصى وقش ورمال . قمنا نشق طريقنا
الوعر الرديء وسط تلك البادية وبعد ساعة استوقفنا جمع من الناس غفير
يريدون مكانا في السيارة لاحد (الملاه) رؤساء الدين . ولا يمكن رفض ذلك
والا كان مالا محمد عقباه فأخلى جارى مكانه للشيخ وأخذ الجميع يتكاثرون
على يديه تقييلا رغم شيخوخة الكثير منهم وطول الحام التي نال منها الشيب
(والمولاه) هناك هم المسيطرون على اذهان الناس وهم اكبر مقاما وانفذ
كلمة من الحكام انفسهم وكان كلنا رأنا احد في الطريق يحيي الشيخ ويظهر
له الخضوع والاحلال وقد كنت اتفاهم مع الشيخ بصعوبة وهو من عائلة
(المجددى). وطبقة (الملاه) يكادون يقسمون البلاد فلكل ناحيته التي يطوف
عليها بين آن وآخر ليقوى علاقاته بالناس ويتقاضى حقوقه الواجبة عليهم
قبله. لبثنا نسير في تلك السهول الصحراوية تحفها على بعد سلاسل جبلية وطيبة
ولم يتغير المنظر منذ خروجنا من مشهد اذ غالب ارضه مهملة مبسوطه وحيثما
يظهر الماء القليل تقوم القرى الصغيرة وكثير منها بالطين في صفوف من الاقية
(كالقطاطى) وكثير من سقوف الافغان مسطحة وقد مررنا بقرية جل اهلها
من مهاجري التركستان الروسية هروبا من جور الروس وكان رجالهم وصيتهم
يحاولون التفاهم بصعوبة لانهم يتكلمون الروسية فقط . كانت التاسعة مساء

وبينا نحن نتحدث عما بقى من المسافة الى هيرات مبتهجين لأنها لا تجاوز الساعة الواحدة واذا بالسيارة تقف فجأة والسائق يعلن نفاد البنزين فكنا نضعق لان الوقت ليل بهيم والمكان مقفر مخيف والجوع عاصف مترب كادت الريح ان تقلب السيارة على ثقلها - وشهور آخر الصيف وأوائل الخريف ريحها هناك شمالية عاصفة لا تكاد نحتمل في بلاد الافغان جميعها - لبنا الليل كله ولم أنتقل من مكاني بالسيارة وصغير الريح وشدة البرد وكثرة التراب لا تحتمل وزادها ضغثا أن زجاج نافذة السيارة كان مكسورا وأنى كنت جائعا خاوى البطن لأننى كنت أتوقع تناول العشاء فى هيرات . رأيت كيف يتعرض المسافر فى تلك البلاد للأخطار وضياح الوقت ؟ يعتزم السفر والعودة فى ميعاد محدد ويؤكد القوم ذلك واذا بالساعة عندهم يوم واليوم شهر . ويخيل الى أن وسائل النقل الرديئة هناك هى التى ولدت فيهم عدم احترام الميعاد أو تقدير قيمة الزمن ، ترى السائق منهم وأنت تستعجله السير يلاقى زميلا له فى الطريق فيقف وتبدأ السير والأقاصيص بينهما وهو لا يقدر مسؤولية قط يقف بسيارته حيث كان وسط القفر من سهل وحزن غير أن تلك الوسائل على ابطائها الممض اليوم خير من الابل والحمير والبغال التى كانت تقطع تلك المسافات فى شهور وكنا نمر بها فى سيرها الوئيد ليلا ونهارا فى قاطرات طويلة تحمل المتاجر وتسدلى من رقابها اجراس ثقيلة لتنبه عن وجودها . أخيرا قدر لنا ان نصل هيرات صباحا وقد مرت بنا سيارة صغيرة حملت لنا ما أعوزنا من بنزين فاذا هيرات (أو هرات)



تكسى المآذن القديمة في هيرات بذاك الابداع الفنى من القيشانى رائع الالوان
بلدة حقيرة على عظيم امتدادها في حوض جبل يكاد يطوقها وتحفها المزارع
الممدودة، مبانيها باللبن وطرقها خنمقة وفي غير نظام اللهم الا بيوتات علمية القوم
التي اقيمت من الآجر الابيض والاصفر وشارعان متعاهدان حديثان
صفت عليهما الحوانيت الجديدة من بقايا ما خلفه الملك السابق (أمان الله خان)
لما ان حاول الاصلاح . أما عن التراب والاوساخ فحدث فهمى اكداس

في كل مكان وأظهر ما في المدينة بقايا مسجد قديم بقبابه ومآذنه السبع التي كانت تكسى بالقيشاني الملون الجميل الى أعلى ذراها بدت مشرفة ونحن على بعد أميال من البلدة . بحثت عن نزل آوى اليه فعلمت أن ليس هناك من أمكنة معدة للنوم قط حتى ولا مسافر خانات فخرت في أمرى وقلت لصاحب (الجراج) أليس لديك مكان أنام فيه ؟ قال (ناخير) أى كلا ، اقصد الى احد علية القوم ليضيفك عنده في داره قلت ألا توجد مطاعم عندكم ؟ فقادنى الى المطعم الوحيد الذى لم يمض على وجوده في ابلدة شهران فاكات فيه ثم رجوت صاحبه أن يعد لي فراشا بسيطا لديه فقال (انجا أغاخوب نيست) أى لا يليق هذا المكان قلت هو خير من لا شىء فزودنى ببساطين (سجادتين) واحد اقترشته عند مدخل المطعم والثانى التحفت به واستخدمت حقيقتى وسادة ولم يكن للدخل باب يحجبه عن الشارع فكنت كانى أنام فى الطريق وكم من مرة كنت انظر فارى جمعا من الناس يقفون وهم يرمقوننى وأنا أقرأ أو أكتب جالسا أو مضطجعا وبعد يومين علمت أن الرجل قد أقام غرفا فى أعلى المطعم لم يكمل بناؤها فرجوته أن أنام فى احداها ولما تدن قد سقفت وحولها أكداس الطوب وانقاض البناء فأثرتها على مكاني عند مدخل المطعم . وهيرات هذه ثانية مدن الافغان بعد كابل وقد علمت أن كابل نفسها وهى عاصمة البلاد ليس بها الا نزل صغير واحد أما قندهار ثالثة المدن فهى شديدة بهيرات تماما . بلاد لا تزال فى معزل عن العالم الخارجى فى كل شىء تعيش على الفطرة التى لم تفسدها المدنية فى زعمهم .

تناولت العشاء وأغرب شيء فيه أن الارز يقوم مقام الخبز تدفن فيه قطع اللحم (الجوشث) والى جانبه بعض الباذنجان يسبح في الزيت (أو الروغان) كما يسمونه . سألت الخادم وكان اسمه (أفغان) أن يقودني الى المراحيض وسرت وراه حتى جاء خرابة مكشوفة على جانب الطريق وقال (أنجا) أى هنا قلت كلا فأنا أريد مستراحا فعلت أن ليس لذلك وجود يقيمون ابنتهم ويغفلون هذا اتكالا على الخلوات والامكنة الخربة وسطوح المنازل وهذه حالهم فى جل بيوتهم الا النادر وفى الصباح أردت الاستحمام فقبل لى اذهب الى الحمام وهم هناك وفى فارس كلها لا يقيمون حمامات فى البيوت مهما عظم شأنها ارتكانا على الحمامات العامة التى لا يطمئن المرء الى نظافتها وطهارتها أبدا على أنهم فى فارس يستعوضون عنها بحوض الماء الذى يتوسط فناء الدار دائما أما فى الافغان فليس لذلك من وجود لأن الماء شحيح ومستمد من الآبار العميقة . طفت بأرجاء البلدة وراقبتى قلعتها المشرفة التى يحتلها الجيش فى هندامه المرقع ومنها أوغلت فى أسواق المدينة (بازار) وهى ضيقة مغلقة مظلمة لكنها بالغة الطول غاصة بالمتاجر وهيرات أشهر بلاد الافغان كلها فى التجارة .

والنساء هناك محجبات لدرجة مبالغ فيها فالازار الخارجى يحكى (الكيس) قد زر عند الرأس بحيث يلبس فيها وهو فضفاض من أسفله وأمام العينين قطعة منه مثقبة بخروق للنظر والتنفس وتحت الازار سروال أسود سميك يتدلى الى الخذاء ويربط فيه فتري السيدة تمشى وهى تدب ديبيا

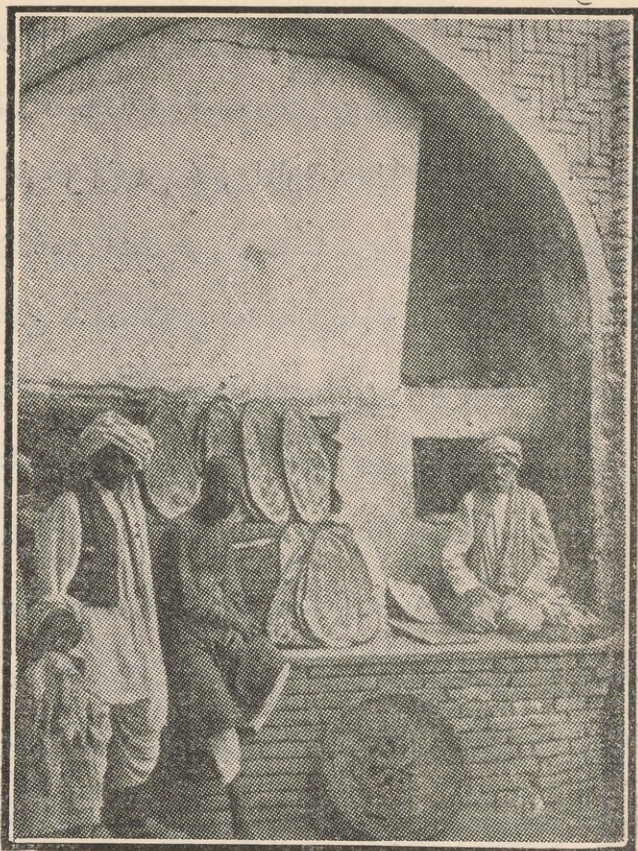


تلى ضريح الفخر الرازي من أكبر منسرى القرآن في هيرات

في كتلة واحدة تسترعى النظر وبقدر ما رأينا من اباحة الفرس كانت الرجعية هنا في أشدها وغالب القوم هنا سنيون يمتنون الشيعة وتصرفاتهم ورغم ان الحكومة اليوم تشجع لباسا للرأس جديدا كأنه قلنسوة يكسوها وبر أو جديل أسود فانك لا ترى واحدا في المائة ممن يلبسونها وكلهم يلبس العمام ذوات النؤابات الطويلة والاحذية العتيقة تنتهي بذؤابتين طويلتين معقوفتين حتى الاغنياء منهم لذلك لم أعجب للانقلاب السياسي الذي

حدث وطرديوا من أجله الملك السابق أمان الله خان فهو لم يفهم قومه قط
اذ كيف ساغ له أن يلبسهم القبعات ويرغمهم على السفور وما الى ذلك مما
أتاه مصطفى كمال ويحاوله اليوم رضا خان بهلوى ؟ هم لا يؤمنون الا
بتقاليدهم ويتمسكون بدينهم في ايمان شديد ويكاد يحكم البلاد جماعة (الملاة)
الذين يجب على الحكومة إرضائهم قبل الشروع في انفاذ شيء جديد
ولم أكدر أرى أجنيا واحدا بينهم ولا غير مسلم ولذلك كانوا يرمقونني
أينما سرت في شيء من الريب ويسألونني (مسلمان) فأسرع بالاجابة (بلى)
وسوادهم أمى وفي جهل عميق وغالبهم يتكلمون بالفارسية وقد ظهر لى أن
جل ثقافة المتعلمين منهم فارسية يجيدون كتابتها ويروون أشعارها وآدابها
وقد نقلوا جل آدابهم عن فارس وفي مدارسهم الساذجة يقرأ الصبية الادب
الفارسى إجباريا وتكاد تكون اللغة السائدة في الطرقات هي الفارسية وكثير
منهم يتكلم الهندوستانية ولغتهم خليط من الفارسية والهندية لذلك كنت
أتلمس فيها الفاظا عربية كثيرة كانت هي وما عرفته من الفارسية عونا لى
على التفاهم بعض الشيء والافغانية الصحيحة يتكلمها أهل قندهار فقط أما
في هيرات وكابل فالفارسية والهندية . وموسيقاهم خليط من الفارسية
والهندية ايضا في نغمات سائغة لآذاننا على انها بدوية والغناء أميل الى الصياح
المرتفع وأحب الآلات الطنبور وآلة أخرى أضخم منه يسمونها (مادام)
والحالة الاجتماعية تثير الدهشة فرغم الحجاب الذى يحوط المرأة فان
الفساد منتشر سرا والامراض السرية شائعة والعجيب ان ذلك يقع

رغم اقامة الحدود فالزاني اذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود أو واحد
يزكيه اثنان محترمان القى علانية من فوق قلعة البلدة الى الاحجار المترامية
من دونها مسافة لا تقل عن خمسة وعشرين مترا ويغاب ان يموت والزانية توضع
في كيس يحوطه الجند ويؤمر المارة برجمها الى ان تموت . واليوم كان موعد
قصاص ثلاثة من اللصوص ثبتت عليهم جريمة السرقة فاحضروا الى السوق
وكان قد أعان مناد ذلك في المدينة ونفذ فيهم قصاص قطع اليد فتقدم رجل
البوليس ولف جبلا حول ساعد الرجل وضغط الرسغ بين عضادتين
من خشب كي يمنع سيل الدم ثم أمسك رجل البوليس بيد
الجاني وأتى الجلاد بالسلاح الحاد ثم شرع يقطع الجلد والعروق في
احتراس وبطء شديد أعقب ذلك ضربة قوية بألة ثقيلة من حديد
فانفصلت اليد بعيدا ثم غمر الجرح على الفور في زيت (روغان) يضطرب
غليانا وقد نفذ ذلك في ثلاثة أشخاص وهم في تألم شديد ونقلوا بعد الى
مستشفى البلدة البسيط حتى تلتئم جراحتهم وقد حاولت أخذ صورة لذلك
فأبدى القوم امتعاضهم فامتنعت واعتذرت لهم وكان يزاملني الدكتور
باشفتس الالماني . والعادة أن السارق لأول مرة يسجن واذا تكررت
قطعت يده ثم رجله والذي يحكم بذلك (المولاه) وهو مفتى الحكومة وطبقة
العلماء هم القوام على القانون في تلك البلاد وقد شاهدت رئيس الشرطة
ونحن في مجلسه مرة يسأل الالماني عما يفعلون لمنع الفساد فوق ما هم فاعلون
اليوم فقال بأن شيئا من الحرية والتسامح في الاحكام خير وأجدى ! وقد



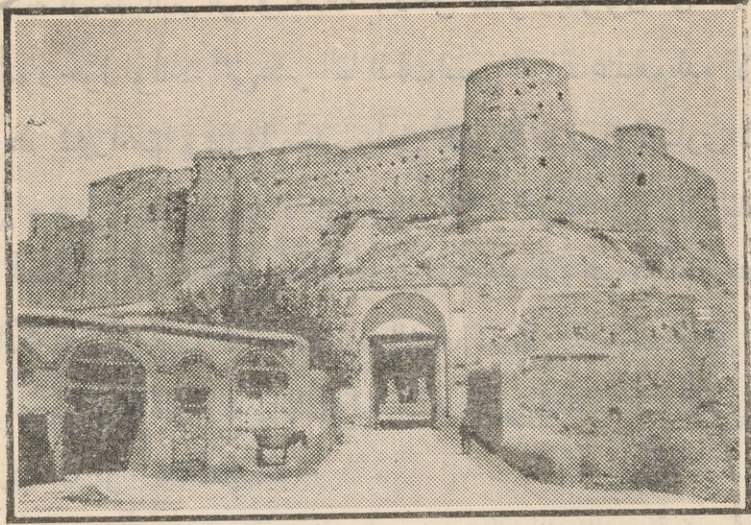
الخبز يعرض في سوق هيرات وكأنه ألواح حجرية مثبتة

اقترح اباحة البغاء الرسمي في مناطق معينة وهو هناك لا يباح قط
وسرني ملاحظته هناك من عدم وجود التسول رغم فقر البلاد وعوز
أهلها مما أشعرنى بأن في نفوسهم شمما يأبى عليهم الاستجداء عكس ملاحظته
في فارس التي يرى الانسان فيها من أمر المتسولين وكثرتهم عجا والحكومة

الافغانية تحرم التسول وتد اعدت (دار ايتام) في البلدة يأوى اليها العجزة
والمعوزون وهناك مستشفيان احدهما عسكري والآخر مدنى لعلاج المرضى
وايوائهم مجانا وتلك فضيلة أخرى . ويلحظ الزائر الفرق الشاسع في اجسام
الناس في تلك البلاد فهى ممتلئة تبدو عليها علائم القوة والصحة عكس ابناء
فارس النحال الهزال من سوء التغذية والاسراف في المسكرات والافيون
والغانيات ولان كثيرا منهم من اللقطاء الذين أهملتهم امهاتهم من زواج
المتعة فشبوا مفتقرين الى الرعاية الصحية والتغذية الوافية

زرت يوما احد سراة القوم وهو مختار زادة من أكبر تجار هيرات
وكان معى له خطاب توصية من بعض خلانه في مشهد فدخلت داره
واذا مدخلها من السوق صغير لا يشعر بعظمة الكنى الفيتها من داخلها
فاخرة قسم الحريم منعزل في الداخل والجزء الظاهر (وهو المضيفة) أعد
بالبسطة الثمينة والحشيات والتكات ويتوسط كل حجرة مصباح في طول قامة
الرجل يوقد بزيت البترول وقد استقبلنى بعض ذويه وشربت شايهم الممتع
ولبثت أنتظر حضور صاحب الدار نحو ساعتين فلم يحضر فقامت وشكرتهم
وتركت لهم خطاب التوصية وأفهدتهم منزلى من المطعم السابق ذكره
وكنت انتظر من كرمه الذى سمعت عنه أن يزورنى في مكانى فلم يفعل ذلك
فقللت في نفسى وأنا آسف ان زرته هل يقع مثل ذلك في مصر وهل يجيزه
الكرم المصرى ؟ وخيل الى أن الكرم الذى سمعته عن ذاك الرجل لا بد
ان يكون كرما نفعيا يختص به عملاءه ومن لهم قبله مصالح مادية.

وهيرات محط أغنى الممولين في ايران لانها أكبر المحاط التجارية وحولها
مزارع غنية وأرض خصبة وماء وفير وخير ما تصدره القطن والافيون
والرعى والفسق والجوز واللوز والبندق على أن افتقار البلاد للتعليم
ورؤوس الاموال لم يمكنهم من استغلال أرضهم . ويخضع لولاية
هيرات نحو مليونين من مجموع سكان الافغان البالغ عددهم ستة ملايين ووحدة
النقود الافغانية (القران الافغانى) وكان يعادل القران الفارسى سك من
معدن خفيف كأنه الالمنيوم الممزوج بالنحاس في لون أغبر قدر وهو أكبر
أنواع النقود ولا يزيد حجمه على القرش عندنا وله كسوره النحاسية الكبيرة
وليس في البلاد نقود ورقية (بنكسوت) قط لانهم يجرمون إقامة المصارف
فالتعامل التجارى كله بالقران فالتاجر يقبض دينه أو ثمن بضاعته منه مهما
كثرت لذلك ترى كلا منهم يحمل آخر اليوم أكياسا ثقيلة كبيرة يكاد ينوء
الواحد بحملها وترى كلا ينتحى جانبا ويكدس النقود بجواره ويشرع في
عدها ويستغرق في ذلك زمنا . وكان سائق السيارة التى ركبها عائدا إلى
فارس يحمل كراهه من القرانات في أسياس ثقيلة أعنى خمسة عشر جنيتها كلها
من تلك النقود المعدنية وكانت فوق الف قطعة وكم كان ارتباكي عظيما
عند ما دخلت فارس ولم يكن معى سوى ورق فارسى قيمته اثني عشر
جنيتها فلم يقبله منى أحد اللهم سوى جمهرة من صيارفة اليهود وقد تقاضوا عليه
عمولة فاحشة وهم لا يقبلون أى نوع آخر من النقود أو الورق أما الشيكات
التي كانت معى فلم استفدها هناك قط لذلك اقتضت من السائق ما احتجت
اليه فوق ما معى من نقودهم على أن اردها اليه في فارس وقد أودعت معه



قاعة هيرات ومن فوقها يلق بالزاني إلى هرة ورائها

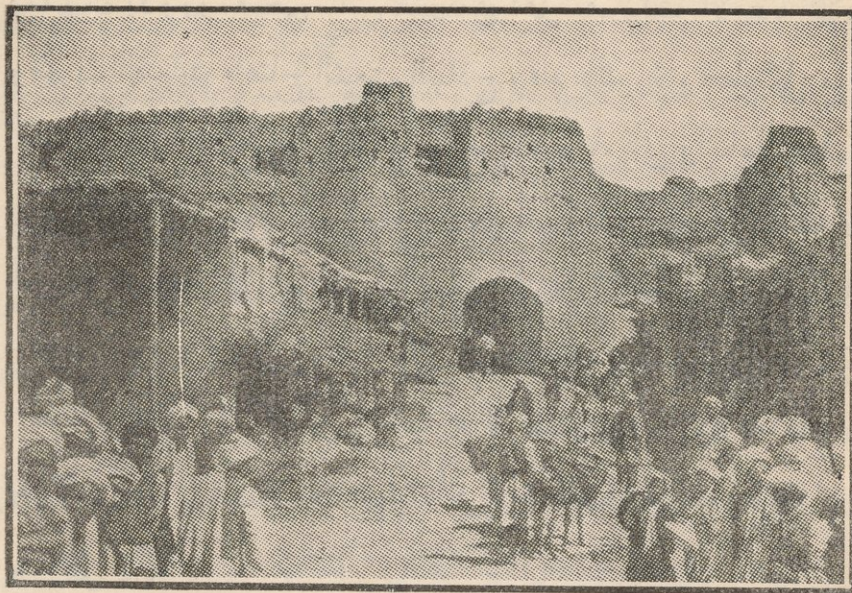
بعض الشيكات رهينة حتى صرفتها في مشهد واعطيته حقه
ويظهر لمن يزورها لأول وهلة أنها بلدة قديمة أثرية بناها الاسكندر
المقدوني على نهر آريوس الصغير المعروف بنهر هرة أو هري وسماها آرية
باسم النهر والاسكندرية باسمه وقد فتحها الاحنف بن قيس في خلافة عمر
وأظهر ما يرى فيها أطلال سورها القديم وقلعتها المشرفة وبقايا مسجدين
فاخرين تقوم منائرهما السبع وإحدى القباب يغطها جميعاً القيشاني في لون
اللازورد والفيروز وفي اشكال هندسية وقد بناها هارون الرشيد وفي البلدة
مدافن لكثير من أولياء الاسلام وعلمائه أذكر من بينهم الفخر الرازي

وعبد الرحمن الجامى وعبد الله الانصارى والحجة عبد الله المصرى ويقصون
عن كراماته ان ماء البئر التى فى مدفته يرد من مصر ويقولون أن الاولياء
الذين يدفنون حول اولئك اثني عشر الفا لذلك تسمى هيرات عندهم بلدة الاولياء
وقد زرت كثيراً منها وغالبها مهتم ولعل أفخرها مدفن الانصارى المؤرخ
فى ١٨٥٩ هـ فهو وسط مسجد فاخر حول فئائه مجموعة من الاولياء وبه
مدرسة لحفظ القرآن ووقفت بقبر الفخر الرازى طويلا وهو من كبار مفسرى
القرآن الكريم وصاحب كتاب مفاتيح الغيب . وكل تلك المدافن فى حجر
الجبل وحولها المزارع والاشجار وفى مواسم خاصة يحج الناس اليهم
وينامون فى اماكن أعدت لذلك

وفى المدينة بعض المنشآت التى اختطها الملك السالف أمان الله فى
شوارع فسيحة أقيمت على جوانبها المباني المتشابهة من الآجر الاصفر
الكبير يتوسطها بعض الشجر والزهر لكنى ألفت غالبها متهدما من يد الثوار
فقد كان ذلك الملك مصلحا طموحا الى رفع شأن بلاده وكان فى أخريات
حكمه ينقل نظمه كلها عن تركيا والمانيا ويجاهر بالنفور من الاجانب
وبخاصة الانجليز لانه علم بمدى مطامعهم فى بلاده المجاورة للهند لكن اولئك
انتهزوا فرسه غيابه فى رحلته وبثوا الدعوة ضده وقام (لورنس) يهب
الاموال للعشائر ويشوه سمعة الملك وأنه أضخى ملجدا يريد الاعتداء على
الدين كما فعل مصطفى كمال فى تركيا بدليل أنه يريد نشر القبعات واختلاط
السيدات بالرجال ومخاصرتهم أياهن ونشر بعض صور للملك وزوجته
يرقصان وسط الرجال فى مراقص أوروبا حتى قالوا ان المال الذى أنفق فى

سبيل ذلك مليون ونصف مليون جنيه وكان أمان الله قد نقل كثيرا من العادات والازياء الاوروبية حتى لبس كثير من أهل هيرات الاردية الافرنجية وظهرت القبعات فاهتاج الشعب الساذج وقام بالثورة وحطم كل ما أقامه أمان الله من إصلاح حتى آلات توليد الكهرباء التي رأيناها محطمة هي والاسلاك التي مدت في أرجاء المدينة على أنى كنت أسمع من الكثير نعمة الندم على ما فعلوا لأنهم أدر كوا مبلغ وطنيته ولاحظوا مدى بسط النفوذ الاجنبى اليوم وان كان خفيا وكان يتفقد جنده بنفسه ويوصيهم بقوله : اعملوا لوطنكم أولا ثم لدينكم ثانيا ثم لأنفسكم وكان ذلك مما أهاج عليه المولاه رجال الدين لأنهم فهموا أنه يريد القضاء على شعوذتهم كما فعل مصطفى كمال

وكان يسترعى نظرى كثرة السجن الصينية وأولئك من التركان اذ ان جزءا من التركستان داخل فى حدود الافغان وتركستان الروسية على مسيرة أربع ساعات من هيرات فقط وهؤلاء يتكلمون لغة خاصة وأعجب ما فى لباسهم غطاء الرأس فهو للرجال كرة هائلة من الوبر أو الصوف الاسود المنفوش وللنساء شبه اسطوانة كبيرة القطر لكن ارتفاعها لا يعدو عشرة سنتيمترات تكسى بالقماش الملون . والافغانيون طيبو القلب الا أنهم على شىء من الجفاء فى الحديث والخشونة فى اللفظ وغالبهم سذج لا يزالون على فطرتهم ويبدو أفتقار البلاد الى المال من بساطة دور الحكومة وما فيها من أثار لا يكاد يعدو البسط تفرش ويجلسون عليها فى جلايسهم وامام



حول باب قنهار أجمل البوابات الخمس لهيرات
والأسوار من الطين وعلوها خمسة عشر مترا

مدخلها الاحذية الغربية تراها تصف في شكلها البدوى وبعضها لعلية القوم
ملونة مزركشة (بالقصب) كذلك رجال البوليس والجيش فهندامهم
مختلف بعضهم بالجلابيب والبعض بالحلل المهلهلة وعلى رؤوسهم قبعات
فطساء من امام ومن خلاف وفي قبعة الضباط ذؤابة من جدائل لامعة
تتدلى الى اليمين من وجوههم . وقد زرت رفقة صديقى الالماني رئيس الشئون
الخارجية (مأموريتى خارجى) ويجب على كل زائر أن يمر عليه ليتسلم منه

جواز السفر مؤشراً عليه منه والا لا يسمح له بالخروج وهم هناك كثير و
الشك في الوافدين والراجلين تسلموا الجواز مني بمجرد دخول السيارة البلدة
وحفظوه في (النظمية) وعند السفر كان لا بد من الذهاب لتسليمه من رئيس
الخارجية. هناك قدمت خطاب التوصية فاحسن استقبالنا وشربنا الشاي
وبعد القدر الثاني نكسته في الطبق بعد أن أبقيت فيه جانبا فسألني رفيقي
الاماني عن سبب ذلك فافهمته ففعل مثلي وبعد أن تسلمنا الجوزات ضرب
المأمور معنا موعدا أن يوافينا عصر الزيارة بعض أما كن هيرات بمعاونته
فشكرناه وانصرفنا على أنه لم يف بوعده ولم يعتذر فلم يرقنا منه ذلك رغم
ثقافته ومكانته في بلاده

لبثت أقيم على مضض مني في هيرات انتظارا لسيارة وفي كل يوم يؤكد
لي صاحب (الجراج) ان السفر (فاردا) اي غدا وفي اليوم الخامس قمت
صوب قندهار وبعد مسيرة يوم في تلك الارض الجبلية المقفرة تعطلت السيارة
ولم نقطع ثلث الطريق وفهمت أننا سنقف حيث نحن طويلا واذا بسيارة
راجعة الى هيرات وهي تنقل سلعا تجارية ففضلت ان اعود فيها لاني خشيت
فوات الوقت على وفي هيرات مكثت يومين آخرين رفقة زميلي الالماني وكنا
نجول سويا ونجلس في المطعم نتناول الشاي ومن حولنا بعض أهل البلدة وقد
بلغت بهم سداجتهم أنهم كانوا كلما رأوا معنا شيئا أحبوا ان يهدى اليهم وحتى
الكوث (الشيشب) طلبه احدهم مني وأصر على أخذه وكانوا يسألوننا بعض
صور السيدات فقط فقدم لهم (پاسفتس) بعض صورته هو فرفضوا وقالوا

مالنا وهذه نحن نريد صوراً لسيدات جميلات وكانوا يشربون جميعاً (الترجيله
او الشيشة) وبعضهم يمضغ مسحوقاً اخضر من مركبات خمسة أو أكثر
عرفت منها الطباق والجير والملح والزرنيخ ويظنون يبعثون بشكل منفر
بصاقاً اخضر كريهاً

أما رفيقي باسفتس فرجل واسع الاطلاع يتجول لحساب حكومته ويعمل
على توطيد العلاقات بينها وبين البلاد التي يزورها وهو يجيد عشر لغات ومعه
من الآلات الكاتبة وآلات التصوير الدقيقة شيء كثير وقد قص على انه
كاد يفقد حياته لما ان دخل الحرم في مشهد ولم ينقذه من المسلمين الا شهادة
ابتاعها من احد علماء طهر ان تقول بانه مسلم وتلك يعطيها عالم خاص هناك
لكل من طلبها مهما كانت ديانته مقابل دفع عشرين تومانا (اي نحو جنبيين
ونصف) فابرزها لهم وادعى انه مسلم فحفوا عنه والافغانيون شديداً والتعصب
أيضاً وقد حاول دخول مسجدهم الجامع في يوم الجمعة فأبوا عليه ذلك وكان
المسجد مكتظاً بالمصلين وكانت جميع الاعمال معطلة لانهم يحترمون يوم الجمعة
احتراماً كبيراً

قمت صباح ٢٩ اغسطس اتوقع خبراً بالسفر من رب (الجراج) شأني
في كل يوم وقد نفذ الصبر ومللت البقاء هناك واذا بسيارة كبيرة تقف امام
المطعم يناديني صاحبها فاستبشرت وودعت الرفيق الالماني الذي كان ينتظر
سيارة الى كابل وركبت برفقة وفد من المسافرين يقصدون مشهد وفي طليعتهم (مولاه)
افغانى الاصل لكنه يقيم الآن في مشهد. رجل وقور نال منه الشيب وارسلت

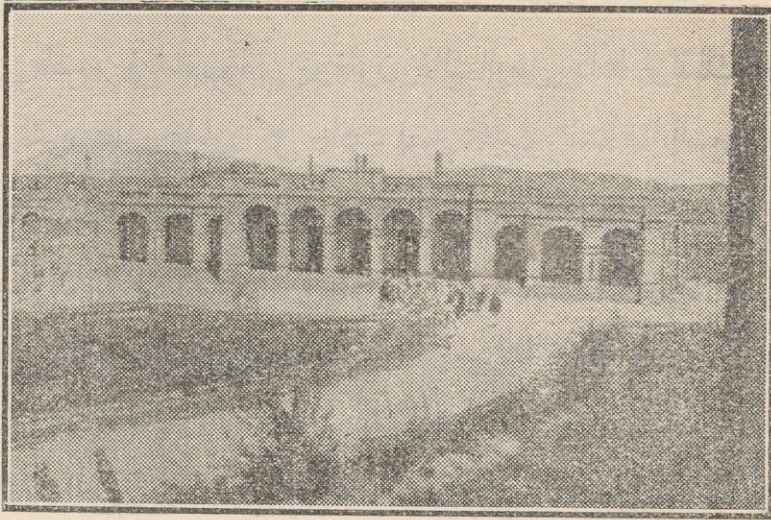


بقايا منشآت (أمان الله خان) وإلى جانب أحد تلك الأبواب
المفتحة أمضيت أسبوعا كاملا

لحيته تحت فمه الكبير وانفه المنتفخ الغليظ وبعد ان قرئت القوافح والدعوات وانها
الناس على يديه تقبيلاً تحركت السيارة بسم الله مجراها وما كدنا نستغرق
ثلاث ساعات حتى اعترها عطب جوهرى وبعد محاولة فاشلة لا صلاحها
استغرقت ساعة حمل السائق محور العجلتين (الاكس) رجلا وكلفه أن يعود
به إلى هيرات ماشيا على الأقدام ليصلحه ويعود إلينا وقد قرر الجميع انه
سيعود في (بنج ساعات فقط) فقلت أيقطع الرجل في خمس ساعات ما
قطعته السيارة في ست ذهابا وأيابا مما أثبت لي عدم درايتهم بالزمن قط ولبنا
فنتظر اليوم كله الى الصباح اى نحو خمس عشرة ساعة . وكان وقوفنا

هذه المرة في جوار رهط من البدو ضربوا خيامهم بجانب الطريق يجاورهم
مجرى للماء فاحاطوا بنا وسرعان ما احضروا خيمة اقاموها للنساء من ركبتنا
ثم دعوا فريقا منا لزيارة خيامهم وكانت الداعية هي رئيسة القبيلة عجوز
شمطاء قد أحنى ظهرها كرسنين وقد بدا لنا انها صاحبة الكلمة النافذة في
كل من حولها . جلسنا وسط الخيام وكان عددها يناهز العشرين اقيمت في
شكل هلال وأخذنا نسمع جلبة في داخلها وحركة اهتمام بأمرنا وبعد قليل
قدمت لنا قصعة ملئت من فطير صب عليه المسلى في كثرة عافتها نفسى
والى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك اسمر تعوز كل أولئك النظافة ولم تك
النفس تسبخ الاكل لولا أنه فرض علينا وكم تعثرت اسناني في الحصى
والاوساخ هذا الى قدارة يد العجوز التي كنت أراها تكس الارض بها وبين
آونة واخرى تمخط فيها ثم اعدت لنا بعض الفطير بنفسها وقد تبين لنا
انهم فقراء مدقعون فادهشنا هذا الكرم الذى لا يفارق البدو حتى في بلاد
الافغان وبعد أن أكلنا نحن الاضياف نقل الاناء الى العجوز جوارنا فأكلت
منه قليلا ثم سلمت ما تخلف لرجال القبيلة فاكلوا جانبنا منه ومابقى بعد ذلك
حمل الى النساء داخل الخيام وأكثر من ثلث سكان الافغان من هذا
الفريق المتنقل الذين يرحلون بقطعا نهم من الابل والحمير والخيل والاغنام
وقد هجمت تلك علينا ونحن نأكل عند الغروب حين وفدت من مرعاها
فكانت كأنها اليفة مستأنسة يقرب البعير برأسه حول وجوهنا كأنه
يقبلنا وكأنه ورث الكرم عن سادته . رجعنا الى سيارتنا وكانت الريح الشمالية

بعضف في شدة مؤلمة فلبثت داخلها أرتعد من البرد الليل كله أما سائر
المسافرين فلداهم فراشهم وهم يتوقعون ذاك العطل دائماً ولذلك تجدهم
لا يهتمون لشيء قط ويقابلون كل حادث بصبر عجيب . استأنفنا السير وسط
تلك المتسعات شبه الصحراوية حتى وصلنا اسلام قلعة وتعطلنا خمس ساعات
بسبب تلك الموظفين وذلك أمر القناه من قبل ثم جزنا الحدود الفارسية
وفي كاريز قنشت أمتعتنا وواصلنا السير حتى خيم الظلام فاضطررنا للوقوف
حيث بنا لامضاء الليل لان مصايح السيارة أصابها العطب والسير في ضوء
القمر في تلك الطرق الرديئة خطير جدا فسحب كل فراشه ولبثت أنا أُرصد
النجم وسط قر البرد حتى الصباح حين قمنا مبكرين نشق سهولا مهملة الا
في بعض بقاع رأينا بها القطن في نوره الاصفر البديع ولم يعد علوه القدم
الواحدة مما يشعر بضعف نتاجه هناك والقرى التي كنا نمر بها صغيرة نادرة
والاراضي مهملة الا في زراعة البطيخ والشمام وهذا جيد ورخيص كنا
نشترى بخمسة مليمات ثلاث شمامات أو أقة من (الانجور) او العنب الذي
تشتهر به البلاد وكثير منه (بناتي) بالغ الحلاوة وكنا كلما مررنا بقريّة
أقبل أفواج من أهلها يقبلون ايدي الشيخ (المولاه) ويطول الحديث
بينهم وكان يزورهم أحياناً في بيوتهم وكلما مررنا ببلدة بها ولي قصد الى
زيارته ونحن له منتظرون فلم أطق صبرا على هذا العطل الممض فأعلنت
احتجاجي وكان الشيخ يفهم شيئاً من العربية فكمان كل ما يقوله هو وسائر
المسافرين (صبر كون) أي اصبر لكنني لبثت مظهرا الامتعاض حتى أثر فيهم



دار البلدية في هيرات ولعلها البناء الوحيد الجدير بالذكر

وسرنا هذا اليوم بدون توقف حتى اقبلنا على مشهد الساعة التاسعة مساء
وكلما هموا بالتوقف للاستراحة صحت غاضباً بالفارسية (راحات لازم نيست)
وأول ما بدا قبس من أضواء المدينة المقدسة صاحوا جميعاً (لاهم سلى الى مهمد
آل مهمد) ثم قرأ العالم دعوات طويلة جملها مدح في الرضى ولعنات على من
قتله ثم اخذ كل يناول السائق بعض انعامه وكنا كلما تقدمنا نحو المدينة في سيرنا
البطيء على قبس مصابيح السيارة الفاترة تنكشف أنوار الحرم حتى بدا
متلائماً بالثريرات التي تكاد تكسو مآذنه وقبابه كلها وتظل كذلك طوال الليل
على الدوام فيبدو مشهدها ساحراً. ثم مررنا بمخمر البوليس عند مدخل المدينة
حيث وقفنا للتأشير على جوازاتنا وأخذ رجار البوليس يتكلمون حتى ناولهم

السائق بعض ما تيسر وهكذا كان (القران) هو المذلل لكل الصعوبات في تلك البلاد ! ونمت ليلتي في النزل نوما عميقا وكنت اشمر بحمي خفيفة من اثر ما اصابني من برد الليلتين السابقتين .

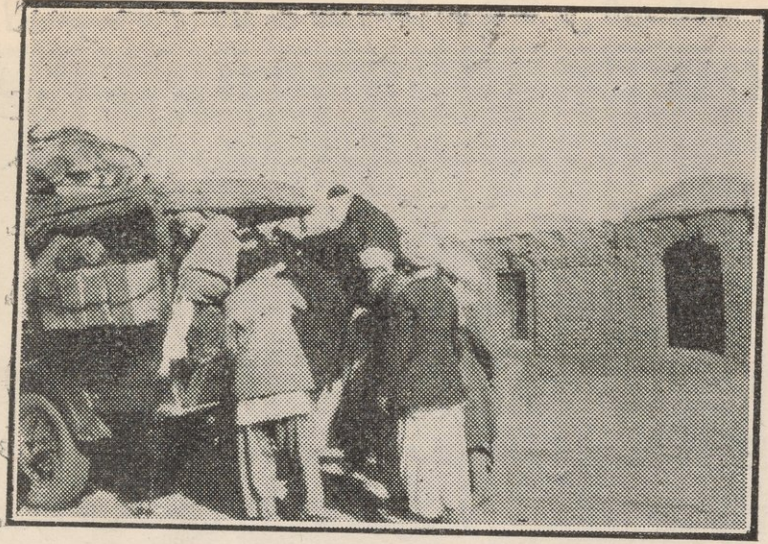
وفي الصباح زرت صديقي (أمين غزيمة أغا) وهو بيروتي على جانب كبير من كرم الطبع ورقة الحاشية يتجر في مشهد في شئون الحاكي (الجرامفون) ويحب القوم حبا جما وكانت معرفتي به يوم حلت مشهد لأول مرة فبينما كنت أسير في الطريق واذا شاب مهذب يناديني بالعربية وهو يحب مصر ويشيد بذكرها وحوله زمرة من السوريين يتجرون في السيارات ولوازمها ويرجون من وراء ذلك رجحا طائلا وفي الحق ان الشعب السوري لنشط يسعى وراء الرزق في أقاصي الأرض ولا ينسيه جنينه لوطنه المادة والمال فهو يقيم حيث يطيب له العيش ولا يقنع بالقليل زهدا في التغرب والنزوح بعيداً عن بلاده ولقد كنت من قبل أسوء فهم السوريين لما كنا نراه من شرذمة نفعية ممن يعيشون مهمهم في بلادنا ولكن تلك أقلية لا شك توجد في كافة شعوب الارض مهما سمت

الى طهران ثانية : قمت في سيارة صغيرة جديدة فكان حظي

موفقا هذه المرة اذ سرنا في سرعة مدهشة عوضت شيئا مما سلف فقطعت المسافة كلها في يومين بالضبط وكنا نسير النهار من مشرق الشمس الى مغربها ونستريح الليل وقد بدا طريق خراسان ممهدا بالنسبة لطرق الافغان الوعرة لكن لم تخل رحلتي هذه أيضا من تنغيص هو التراب الذي أفسد

على كل شيء مزاجي وملابسى لذلك كنت اضطر للوقوف مرة كل ساعتين
اغسل وجهي بالماء . وأكثر من النصف الاول من الطريق سهول تحفها
التلال في الآفاق وتكثر بها القرى وتزرع بها بقاع متفرقة وهنا أرض
التركان الذين كانوا نذير الفزع وقطاع الطرق وكانت تخشاهم حتى الحكومة
نفسها فكم أبادوا من قوافل ونهبوا من متاع وأموال لكنهم اليوم عادوا
أطوع للحكومة من سائر الطبقات بفضل شدة الشاه الحالى الذى ضرب على
أيديهم وأخذهم بالقوة فأينما سرنا كنا نرى محاط البوليس بأسلحتهم الكاملة
والايرانيون يفاخرون اليوم بأن الاًمن سائد فى جميع بلادهم رغم
ما فيها من مخابىء ومفاوز .

ويقولون بأن الشاه يمر بنفسه على الحكام ومخافر البوليس متخفيا فى الليل
والنهار مهمما بعدت أطراف الاقليم ليقف بنفسه على ما يجرى ولا يترك صغيرة
تنفذ فى البلاد كلها دون أن يجيزها بنفسه حتى ترقية الضابط او الموظف الصغير
وكان يرافقنى فى السيارة شيخان عراقيان وسيدة وفدوا للحج الى مشهد وكانوا
كلما مرت بنا سيارة تحمل الحجاج يصيحون عاليا (التماس دعاء) ولقد عجبت
لكثرة تلك السيارات فقد أحصيت فى سبع ساعات من الليل ثلاثين سيارة
كبيرة متوسطة حمولة كل عشرون شخصا اعنى نحو مائة سيارة فى كل يوم بها
ما بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ من الحجاج يفرون الى مشهد مع العلم بأننا لم نكن فى
موسم الزيارة فأدهشنى هذا الايمان العجيب فى الرضى ومكانته السامية من
قلوبهم وكثيرا ما سألتى رفقاء السفر (أفى مصر شيعون؟) فأقول كلا وعندئذ



المسافرون يتأهبون للرحيل عن هيرات
بعد أن انتظرنا قيام تلك السيارة أسبوعاً كاملاً

يبدون علاوات الاسف ويرمقونني بنظرات كانت تم عمّا تكن قلوبهم لنا
من لعنات

استرحنا ليلتنا الاولى في (سبزوار) وهي عاصمة ولاية كبيرة وفي
ظهر اليوم التالي وقفنا قليلاً (بشاروت) وهي شبيهة بسابقتها وبعد (سمنان)
وهي من العواصم الكبيرة انتهت السهول وبدأت الربى بتعقيدها الشديد فاخذنا
نصعد ونهوى في ليات مخيفة من دونها الهوى والوديان السحيقة تنوسطها
مجارى الماء ومن حولها الشجر والقرى وقد كان البرد شديداً وبدت بقع من
الثلج الابيض فوق الذرى والثلج يكسو بلاد خراسان كلها وغالب بلاد

فارس مدى ثلاثة شهور الشتاء وفيها يكون البرد قارسا والسير في الطرق متعذرا لان جوها قارى متطرف شديد الحر صيفا قارس البرد شتاء . ومن هذا الثلج وما يجمد من النقائع يدخرون جليد الشرب (ياخ) في سرايب عميقة في الارض تفرش بالغرائر (الخيش) ومن هذا تستمد المدن والقرى مرطبات الصيف وانما لانكاد نمر في طريق اوقرية الا ونرى الصبية يحملون الماء والثلج في كتل غير مشذبة تمازجها الاتربة والاوساخ وهم دائما ينادون (آب ياخ) اى (الماء الثلوج) وهو زهيد القيمة جدا . ومن أعجب المناظر في طهران الجمالون الذين يسيرون وعلى ظهورهم كتل من الثلج في حجم الصخرة الكبيرة يكسوها القش والاتربة يسير الرجال بها ويأيدا وهى تقطر ماء من جميع جوانبها ويقولون بان هذا الثلج خير للصحة من الثلج الصناعى .

هبطنا آخر الربى فبدت طهران وسط صحراء مجدبة في بقع متفرقة خضراء كانها الواحة وقد شعرنا بأنها أدفا جدا من أرض خراسان . استرحمت فى طهران يومين زرت فيهما بعض مساجدها الفاخرة بقباها المتعددة ومنازلها القصيرة ثم البرلمان المتواضع وكنت أمضى كثيرا من وقى فى دار المفوضية المصرية وهناك كان يؤنسنى آلهما بما جملوا عليه من الخلق النليل والطبع الكريم وكم اسدوا الى من خدمات سهلت لى كل عسير ورجال المفوضية على جانب عظيم من الاخلاص والجد والخلق العظيم يمثلون مصر فى تلك البلاد الاسلامية تمثيلا مشرفا يشيدون بمجد مصر ويقومون لها بدعاية طيبة وللسفارة



جباة الضرائب خارج أسوار هيرات

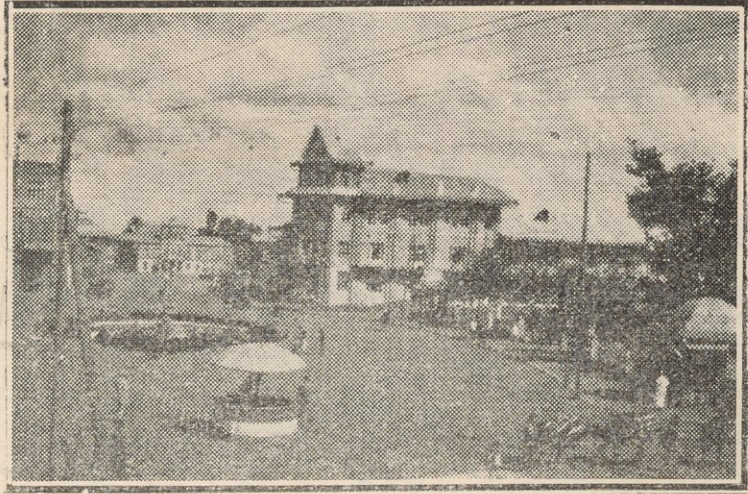
وترى أكداس النقود الفضية أمامهم إذ ليس في البلاد نقود ورقية

داران أحدهما في وسط البلدة وبها دار لوزيرنا الهمام ينزلها شتاء ومنزل
الصيف في ضاحية تسمى (شميران) في حصن جبل (دمافاند) ويقطنها
طبقة الارستقراطيين والاغنياء والسفراء والداران من القصور الفاخرة
التي تدل على الفرق الشاسع بين ما كان عليه الحكام والارستقراطيون - وهم
أقلية في قوم فارس من البنخ والرفه وبين ما كان عليه العامة من البؤس
والشقاء ويخيل الى أن همهم كان ابتزاز المال من الناس والاستمتاع به
دون أن يعنوا بشئون العامة كثيرا ولا قليلا وكان يعرف عن حكام الفرس

أنهم يولون بكثرة ما يدفعون للشاه وللحكام والوزراء من مال وكانت كل الوظائف تباع وبعد قليل يوقف الموظف ليولى بدله على أن المرفوت يخرج موفور المال رغم قصر مدته في العمل ويقص البعض أن أحد المولاه هناك بكى ليلة ولما سئل عن ذلك قال بأن النهار قد انقضى ولم يزد ما جمعه على الف جنيه فقط وكاد يؤيد هذا لدى ما رأيت

فبعض تلك القصور قد بلغت من الوجاهة حدا لا يكاد يرى في الممالك الاخرى بينا ترى سواد الامة في أبحار وأقبية من الطين ليس فيها وسائل الراحة أو شؤون الصحة حتى شهر عن الفرس التقشف وأنهم لا يعنون بوسائل الراحة والترف كما يعنى بها الاوروبى وقلة وسائل الترف لا تؤثر على كرامتهم أو سمعتهم في نظرهم وهم يعدون ذلك فضلا يجب على الغربيين ان يتعلموه عنهم

الى بحر الخزر: قمت صوب شمال طهران لا ترى الجزء الشمالى من إيران وما كدنا نخرج بوابات المدينة — وبوابات طهران فاخرة تؤدى منها الى جميع الجهات وهى أخص مما يسترعى نظر السائح هناك — حتى استوقفنا البوليس كعادته ولما رأى الجواز قال هذا لا يكفى ولا يباح الخروج من طهران إلا بتذكرة من (النظمية) قلت ولكنى سائح سأغادر بلادكم قال هذا لا يكون ولا بد من العودة والحصول على الترخيص المطلوب وكان رفيقى فى السيارة من كبار الموظفين فتعاوننا على افهام رجال البوليس بان تأشير النظمية موجود وأروهم طابعا فيه وبعد جدل طويل غلبتهم



الميدان الرئيسى فى رشت

حيلتنا وجزنا النطاق وقد ساعد على ذلك جهل البوليس فهو هناك لا يكاد يعرف القراءة .

لبثنا نسير من السادسة مساء الى الاولى صباحا وقد تعب رفيقاي وكان أحدهما طالبا فى بروكسل وهو عائد لاستئناف دراسته عن طريق بحر الخزر والروسيا فاضطررنا ان نوقف السيارة وسط الطريق ونمنا ونحن قعود بها وادهشنى ان رفيقاي قد شعرا بارتباك فى المعدة اعقبه قىء من أثر ارتجاج السيارة فاذا كرنى بمرض البحر وما كان يسىء الى يوم كمنت حديث عهد بركوبه ومسافة الطريق الى بحر قزوين ستون فرسخا — أى نحو اربعمائة كيلو مترا كانت المناظر فى النصف الاول منها مألوفة من ربي تجو طمتسعات

من أرض مهملة وما كدنا نوغل في النصف الاخير حتى زادت عقد
الجبال في صخرها الاغر المنحل وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين
وكثرت الالتواءات الارضية وزادت طياتها وكنا نشاهد ذلك في جوانب
الجبال واضحا واخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة
وعورة لم نعهدها من قبل وقيل :

الرشيت : بنحو خمسين كيلو مترا اخذت صفحة الجبال المعقدة تتغير
معالمها اذ كساها الشجر القصير في تفرق أعقبه تلاصق عاجل وما نشعر الا
ونحن نوغل في غابة كشيقة اذ كرتى بمناطق الغابات الصميمة في افريقية
وكنا بجانب وادى نهر يسمونه (النهر الابيض) فى اتساع عظيم وهو يتلوى
ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية وكل اولئك جبال البرز المعروفة
أما ماء النهر فكان آسنا اذ يفيض بالماء ابان الشتاء حين تكثر المثلوج التى تمده
بالماء ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ما عهدنا فى ربي ايران المنفرة
الى عريت كلها عن النبت ونضبت مياه مساييلها وكان منظر بعض الوهاد
بقراها كالمناظر التى شاهدتها فى بعض جهات اسكندناوة أو سويسرة على
ان الشجر مختلف فليس لاشجار الصنوبر من أثر حتى فى اعلى الذرى وكماله
من اشجار البلاد لحارة تكثر حولها الطفيليات النباتية والاعشاب المتسلقة
التي تسد الغابة سدا ولذلك يطلق القوم عليها كلمة (Jungle) الانجليزية
وكلما قاربنا الرشيت بعدت عقد الجبال، انفسح السهل وغص بالقرى والمزارع
التي شهرت من اجلها البلدة وبخاصة فى الارز والطباق وهذه الناحية اشهر

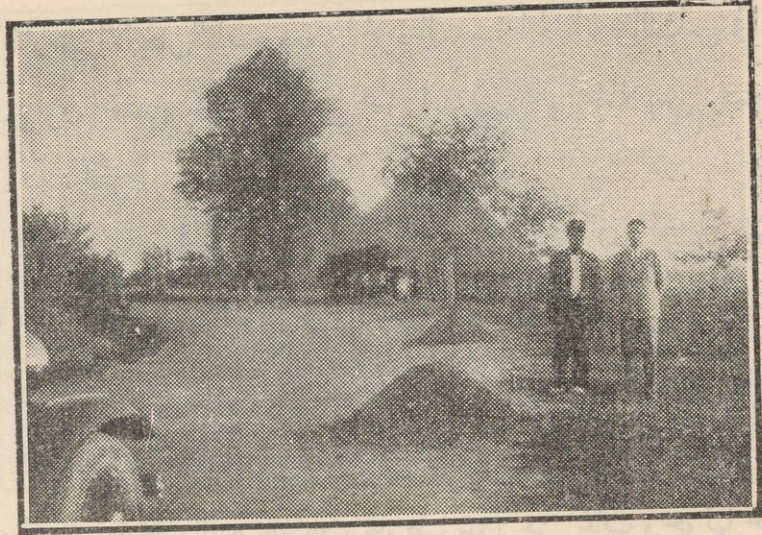


على شواطئ بحر الخزر في بهلوى

بلاد فارس في الزراعة والطباق اليوم آخذ في الزيادة هناك على حساب الارز
وقبيل الساعة العاشرة صباحا دخلنا : الرشت : التي كانت عاصمة بلاد
الديلم قديما وهي اليوم عاصمة مقاطعة جيلان بدت مدينة عامرة كبيرة
اخف روحا حتى من طهران نفسها وارضها انظف وأهلها اكثر حركة
ورشاقة وقد حاكت المدن الاروية ويظهر انها تأثرت طويلا بالروس
يوم كان لهم النفوذ في هذه المنطقة لذلك كانت جموعهم كثيرة في البلدة نساء
ورجالا واللغة الروسية منتشرة بين الجميع الى جانب الفارسية وغالب مبانيها
من طابق واحد تظهر وكأنها اقيمت كلها من جديد والبيوت ذوات سقوف
متحدرة يكسوها الآجر الاحمر خلاف ماشاهدنا في سائر جهات فارس ذلك

لان مطر المنطقة غزير جدا يفوق مقداره المتر ويظل المطرا اكثر من ثمانية شهور وبخاصة في شهور الشتاء ولم تخل السماء من الغيوم ساعة واحدة وكان الجو أميل الى الرطوبة وسببها رياح سائدة تهب شمالية غربية من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتغرقها مطراً وتكسو ذراها ثلجا وفي الشتاء تزيدها اعاصير البحر الابيض التي تندفع من قزوين الى بحار الهند الدفئة وخفيفة الضغط حتى في هذا الفصل الجاف لذلك قل بها التراب الذي كان ينغصنا في بلاد فارس كلها وكان جوها لطيفا محتملا عن طهران إلا اذا انكشفت الشمس عن الغيوم فعندئذ يصبح الحر شديدا على ان الجهة تعرف بكثرة الحيات في جوها غير الصحي بسبب الحرارة والرطوبة معا وقد زادها حرا انخفاض سطح بحر الخزر وهو اوطأ من مستوى البحر الاسود ٨٤٠ قدما لذلك يجرى القول على لسانهم هناك : ماذا اذنب فلان حتى يولى حا كما على الرشت : على ان حظي كان موقفا اذ كانت أيامي هناك اجمل ايام قضيتها في ايران كلها . وبالمدينة مجموعة من متنزهات منسقة انيقة تقوم بها المقاهي الحديثة وفيها يسمع المرء الموسيقى الشجية وقد اختلطت الانغام الفارسية بالروسية وكلاهما مما تستريح له آذاننا

اقلتنا السيارة الى بهلوى على شواطى بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين قط — والمسافة اربعون كيلو مترا فكان الطريق يتلوى وسط الاحراش الكثيفة المغلقة التي حاكت الاحراش التي رأيتها في بنغالة في بلاد الهند ويقولون بان فيها كثير امن الحيوان المفترس خصوصا النمر ومن أعجب

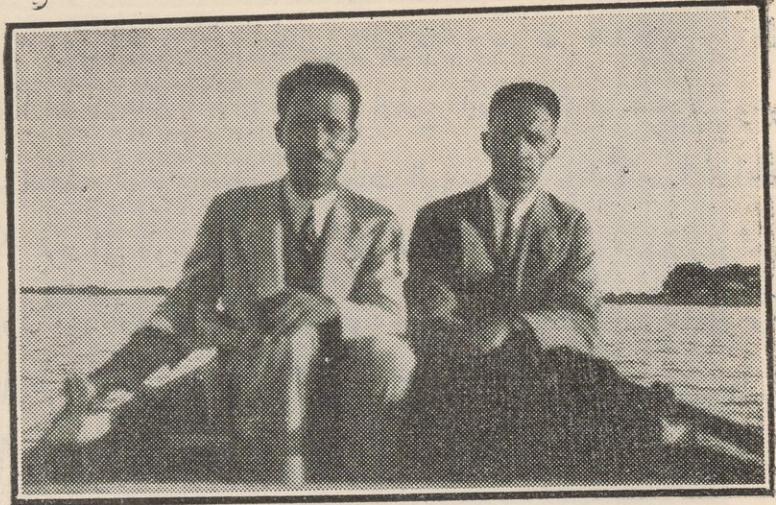


نبداً دخول الغابات الكثيفة حول بحر الخزر

ما رأيت في الطريق كثرة الكروم البرية التي كانت تنمو في كل مكان ويقول البعض ان كروم اوربا جاءت عن تلك الناحية وعن القوقاز . اخذ الشجر يقل كلما قاربنا البحر حتى انعدم واطحت السهول تكسى ببساط من خضرة الى البحر وكننا نرى بيوت القوم اخصاصا من اعواد الخشب يكسوها القش الثقيل في شكل مخروطي او منحدر السقوف فذكرت مسا من الغابات الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا تماما والقوم يستأصلون الاحراش من مساحات يزرعونها من الارز والطباق والقطن والسكتان والعمل يقع كله على السيدات اللاتي كن يظهرن في ملاءات بيضاء ناصعة وقد استرعى جمالهن نظري فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة ويظهر ان اختلاط الروس

بالفرس هنالك اكسب اولئكنا جمالا عالجا كبر الانف الفارسية واشرب
اللون الفارسي الابيض الناصع بعض الحمرة الروسية الجذابة والناس في تلك
الجهة يموتون انفسهم بكل شيء من عمل ايديهم وحتى الملابس ينسجونها
ويربون دود القز .

والمنطقة المجاورة لبحر الخزر الى شمال جبال البرز كلها كشيعة الغابات
من مقاطعة (مازندران) شرقا الى (اذريجان) غربا وسكانها يفوقون مائة
الف وكل تلك السهول من مخلفات بحر الخزر الذي كشفها وهو آخذ في
النقص من أثر البحر الشديد . اخيرا دخلنا بهلوى : فكانت بيوت الفقراء
اخصاصا على نمط تلك التي في الغابات يحوطها سور من غاب وحولها حدائق
لا بأس بها وعلى البحر اقيمت الميناء تحفها مجموعة من ابنية غالبا للجمر
ومرسى السفن وتصف ازاءها الزوارق للزحمة وتلك الجهة تسمى
(غازيان) واذا ركبنا البحر اقبلنا على شبه جزيرة تبدو بها المباني الفاخرة
والشطان المنسقة وهذه هي (بهلوى او انزيلي قديما) . ركبنا البحر إليها في
ربع ساعة واذا بها آية في التنسيق والنظافة بيوت نفحة وطرق مرصوفة
ومتزهات عدة وقد مدت على شاطئ البحر الحدائق والمقاهي فكانت وكأني
في احدى مدن الرفيرا تماما وفي الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف
عن سائر جهات فارس في كل شيء في طبيعة الارض وفي الجو وفي النبات
وحتى في سكانها فهم اكثر نشاطا وجمالا أما الناحية الخلقية فهي هنا
اكثر فسادا ولا شك ان للاباحة الروسية المقيمة اثرا كبيرا في ذلك . قامت



على مياه بحر الخزر (وهو بحر قزوين في عرفنا وبحر طبرستان عند القدماء)

الباخرة الروسية من الميناء تقل رفيقي الى باكو في ثمان عشرة ساعة ومن
ثم يستقل القطار الروسي الى بركسل وقد حدثني طويلا عن الروس وما هم
فيه من بؤس مميت اذ لا يكادون يحصلون على القوت يجبرون على العمل
مقابل تذكرة تبيع للواحد منهم تناول الطعام من مطاعم الدولة وكثيرا ما
ينتهي الطعام قبل ان يحصل جميع الناس عليه لكشرتهم فيطردون الى الغد
والحياة هناك غالية غلوا فاحشا حتى لاهل البلاد ورقابة البوليس بالغة
الاشدة ولكن رغم ذلك ينفد الكثير من الناس الى البلدان المجاورة هروبا
من ظلم واقع وجوع محيق وقد لاحظنا من هؤلاء جموعا غفيرة في
بلاد فارس والافغان ويقول صاحبي بان سكة الحديد الروسية

القوقازية قدرة جدا لا يجد الواحد في الطريق شيئا يتاعه قط
ليتبلغ به ومن الغريب أن الجيش والبوليس وهم نفر قليل يسرون الامور
على هذا الحيف القاتل ولا يستطيع الناس القيام ثأرين لعجزهم وعوزهم
وأنت تدهش اذ ترى بعض المنتجات الروسية تغرق الاسواق الخارجية
فالسكر يرد الى فارس بسعر قرانين للآقة (اى نحو قرشين) ثم يعيده
المهربون من فارس الى روسيا ليبيعه بعشرين قرانا للروس أنفسهم وكذلك
السجاير وبعض المنسوجات . تفعل حكومتهم ذلك بقصد الدعاية للسوفيت
ولا أدري ما قيمة الدعاية لنظام فاسد أهلك الاهلين ألا نفرا قليلا من
السادة هناك

واليوم فقط (الخميس ٧ سبتمبر) حققت -لما طالما جال بخاطري هو
ان أركب بحر الخزر - وهو بحر طبرستان - يوما وأطوف بسواحل ذات
الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تنص بها سهوله الجنوبية الى غابات جبلية
في غربه الى كلاء وعشب شبه صحراوي في شرقه الى أرض مباحة في شماله .
لكن الشبح الروسي لم يتح لي التجوال كما ملامت اليوم كله أجول في
مياهه الفارسية وراء ثغر بهلوى وقد كان مأوه أدمس هادئا على أنه أبان
العواصف يعلو موجه ويضطرب وقد تذوقت ماءه فاذا به قليل المالح على
خلاف ما عهدت فخلت ذلك راجعا الى قرب بعض المصاب العذبة من تلك
الجهة لكن القوم خبروني أنه أميل الى ذلك في كل أرجائه ودلوا على ذلك
كثيرة اسما كه نوما وعددا ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين الروسية



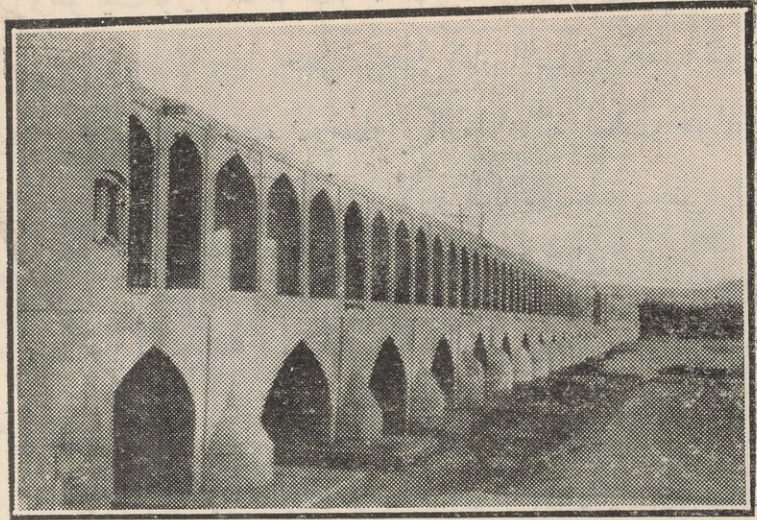
خيابان چهار باغ (الحدائق الأربع) في أصفهان

والفارسية وكانت زوارق الصيد تسد الأفق سدا والسمك غذاء رئيسي للناس فهو والارز عماد الطعام وكان لهما أثر حسن في أجسامهم فهي هناك ممثلة عن سائر جهات فارس الاخرى اذ لم أعثر على القامات الطويلة والاجساد السمينة الا في تلك الناحية من بلاد فارس كلها

اصبحنا يوم الجمعة والجو جميل والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة وقد أمضينا ليلتنا في نزل (سافرى) في رشت وهو يطل على ميدان البلدة الجديد الذى تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة وتزينه المتزهات والمنظر من شرفة النزل رائع : السماء تلتقيها الغيوم والخضرة تمتد الى الآفاق والمباني حولنا فاخرة وجماهير الناس في أنظف ثيابهم — لانه يوم الجمعة يوم الراحة القومية

يروحون ويغدون في كثرة تسترعى النظر ولا يخلو الجمع من طائفتين :
الغانيات في أزاهن الاسود المهفهف والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك
يصيحون في نعمة البائس المتماوت قائلين أرباب . . أغا . . واكفهم
مبسوطة وكثير منهم من يظهر في هندام نظيف ووجه مشرق بما أثبت
أنهم على شيء من اليسار لكن التسول اضحى في القوم عادة متأصلة ذميمة .
وكثير من مباني الرشت وبهلوى بالحشب لكثرة الغابات حولهما لذلك
نرى في كل برجا عاليا يظل فيه الرقيب ليلا ونهارا لينذر بالحريق اذا مابدا
دخانه أو لهيبه في اية ناحية من البلدة

قمنا في الاصيل مودعين رشت ومنطقتها البديعة التي تصلح خير مستراض
في الربيع والخريف واخذت سيارتنا تشق الحضرة التي زادت كثافتها
تدريجا وبعد ان قطعنا ثلاثين كيلو مترا بدت جبال البرز اعنى ان السهول
الى البحر تمتد سبعين كيلو مترا وكانت الاشجار الكثيفة تغطي الجبال
الى اعلى ذراها والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الاخرى وسحاب السماء
يكاد يلامسها وان لم يبد للثلج فوقها من أثر وكانت طيات الوديان بمائها
الشحيح تحتفى وراء الربى تارة ثم لا تلبث ان تنكشف في مباغثة تقر
لها العين وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن
يدخل البلدة قادمنا من طهران وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة
وعشرين كيلومترا ثم ندر الشجر وانعدم فجاءة واضحت عقد الجبال
قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلو مترا كان الطريق فوقها طيات

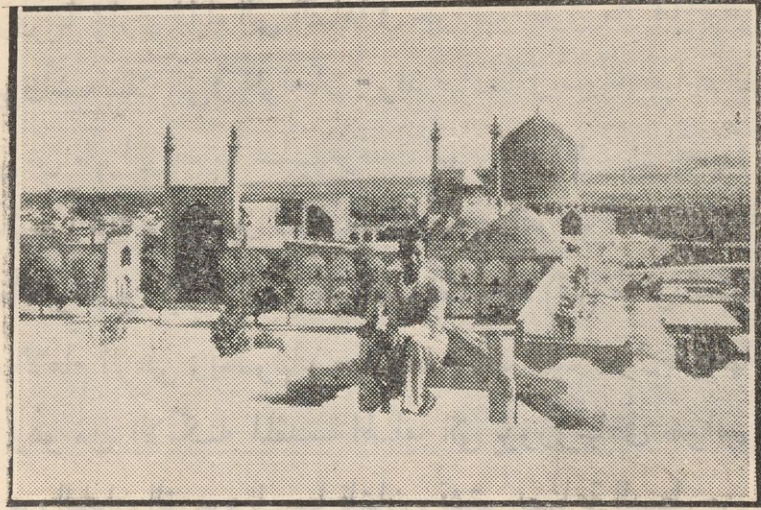


قنطرة جلفا اعجب قناطر الدنيا في اصفهان

قاسية رهية خصصا في ضوء القمر الشاحب وفي سكون الليل الموحش
وفي باكورة الصباح دخلنا طهران للمرة الثالثة وكان معي موظف كبير
في المالية ومعه اولاده الصغار وقد الفت نظري أنهم يدلون
النشء لدرجة انك لو كلمت الرجل في شأن ابنه (حسين) مثلا عاد
فكرر الاسم قائلا ابني (حسين خان) ويبيحون لهم تدخين الطباقي
امامهم وهم لم يبلغوا الحلم بعد. ولما اردت ان أتشرف باسم الرجل نفسه
قال في نعمة مضخمة أسمى (أغا علي خان) وقد زرت في رفقته بعض
القصور ثم كان وداعي لحضرات ممثلينا الكرام في المفوضية المصرية العامرة

وقد تناولنا طعام الغداء في مطعم فارسي بحت يسمونه (لوقانطة) أمام دار
البرلمان وهو بيت لوزير قديم حجراته مزرشقة الجدران عليها رسوم بعض
ملوك الفرس وعظماؤها وبها حجرة وسطى يحار اللب في تعقب نقوشها
وزخرفها والقناء مكشوف تتوسطه بركة ماء هائلة نسقت حولها الزهور
وأخص الوان الطعام الفارسي الارز الفارسي عليه بعض الافاويه
ويسمونه (بيلوف) والكباب الشهى المسمى (شيشيك)

عرجت على (النظمية) لانجاز جواز الخروج من طهران فاضطرت
أن أبقى يوما ساعدا حتى فاتتني سيارة البريد التي تقوم الى جنوب طهران
مرتين في الاسبوع وتضيق البوليس في فارس قد بالغرافيه فأضحى من اكبر
المنغصات على المسافرين حتى من أهل البلاد فقمتم في سيارة خاصة رفقة
بعض الطلاب وقفوا بنا طويلا في ناحية تبعد عن طهران بسبعة كيلومترات
ويسمونها (حضرت عبد العظيم) على اسم عالم وولى أقاموا له ضريحا هناك
زرته فادهشني اتسا ٤ وعظيم زخرفه وفي حجرة منه دفن السلطان نصر الدين
شاه في ضريح من المرمر الشفاف في خرط بديع ويقوم تمثاله ومن حوله
عدة علماء تعلق فوق كل منهم صورته الزيتية الكبرى وتلك ظاهرة استرعت
نظري اذ لم يكن يباح في الاسلام اقامة التماثيل ولا وضع الصور المكبرة هكذا
ويظهر أن الشيعة أكثر مرونة وأميل الى الاباحة من أهل السنة .
(وحضرت عبد العظيم) مزار مقدس وبخاصة عند النساء اللاتي يعتقدن أنه
يفك عسر العقيم منهن . هناك تعطلت السيارة لان رفقائى أضافهم للغداء



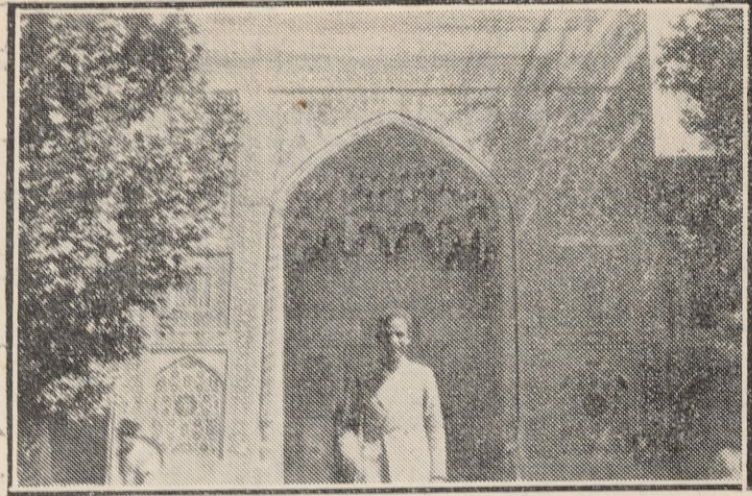
من قصر الشاه عباس اشرف على (ميدان شاه) يزينه (مسجد شاه) في اصفهان

أقرباؤهم ولما طال بي المكث صحت محتجا فتكاثروا على حتى أدخلوني دارهم
فاذا هي من الداخل فسيحة مشيدة تتوسطها الحديقة الفارسية وحوض الماء
وتلك شهرة لفارس من قديم وهم يقيمون أوجه أبنية البيت في مواجهة
المدخل وبيت الحریم يبعد الى الداخل وفي غرفة الاستقبال جاسنا القرفصاء
على البسط الوثيرة (و صموار) الشاي متقد الى جانبنا لسقى الاضياف من
الشاي الاخضر زكي الرائحة

قمنا نشق طريقنا وسط سهول زراعية تربتها سوداء الى مسافة ثلاثين
كيلومترا ثم بدأت التجاعيد المجدبة المنفرة فاضحي المنظر صحراويا شديدا

المحل وقد ظهر الى يسارنا متسع لانهاى من بسيط تكسوه الرمال يختلط بها
الملح المبيض وندرت القرى جدا حتى انا كنا نمر بالقرية الصغيرة كل ساعتين
فلا نرى بها مجارى المياه التى الفناها فى جوانب الطرق من قبل وهى تستقى
من عيون أشبه بتلك التى فى الواحات. وقد صادفنا فى سيرنا سيارة البريد التى
سبقتنى من طهران أصابها عطب فوقفت اليوم كله فقلت فى نفسى (وعسى
أن تكرر هوا شيئا وهو خير لكم) بعد أن أسفت لفواتها أمس شديد الاسف
وبعد مائة وخمسين كيلومترا من طهران وقفنا ببلدة (قم) مدفن السيدة فاطمة
أخت الامام الرضى ويسمونها (معصومة) وقد اقيم حول ضريحها مسجد
فاخر وهو من الامكنه المقدسة الهامة التى يزورونها فى مواسم معينة
ومن البلدان التى مررنا بها قاشان وتشتهر بصناعة البسط من الحرير
فى جميع الاحجام. استعرضت بعضها فاذا بها آيات فنية لذلك لم أعجب من غلو
أثمانها فكان بعضها يباع بمائة جنيهه للقطعة على ان الانسان يستطيع ان يتباع
قطعة صغيرة بمائة تومان (اى اثني عشر جنيا) وقد أردنا امضاء الليل
هناك لكنهم اخافونا لانها تغص بالعقارب لدرجة مخيفة حتى أن التجار
انفسهم لا يستطيعون المبيت فيها فواصلنا سيرنا الليل كله وفى الصباح
أقبلنا على :

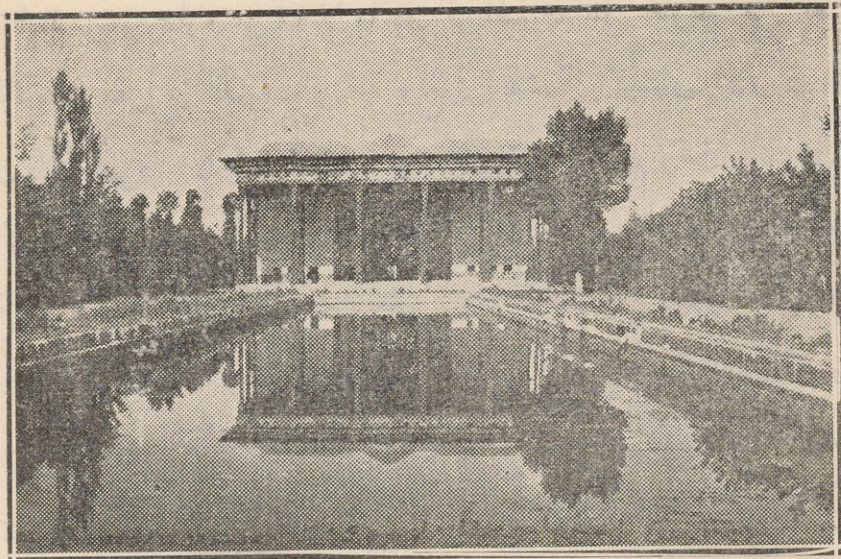
أصفهان : أو أصبهان (وطن ابى الفرج الاصبهاني صاحب كتاب
(الاغاني) وكثير غيره من أهل العلم والادب) بعد ان قطعنا نحو خمسمائة
كيلو مترا فى اثنتى عشرة ساعة فالفيها فى حجر جبل من دونه سهول مترامية



امام واجهة مسجد الشيخ لطف الله بنقشها الرائع - اصفهان

في تربه سوداء غنية بمزارعها على ان مدخل البلدة مترب منفر لا يوحى بشيء من العظمة التي خبروني عنها هنالك ثم حلت نزل (امريكا) الجميل الذي يطل على اهم شوارع البلدة ويسمى (خيابان جهار باغ) اعنى طريق الحدائق الاربع وهو في امتداد عظيم واستقامة تكاد تشق المدينة كلها وتعبّر النهر وتمتد الى ضاحية (جلفا) وكانه ثلاثة طرق متجاورة الاوسط الفسيح تحفه اشجار الشنار الهائلة وهي متجاورة تكاد تظل الطريق كله يجانبه طريقان آخران أقل سعة وبينهما وبين الاطارين شجر يماثل الاوسط وفي مجاورة صفوف الشجر مجارى المياه المألوفة في بلاد فارس كلها وهو مستراض الناس طيلة اليوم وبخاصة عند الاصيل حين يغص بالغايات يتلمسن من المارة رقيقا

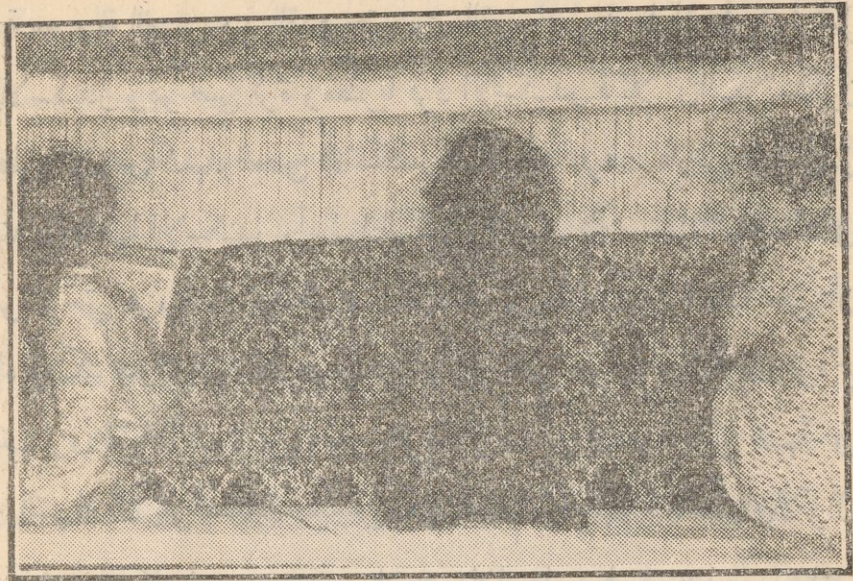
وتطل على وسطه مدرسة (جهار باغ) الدينية تحت قبة زرقاء بديعة تمتد
حولها الالونة في طابقين لايواء ١٦٠ من طلاب العلم وفيها يتخرج المولاه
وواجهة أحد المداخلية فنية في نقوشها وزخرفها الفارسي البديع افامها الشاه
حسين سنة ١٧٦٠ وفي أحد طرفي الطريق قنطرة جلفا التي تسترعى النظر ببناؤها
العجيب تقوم البوائك والمقاصير على جانبيها فتتخذ مأوى لمن أراد وتتدلى خلال
بعضها درجات تؤدي الى بطن الوادي الذي لا يكاد يجرى به ماء الا في نقائع
ضحلة آسنة لا تمنع المرور الى الجانب الآخر مع ان النهر اكبر انهار فارس
كلها ويسمونه (زندة رود) الذي يصب في مستنقع داخل اسمه (هامون)
ويخال البعض انه هو الذي اغرى الشاه عباس ان يقيم عاصمته (اصفهان) على
ضفافه ويقول بعض الكتاب عن تلك القنطرة انها انخر قناطر الدنيا وابهاها
وقال عنها (كرزون) أنها وحدها خير مبرر لزيارة بلاد فارس . على أني
لم أر فيها من هذا الجلال شيئا اللهم ألا انها غريبة في نظامها وهندستها وكان
يخصص أحد جانبيها لمرور النساء والجانب الآخر للرجال وعلى الجانب الآخر
من القنطرة ضاحية جلفا وهي مأوى لطائفة من الارمن المسيحيين الذين
خدموا السلطان عباس وبقيت لهم ولذرائعهم الى اليوم وهي انظف في
مجموعها من اصفهان نفسها تتوسطها الكنيسة الرئيسية الهائلة في الهندسة
الايطالية البديعة التي بدت غريبة وسط بلاد فارس وفيها الشرقي البحت
وفي وسط اصفهان (ميدان شاه) موضع شهرة اصفهان وهو فناء مستطيل
الشكل في امتداد لانهاى يشعر بالعظمة حقا يتوسطه حوض ماء كأنه البحيرة



(شهل ستون) بهو استقبال الشاه عباس وتنعكس أعمدته على حوض الماء من دونه

العظيمة ويطل عليه من وسط أحد جوانبه (آلى كابو) او الباب العالى
مسكن الشاه عباس وهو شاهق اقيم فى سبعة طوابق يرتقيها المرء بسلم حلزونى
ويرد كـلامنها بليات وسرايب عجيبة بعضها كالتيه كان الغرض منه اخفاء
طريق الهروب أن دعت الحاجة . والجدران كلها نقوش بالذهب والالوان
التي يخالها الواحد مورقة والطابق السادس اعد لسماع الموسيقى وجدرانه
مخرمة الى سقفه فى أشكال آلات الطرب على اختلافها وفى الطابق الثانى
شرفة يسمونها (تالار) اقيمت من خشب على عمد مزركشة وفى وسطها
حوض ماء انيق كان يرده الماء فى انابيب أرسلت من جبل شاهق فى طرف

المدينة وفي مقابل القصر مسجد الشيخ لطف الله أقامه الشاه أحياء لذكر
ذاك العالم وهو عبارة عن قبة لا ما آذن لها اقيمت على مجموعة من اقية
جوفاء تتخذ مقرا في الصيف والقبة بولغ في نقشها بالقيشاني الازرق في
اتقان فائق تطوقها الآيات الكريمة في خط بالغ الحجم وتحف بارادانها
جدائل من الفيروز ويكسوها الزخرف من خارجها ايضا فهى فى مجموعها
قطعة فنية فى رواء خيل الى انها صنعت اليوم . والى يمين القصر يطل على
الميدان (مسجد شاه) وهنا يعجز قلبي عن وصف آياته الفنيه فى النقش
والزخرف الذى بالغ فيه مبدعوه . قبة هائلة اقيمت على عمد ومن حولها
مجموعة من الاقية تحوطها الالونة تتوسطها احواض الماء وتقوم على جوانبها
الحجرات وكل اولئك يكسى بالقيشاني من داخله وخارجه فى نقوش وقت
امامها مهوتا فهو حقا اجمل مساجد ايران جميعا يأخذ بلبك خصوصا اذا ما
أقبلت على واجهته الزرقاء التى تعلوها مئذنتاه الدقيقتان الزرقاوان . ومن
نقطة وسط المسجد اذا ضربت الارض أوصحت ردد الصدى صوتك
بشكل متكرر ومرتفع يسمع كأنه قهقهة عالية وفى قبالة المسجد من جانب
الميدان الرابع مداخل الاسواق وهى ايضا تكسى بالقيشاني مما اكسب
الميدان جمالا مقطوع النظير . وتروك جلسة من شرفة قصر الشاه (تالار)
تشرف على كل أولئك وأنت مأخوذ من عظمة ما ترى . مشهد يخدع المرء
فيوحى اليه بأنه أضحى من ملوك الارض الجبابرة ويذهب بخيال الواحد الى
يوم الشاه عباس وما كان عليه الاقليم من عظمة ورهبة وقد نال منه الدهر اليوم



حتى تلك الطنافس معقدة الرسم يشتغلها الاطفال في العجم

فاخفى من روائه الكثير وجعل رواده من فقراء السابلة وجماهير المتسواين
بعد ان كانوا من علية القوم وعظماهم فسبحان مغير الاحوال. كان الشاه يجلس
في تلك الشرفة يستقبل الاضياف والسفراء والعظماء ويشاهد حاضرة ملكه وما
فيها من حركة ونظام. يمر امامه الجند يستعرضون من ثكناتهم التي تطوق
الميدان كما أنها سور من بوائك مزر كشة. وكانت تقام الحفلات الرسمية ومن
أجلها حفلة عيد النيروز رأس السنة الفارسية وكانوا يشاهدون بها مختلف
الالعاب ومصارعة الحيوان والحواة والفرسان وقد احتذى كثير من
الملاعب الاوربية حذو ملهى الميدان الفارسي وهنا لعبت كرة البولولاول

هرة أمام الشاه وكان معاصرا للملكة اليصابات في إنجلترا — وكانت تلك
اللعبة معروفة للفرس منذ القدم حتى روى القوم أن أحد ملوك فارس أرسل
إلى الاسكندر وهو صبي كرة ومضربا فرد الاسكندر قائلا أن الكرة ستكون
في نظره الأرض كلها والعصى الاسكندر نفسه وقد عرفت فارس بعد صدق
خبره أنه اذ دخلها الاسكندر وأسلها للسلب والنهب وظلت تلك اللعبة سائدة في
فارس وحتى هرون الرشيد لعبها رغم أنه كان قصير القامة حتى أن
عصاه لم تكف تدرك الكرة وهو ينحن بها من ظهر جواده ولا تزال قوائم
الملعب ترى بقاياها اليوم من حجر . ويمكن للسائح ان هو جلس هنيهة في
تلك الشرفة أن يقرأ صفحة جلية عن أهل العجم وحياتهم . فأصفهان لا تزال
فارسية بحتة في كل شيء وهي خير بلادهم دلالة عليهم في اخلاقهم وحياتهم
وفنونهم التي لم يكف يدخل عليها تبديل وقد كان حكم الشاه عباس هو العصر
الذهبي للفن والبناء حتى قال الناس فيه : لما أن مات مولانا عباس مات معه
تقدم الفرس وفنهم

وقد حكم الشاه عباس ٤٣ سنة ونقل عاصمته من قزوين إلى اصفهان
وقد زاره وفد انجليزي لأول مرة فأكرم مشواه ومن رجال هذا الوفد
تعلم الفرس استخدام المدافع في القتال ولم يكونوا يعرفونها من قبل وكان
متساحا في الدين دعا سفراء أوروبا إليه وكان اداريا حازما صارما في الحق
ومن قوانينه أنه جعل حكام المديرية مسؤولين أمامه عما يقع في مقاطعاتهم
وكان يباشر كل شيء بنفسه ومن أوامره العجيبة (أن الابن اذا عصى القانون

وجب على أيه أن يقتله فان تراخى الاب في ذلك أمر الابن أن يقتل
أباه فان تواني الابن في ذلك أعدم الولد وأبوه !) وقد شجع العلم والفن
والادب على أنه أهمل تربية أولاده مما أضعف الاسرة بعده وقد أعدم بعض
بنيه خوفا من مزاحمتهم اياه في الحكم لذلك أعقبه خلف ضعيف تسيطر
عليهم رجال الدين (المولاه) ثم غزا البلاد الترك الى قزوين والافغان الى
أصفهان نفسها وخضعت فارس كلها لملوك الافغان زمانا

ويجربى القول على ألسنتهم بان أصفهان نصف الدنيا ولو لم تكن في
الوجود لما خلق الله الارض جميعا ولا يزال جهالهم يعتقدون أن في الباب العالى
سرا لذلك رأينا كثيرا من الخيوط والخرق موثوقة به تبركا . أما قصر
الاستقبال الرسمي فاسمه (تشهل ستون) في مكان قريب من الميدان وسطه
حديقة فيحاء وهو من طابق واحد غالبه من الخشب الذى طلى من داخله
وزين بالصور والنقوش للندامى في مجالس مختلفة والحسان يقدمون الشراب
ولوقائع حرية من بينها انتصار جنود فارس على الافغانين مرة وعلى
الاتراك أخرى والصور الزيتية متقنة أذكرتني بما شاهدته في قصر الفاتيكان
في إيطاليا ويتقدم القصر بهو الاعمدة الأربعة ولما عدتها الفيتها
عشرين لكنهم يعدونها مضاعفة لأنها تنعكس على حوض الماء المستطيل الذى
يمتد بعيدا امامها . هناك يستقبل الشاه عباس اضيافه يجلسون حول حوض
ماء صغير تحتم السقف الذى بولغ في نقشه وخرط اخشابه وقد زينت
الاركان بقطع المرايا والبلور وهى من احب انواع الزخرف لديهم . كل ذلك



امام المارتين المتحركتين في جوار اصفهان

البذخ والاسراف جعلني انكر على الشاه عباس ما ادعاه من تقوى يوم ان
قام ماشيا على قدميه حتى بلغ موطن الحج في مشهد التي تبعد عن عاصمته
باكثر من الف كيلو متر .

طفت باسواق البلدة بسقوفها الوطيئة وشعابها المختقة يسير الانسان فيها
وكأنه في تيه لا يعرف له أول ولا آخر ويسترعى النظر نوع من الاقشة
المهفهفة يطبع الرجل فوقها النقوش الفارسية بأختام في الالوان التي ترغبها

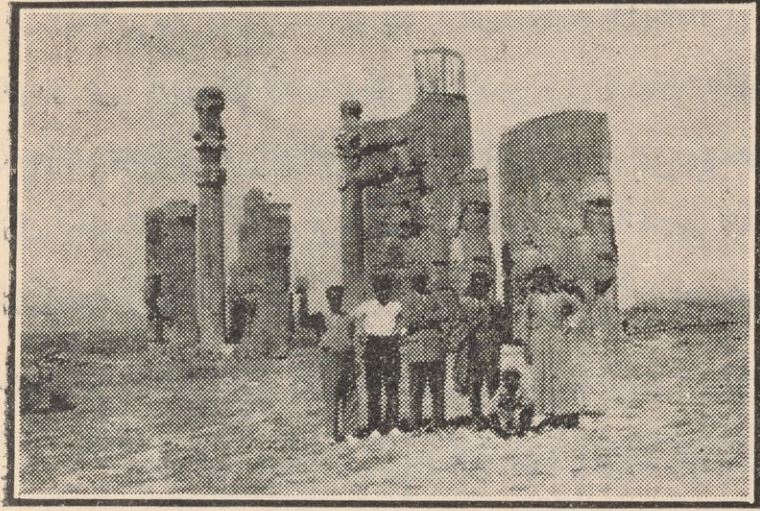
وتلك شهرة لاصفهان . ثم اشغال النحاس الدقيقة . وهناك تكثر المطاعم
وباعة الفاكهة ومن اظهرها (الخربوزه) أو الشام وهي من نوع مستطيل
في لون اصفر برتقالي خشن الملمس وحلاوتها فائقة . والفاكهة هناك رخيصة
فأقة (الانجور) أو العنب بنصف قرش كذلك انواع الطعام الاخرى فلقد
دخلت مطعما واكلت الكباب الشهى حتى شبعت وعند الحساب طلب الرجل
قرانين أى نحو قرشين ونصف وقد علمت ان الاهالى يستطيعون ان يعيشوا
ببضعة شاهيات فى اليوم أى دون قرش مصرى واحد

وفى أسواق أصفهان ضمنى مجلس مع طائفة من مثقفى أهل يزد التى تقع
الى شرق أصفهان وهؤلاء كانوا من الزردشتيين أو المجوس عبدة النار الذين فروا
فى تلك الصحراء - فيما بين يزد وكرمان - خوفا من العرب والمسلمين ولا
يزال منهم عشرة آلاف فيما جاور يزد وحدها وكانوا يضطهدونهم حتى أنهم
خصصوا لهم عباة صفراء ولم يباح لهم لبس العمام ولا ركوب الخيل الى
أمد قريب وقد علمت منهم أن فى يزد (برج السكون) حيث يتركون
جثثهم تأكلها العقبان لأنهم من عبدة النار وقد رأينا ذلك فى بمباى فى
الهند وكتبنا عنه فى كتابنا (جولة فى ربوع آسيا) وزردشت فيلسوف عاش
منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة نشأ فى أذربيجان وكان ذا شخصية عجيبة وكانت
تعاليمه تقوم على فضائل كثيرة وقد علم قومه أن الله (أهورا مازدا) يقول بأن
هناك نضالا بين الخير والشر وأن الخير سينتصر وقد شجع فى قومه الزراعة
وباركها وحرّم قتل الكلاب وكان يقول بأن الجنة فوق ذرى جبال

دما فاند وراء طهران تتوجها منطقة بهيجة لا ليل فيها ولا مرض ولا فناء
وظلت دياتته سائدة ثلاثة عشر قرنا حتى اجتاحتها الاسلام وساعد على ذلك
أن الحسين تزوج (شهر بانو) بنت آخر الملوك الساسانيين وبذلك ورث
الحسين (العظمة الالهية) التي ورثها من قبل الساسانيون وكانت لكتب
زردشت المقدسة بقية في مكتبة برسبولس وبعضها بخط يده أحرقها الاسكندر
المقدوني يوم أحرق برسبولس كلها وتلك من اكبر الاخطاء التي ارتكبتها
الاسكندر

وقد تفرع عن عبادة زردشت المجوس الزردشتية وظهر لهم رئيس في
نيسابور أيام ابي مسلم فدعا المجوس ان يهجروا عبادة النار ووضع لهم
كتابا آخر وحرم عليهم الامهات والبنات والخمر وأمرهم باستقبال الشمس
ركوعا في كل يوم

وبعد ذلك قام ماني الحكيم يدعو الى دين بين المجوسية والنصرانية وزعم أن
العالم مركب من أصلين النور والظلمة وأنهما متلازمان لكن أفعالهما متضادة
حسن وقبيح وخير وشر ويضم النور خمسة : النار والنور والريح والماء
وروحها النسيم ويضم الظلام خمسة الحريق والظلمة والسموم والضباب
وروحها الدخان وقد فرض ماني على أتباعه العشرة في المال والصلوات الاربع
والصدق وترك السرقة والزنا والقتل والبخل والسحر وعبادة الاوثان
ويقول بأن الله بعث زرداشت الى فارس والمسيح الى الروم ومحمد الى
العرب ولا يعترف بسيدنا موسى في تعاليمه قط



امام مدخل قصر دارا واجزرسيس تتقدمه الثيران ذات الاجنحة
والوجه الآدية في برسيولس

ومن الضواحي التي يقصدها السائحون هناك (الشيخ عبدالله) بهامدفن
ذلك الشيخ تحت قبة تجانبها مئذنتان تسميان (منارات متحرك) ركبت اليها
عربة زهاء الساعة في طريق وعر مترب منقر وصعدت فوق القبة ثم تسلق
رجلان كل في مئذنة واخذ الواحد يهز المئذنة فتترنح هي ثم تنتقل هزاتها
الى الاخرى فتبعها اهترازا ويعزوا القوم ذلك الى كرامة للشيخ المدفون على
اني لما انعمت النظر فيهما رأيت بهما كسورا وصدوعا هي التي تسمح لاجزاء
الماذن ان تتحرك وفي ظني انهما ستتهاران لاشك يوما وبذلك تنهار تلك
الكرامة الموهومة ويثوب القوم الى عقولهم

الى شيراز : قمت صوب شيراز مسيرة خمسمائة كيلومتر تقريبا قطعناها في شطر من المساء ونهار الخميس كله ووسط ارض مغضنة كثيرة الربى وكلها مجذب عار عن النبت الا القتاد وكان جل مسيرنا في وديان جافة اشبه بوادي حوف عندنا وكم مررنا بحوادث لسيارات انقلبت بمن فيها فاصبوا جميعا وفي الخامسة مساء كنا في قرية (سعادت اباد) وفيها اضطررنا للبيت لكي تتمكن من زيارة برسبولس صباحا والقرية تشبه القرى المجاورة للجبال في صعيد مصر تماما أو تحكى الواحات بيوتها وضيعة ولقد دعانا طبيب الجيش وأحد ضباطه ان نشرب الشاي في ثكنته فاذا بها خربة متهدمة دهشت كيف يطيقون البقاء فيها ولقد آوينا ليلتنا الى مسافر خانة بسيطة ونمت في (أطاق) زودنى الرجل فيه (بسجادة) نمت عليها ليلتى نوما عميقا لاني لم أنم الليلة القاتنة . وفي الصباح مررنا بكشير من الخرائب الاثرية من بينها مدر سليمان او قبر سيروز وخرابة كوجاست او مسكن سيروز وكلها اطلال لا تسحق الزيارة وفي التاسعة صباحا اقبلنا على :

برسبولس : او بارس اصطخر او قصر فارس ويسمونها احيانا تخت جمشيد وقد بدت في حوض الجبل مدينة هائلة باحجارها المشرفة التي اذكرتني بالكرنك ويقال انها اكبر الآثار القديمة وانخرها بعد الكرنك عندنا اقبلنا على درجها الهائل ذات اليمين وذات الشمال فارتقينها علوا شاهقا وكان عدد تلك الدرج مائة واحدى عشرة بلغ من امتدادها وسهولة مرتقاها

أن خبرنا القوم بأن الفارس يستطيع ارتقاءها وهو على ظهر جواده . فوقها
وأينا بقايا تلك المدينة البائدة الى تخيرها دارا الاول بدء القرن الخامس
قبل الميلاد مقرا لقصره وسط اخصب بقعة في مقاطعة فارس Fars بدا
مدخل قصر دارا وابنه اجزر سيز تتقدمه الثيران ذوات الاجنحة والوجوه
الآدمية في علوشاهق والى جانب المدخل بهو المائة عمودا وقد تهدمت الابقية
ضئيلة وهي من الجير الابيض البراق نحت في تجزيع يحكى الاعمدة الاغريقية
وكانت تتوج الاعمدة برؤوس الثيران التي تحمل السقف على علو ٦٥ قدما
والسقف من خشب الارز طعم بالنحاس والبرنز والعاج ولكثرة البرنز
ودقة صنعه ظن أن العصر كان ازهى عصور البرنز جميعا وكان خرط
السقوف في آيات بينات من الفن وفي بقايا تلوينه في القطع التي كشفوها من
تحت الانقاض والتي رأيتها في شبه متحف هناك ما سحرنا وأذكرنا بنقوش
الاندلس وقصر الحمراء حتى ظن البعض أن العرب نقلوا معظم فنهم من
قصر اجزرسيز هذا وابداع الوانها ونقوشها مفخرة للشرق على بلاد المغرب
وكانت تتدلى على جوانب الابهاء البسط الثقيلة الفاخرة لتحجب وهج
الشمس ولاشك أن كثرة الاعمدة الباسقة حاكت في زمانها غابة من شجر
أبيض ناصع جميل وشم قسم من القصر كشف حديثا ولا يزال الالمان
يظهرون خفيايه لذلك منعونا ان نرسم صوراه . ظهرت منه مجموعة درجه
كاملة الحفظ في النقش البديع والكتابة المسماوية والدرج مزدوج يمينا
وشمالا وبعد قليل ينعرج منعكسا فاليمين يضحي يسارا واليسار يمينا في ابهة



بقية من ابواب قصر دارا وهي قريبة شبه بابواب الكرنك

وجلال تشعر بعظمة الملك فكم نظر دارا واجزر سيز وهما جالسان في تلك
الجنة استهتارا بالدنيا وتيها على من سواهم من ملوك الارض. على أني لما رأيت
مدخل قصر دارا نفسه وقربه في الشبه من بوابة الكرنك الرئيسية في الاقصر
ونظام الأبهاء والاعمدة المصرية وانها دون آثارنا ضخامة وروعة شعرت
بشيء من الكبرياء لانه بدالى ان القوم نقلوا طرفا من مدينتهم عنا وفن تلك
البلدة خيلط من المصرى والاشورى الى حد كبير ومن الاغريقى الى حد قليل

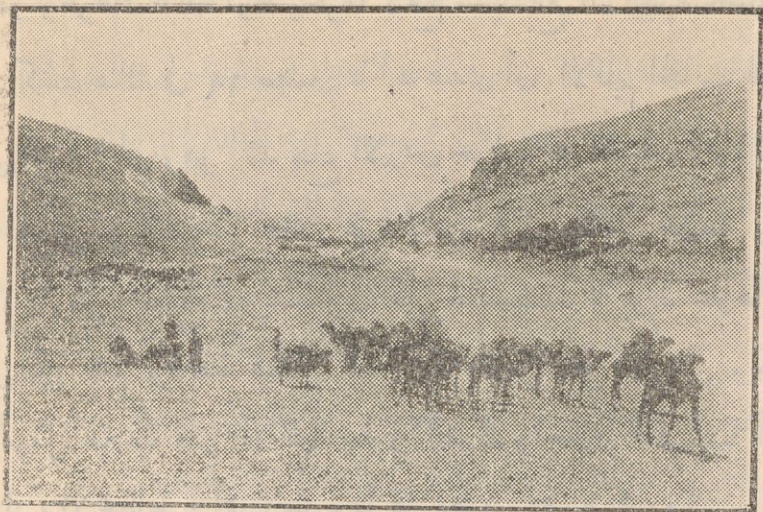
واصطخر كانت مقر ابي اسحاق الاصطخرى صاحب كتاب (مسالك الممالك) وهو من اقدم الكتب الجغرافية عند العرب ويسمونها احيانا تشهيل منار اى ذات العباد

وبعد ان غادرنا برسولس بنحو ستين كيلومترا جلها جبال معقدة اشرفنا على شيراز عاصمة مقاطعة فارس وكانت عاصمة ابن بويه. بدت فى وهدة وسط الجبال وعند مدخلها باب قديم فوقه غرفة بهامصحف كريم بخط الامام على نفسه ويتبرك به القوم فى غدواتهم وروحاتهم وشيراز القديمة مجموعة ازقة ضيقة بيوتها بالآجر يتوسطها (البازار) أو السوق كثير الشعاب فى أقيته الفارسية المألوفة وامتداده اللانهائى حتى قيل أن نصف سكان البلدة من التجار وخمسهم من اليهود. وجل دور الحكومة قصور قديمة شامخة البنيان فاخرة النقوش أذكر من بينها مكتب البرق والبريد، ومقر الجيش قصر كأنه القلعة وقد اختط خارج القديم قسم من البلد حديث رحب جميل تمتد طرقة المسيحة الى الآفاق وتجانبها مجارى المياه غير أن الخضرة والاشجار نادرة بحيث تبدو البلدة تحت الجبال وكأنها حلوان. واختلاط القوم وازدحامهم الشديد فى الطرقات الحديثة وبخاصة عند الاصيل يسترعى النظر وميلهم لليجون كبير رغم أن أزار السيدات هناك من النوع العتيق الذى يحكى ملابس الافغانين

وشيراز تعد خير مراكز العلم والادب الفارسى فيها قبر سيويه وقد أنبتت كثيرا من علماءهم وشعرائهم نخص بالذكر منهم حافظ وسعدى والاول

كان يميل الى شيء من الزهد والتصوف في شعره ويقول الغزل في الحضرة النبوية على مثال عمر بن الفارض أما سعدى فأباحى اشتهر بكثرة المجون والغزل في الغانيات والخمريات وكان يعده الفقهاء هناك زنديقا ملجدا ولقد زرت مدفنيهما في حجر الجبل فكان مدفن حافظ وسط بناء فاخر حوله شباك الحديد الملون وبه مشرب شاي كانت جلستى فيه أقرب شيء الى خيال الشاعر خصوصا عند الاصيل وقد اشرفت على شيراز كلها في مشهد ساحر لن أنساه . أما مدفن سعدى فأقل اتساعا وأبهة وهو في مكان ناء عن البلدة وعجبت اذ رأيت حول مدفنه يوم ان زرته جمعا من النساء والرجال والصدية مرحين يغنون ويصفقون فكأنهم كانوا يرددون شيئا من نزعة الشاعر وما روى

الى بوشير : قمنا في سيارة كبيرة الى (أبو شهير) مسافة تناهز ثلاثمائة كيلو متر لبثنا نسير يومين وليلة استرحناها في قرية كبيرة اسمها كزرون وكان الطريق جبالا معقدة بدرجة لم يسبق مثلها وبخاصة في اليوم الثاني في مكان يسمونه (الدرب) وليات الطريق وتعقيداتا فوقه تدخل الرعب في قلوب المسافرين بل والسائقين أنفسهم فأنت ترى طياتها عشرات بعضها تحت بعض وهنا تكثر حوادث انقلاب العربات وقد شاهدت عربة انقلبت قبلنا بيومين ومزقت بمن فيها شرمزق لذلك يحرم البوليس على السائقين السير ليلا وفي الخمسة عشر كيلومترا الاخيرة خرجنا الى سهول مبسوطة كلها صحارى مجدبة تمتد برمالها وحصاها الى

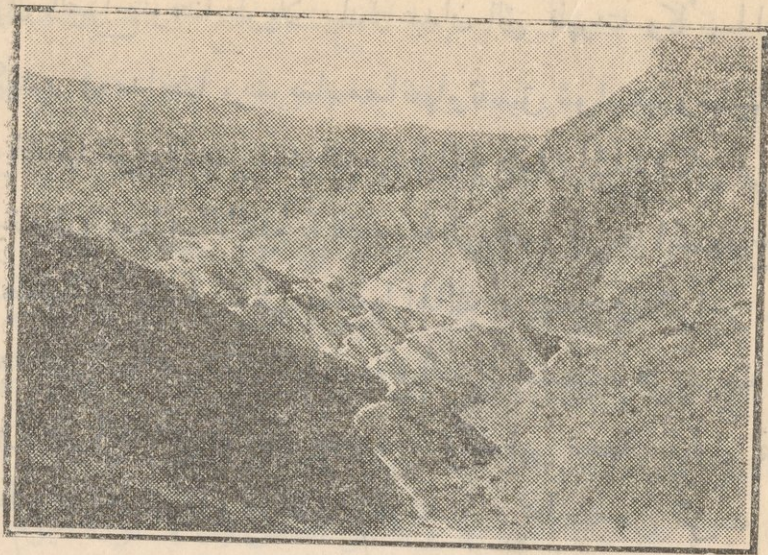


ندخل شيراز في هرة بين تلك النجاد

شواطئ الخليج الفارسي وقد مررنا بكثير من العيون الكبريتية وفي هذا القسم من فارس رأينا نخيل البلح في بقاع أشبه بالوحدات ولقد أدهشني أن الجبال في الشطر الاول من الطريق مجدبة عارية عن النبات وفي وسطها وهي أكثر الجبال ارتفاعا تكسى بالغابات في أشجار كبيرة متفرقة لذلك كنا نرى محاط لحرق الخشب ونحوه الى فحم يستخدمه الناس في التدفئة وفي الجزء الاخير في مجاورة (الدرب) انضمر الشجر ثم انعدم وأضحت الجبال شبيهة بجبال شرق حلوان في جدها ويظهر ان ثلوج القسم الاوسط المرتفع هي التي سمحت بنمو الشجر لانهاروته بمصهوراتها التي كنا نراها تتجمع في أودية ضيقة متلوية . أخيرا دخلنا بوشير في أصيل اليوم

الثاني فاذا بها بلدة حقيرة لم أجد بها سوى مهمما نخانة قدرة حجراتها كأنها
الاجحار وطرقات البلدة أزقة وحرها لافح شديد مع أن الصيف قد انقضى
اذ أنى كنت هناك في ١٩ سبتمبر مما أيد عندي أن الاقليم المجانب للخليج
الفارسي فاسد الجو وهو أشد بقاع الارض حرارة في الصيف . وبالبلدة
بعض المقاهي (البلدية) يجلس فيها الناس فوق مقاعد خشبية وطيبة
شبيهة (بكرسى المطبخ) ويتكئون على مناوئ لا يزيد علوها عن
الارض على قدم واحدة فيخيل الينا أنا جلوس على الارض وجانب
البحر مهمل مترب قدر الا فيما جاور الجمرک واخلق أهلها أمعن
في الفساد والانحطاط . أقيمت بها يوما على مضض وفي با كورة اليرم التالي
سرت الى الجمرک حيث قشمت أمتعنا ثم أقلنى زورق بخارى صغير في
الخليج الفارسي مسافة سبعة كيلومترات في مياه مضطربة هائجة وجو
عاصف أغبر كثر ضبابه ولم تنكشف شمسه وكم آذى ترنج الزورق من
مسافرين حتى وصلنا الباخرة (فاسنا *Vasna*) من بواخر شركة الهند
الشرقية وكانت راسية على هذا البعد لانها لا تستطيع أن تقرب من الشاطئ
الضحل وتلك الشركة تسير بواخرها مرتين كل أسبوع بين الهند وبين بلدان الخليج
الفارسي السريعة منها (*Fastmail*) تمر ببعض الثغور والبطيئة (*Slow*)
تمر بها جميعا وتقف طويلا وباخرتنا حولتها عشرة آلاف طن وكانت غاصة
بالمسافرين بين هنود وفرس وأعراب وكانت تحمل وسقا ثقيلا من
الشاي والسكر والفحم من الهند وتعود اليها بالبلح والشعير . رسونا في

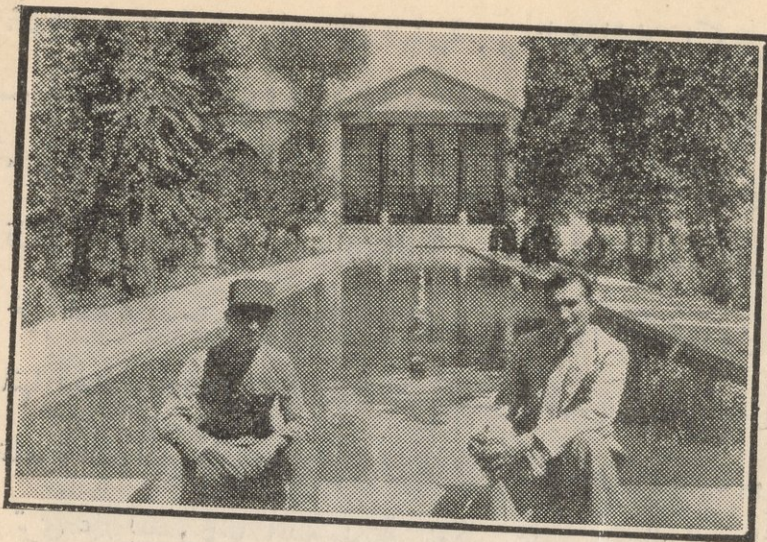
المساء ببلدة صغيرة عند مصب شط العرب تما ما وتسمى فاو وبعدها دخلنا الشط وفي الصباح وقفنا طويلا ببلدة عبدان التي ظهرت وكأنها احدى بلاد لنكشير في مداخنها وضوضاء مصانعها وتنسيق شوارعها ومبانيها التي ما كنت اخالها تقوم في مثل تلك الناحية النائية فاسدة المناخ لكن هي مقر شركة البترول (النفط) الانجليزية الفارسية التي تجمع الزيت المستخرج من تلك المنطقة الغنية وتكرره في مصانعها الهائلة ثم يشحن في البواخر وكنا نرى عددا من البواخر تنقل إليها صفائح البنزين المشحونة على اشرطة تسير بالبخار وترص الصفائح في نظام عجيب كذلك فهي محطة بترول لتكوين السفن بالزيت المحرك لها وقد ظلت باخرتنا تزود بحاجتنا من الزيت مدة ساعة بخراطيم هائلة ويظهر ان حافة هضبة ايران الغربية من قرب بحر الخزر الى الكرديستان الى الخليج الفارسي مستمد هائل للبترول الذي يكاد يتغلغل في جميع طبقات صخوره بمقادير وفيرة والشط هنا اكثر اتساعا من نيل مصر ويسمونه شط عبدان وجانبه الشرقي لفارس والغربي للعراق ويحفه النخيل على حانبيه في كثافة كأنها الغابات المغلقة وبعد ان غادرنا عبدان بثلاث ساعات وصلنا المحمرة وهي تحكى بوشير في حقارتها وقد وقفنا بها اربع ساعات نفرغ شحنتنا ثم قمنا منتصف الثالثة صوب البصرة فوصلناها في ساعتين . وقد سبق ان ذكرنا طرفا عن اقليمها وعن رحلتنا منها الى بغداد وفي باكورة صباح الاثين ٢٥ سبتمبر قمت في سيارة الى الشام في رفقة شاين عراقيين مرحين لم يفترا لحظة عن المزاح طيلة الطريق



نزل ذاك (الدرب) الوعر الى بوشير وشواطئ الخليج الفارسي

وكان معنا شيخ فارسي سان موضع سخرتهم وقديما كانت الكراهة متأصلة بين الشعبين فكلاهما يمتد الآخر مقتا وكان رابعنا سوريا مقطب الوجه لا يميل الى المزاح رغم حداثة سنه وكان يقود السيارة سائقان يتناوبان السوق لانا واصلنا السير النهار والليل في غير توقف وفي ساعتين وصلنا : الفلوجة : وعندها عبرنا الفرات وفي ساعة اخرى وصلنا الرمادي على حافة الصحراء وهناك تناولت طعام الافطار في نزل بديع يعادل احدث الفنادق نظاما . بعدها أوغلنا في صحراء مبسوطة السطح رملية التربة ليس بها من حصى ولا نجاد ولبثنا كذلك الى الرابعة مساء حين وصلنا الرطبة : في منتصف الطريق (والمسافة كلها ٨٧٠ كيلو مترا) وهي قلعة عراقية وسط

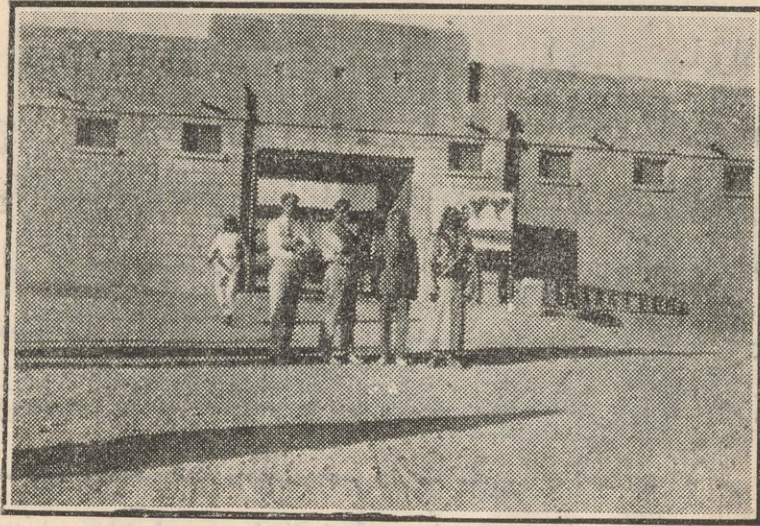
البادية داخلها نزل فاخر وقد قامت حولها بعض الحوانيت والمقاهي الحقيرة
تجانبها مجموعة من خيام لاعراب تلك البادية . وهنا محطة لاسلكية ومطار
هام . استرحنا زهاء الساعة وتناولنا الطعام الشمسي والشاي المنعش الذي أروى
ظمأنا ثم واصلنا السير واخذ اديم الصحراء يتغير وانتثر بالحصى وتماوج
سطحه قليلا وقد مررنا بوادي حيران الوطىء وعلى مقربة منه دخلنا بادية
الشام . خيم الظلام وسادت الوحشة وكان يزيدا رهبة اكاداس من عظام
لجمال خانها الحظ وبادت ولا تزال العقبان والنسور تنهش ما تحلف من لحمها
ولم أر ظاهرة السراب جلية من قبل جلاءها في هذه الصحراء فكانت تنوءات
الارض ترى على بعد وكانها ابنية مدينة تنعكس على بريق النقايع الفضية
الوهمية التي ملات الارعاء بيننا وبينها . واصلنا السير خلال مرح القوم ونكاتهم
ومفاخرة السائق بأن تلك الفيافي اضحت مقره فهو جد خبير بها عليم بما فيها من
دقائق وكانت آثار عجلات السيارات تميز طريقنا بحفائرها في الرمال وبين
آونة واخرى كمان يقوم شاخص من خشب طلي باللونين الابيض والاسود
ليهدى الناس سبيلهم . كانت فترة سكون قصيرة خمدت فيها اصوات الجمع
وجنح السائق عن الطريق ثم باغتنا بوقفة فنزل عن السيارة ونظرة الى السماء
دلتنا على انه ضل الطريق فكانت صيحة فزع وبخاصة من زديلنا الشيخ الفارسي .
اعقب ذلك صمت عميق ثم ظل السائق يحرق في السماء ويتلمس بعض بروج
النجوم ليسير على هديتها لكن بدالى من معلوماته الخاطئة عن النجوم انه
كان يوهنا بخبرته ليس غير والحقيقة انه كان فزعا مضطربا هو ورفيقه ولبشنا



دار البريد في شيراز وهي من القصور الارستقراطية القديمة

نسير بالسيارة يمئة ويسرة زهاء ساعتين في غير طائل فخشينا ان ينفد البنزين فتكون القاضية فأجبرناه ان نقف حتى الصباح لعنا على ضوء الشمس وميلها نهتدى الى الطريق السوى . صور نفسك في هذا الموقف وليس لديك من زاد ولا ماء وسط بادية مترامية لا ترى بها الا بقايا عظام لدابة هلكت أو فضلات لسيارة احترقت . صمت رهيب خلنا معه القوم نياما ولكن كيف ينام الضال القلق ؟ نزلت أجيل البصر في ذلك السكون الرهيب وتلك السماء التي اخفت خفاف السحب بها بعض النجوم حتى لم يبد الدب ولا النجم القطبي . وبينما كان يجول الخاطر فيما عسى ان يحىء به الغد واذا

بشعاعه ضوء كأنها وهج يتحرك بدت قرب الافق ثم اخذت تجبو وتظهر
فخلناها سيارة تمر في الطريق فولينا شطر تلك الناحية وسرنا نحو خمسة كيلو
مترات بدون جدوى فوقنا ثانية نر قب الآفاق عسانا نتلمس شيئا واذا بضوء
مصباح يفاجئنا في ناحية اخرى فعدنا اليه ويظهر انه أدرك حيرتنا فوققف وأشعل
مصباحيه الكشافين وظل يشتهما قبالتنا ونحن نسير اليه حتى اذا ما قاربناه
خجل السائق من موقفه وخشى ان علم الآخر بضلاله عن الطريق أساء الى
سمعته خصوصا وانه كان يفاخر بأنه ابن تلك الصحراء وبيننا كنا نتاهب لتحية
هادينا وشكره واذا بسائقنا ينعرج عنه كأنه على دراية بالطريق وكأننا نحن الذين
هدينا صاحبنا الآخر فكان ذلك ججودا منا يظهر ان السائق الآخر أدركه
فانعرج الينا وصاح في وجهنا قائلا (أتوضايعين ولا أيه ؟) فكانت صفة
قاسية لزميلنا السائق . تبينا بعد طريقنا ولبثنا كلما حاول السائق الشذوذ عنه
نعيده الى حظيرة الحق رغم مكابرتة وحمدنا الله ان انجانا من خطر محيق وقد
كان حظنا حسنا لان اليوم يوم سفر من العراق الى الشام كشرت فيه
السيارات العابرة والأما عثرنا على سيارات أخرى في تلك البيداء المترامية الخيفة
في الخامسة صباحا دخلنا دمشق بعد ان سرنا اربعا وعشرين ساعة سيرا
متواصلا لم يتخلله الاقتران قهوة عند الحدود ثم وقفة الحيرة التي ظلنا
فيها طريقنا وبعد جولة وداع قصيرة في دمشق قمنا في سيارة اخرى الى بيروت
مسافة مائة كيلو متر قطعناها في ثلاث ساعات في طرق مرصوفة وسط
مزارع جذابة ثم اخذنا نعلو جبال لبنان وكانت مدن المصايف وقرائها



في «الرطبة» وسط البادية بين العراق والشام وليس بها الامعسكر ونزل

تنتشر على جنباتها في بيوتها الحجرية وسقوفها اخراء المتحدرة حولها تتموج
النجاد يكسوها الشجر في مشاهد ساحرة

وقدمرنا بصوف وبمحمدون وعندما وصلنا الذرقة واخذنا ننزل الصفحة الغربية
كانت المناظر ابهى وأروع وبدت بيروت مبسوطة في زائدة من الارض
فاتمة وسط مياه البحر الابيض الذي امتد الى الآفاق حتى اتصل ضبابه
بسحاب السماء وقيل دخولنا بيروت رأينا (عليه) من خير مصايف لبنان ثم
تجلت بيروت ثغرا خفيف الروح جيد الطرق نظيفا يحكي جانبا من
الاسكندرية الا أن جوه كان أميل الى الحرارة وهو اؤه راكد رطب



الميدان الرئيسي في بيروت

هنا نال منى الجوع فأويت الى مطعم وطني اكلنا به قديدا (شورمه) من لحم شوى على سفود (سيخ) يدور ومن حوله وهج النار وكلها نضجت طبقة منه أزالها الرجل بالمشرط وقدمها الى وسط خضرة من النعناع والى جانب ذلك طبق من (الحمص) سحق في الزيت والبهار فكان شهيا لذيدا . فقامت بعد الظهر في سيارة الى حيفا : مسافة (١٦٠ كم) في خمس ساعات ونصف في طريق يجانب البحر ولم يتخللها وقوف الا عند الحدود زهاء نصف ساعة وقد مررنا من ثغور سوريا الهامة على : صيدا وكانت عاصمة مملكة كنعان ثم صور ومن ثغور فلسطين على عكا وقد كنت أخالها تقوم على ربوة

منيفة لكنني الفيتها مبسوطة السطح ولم تشعرني بالمنعة التي قرأنا عنها أيام
صلاح الدين ونابليون وعلينا ان بها قبر نبي الله صالح وفي المساء كنا في
حيفا : وهي مدينة يدير على مبانها القدم والاهمال ألا أن الانجليز بدأوا
يعبدون طرقها ويصلحون ميناءها في أرففة هائلة ستجعلها من الثغور الرئيسية
ويظهر انهم يميلون الى اتخاذها قاعدة حربية للجيش والاساطيل والمطارات
ومن ورائها يقوم جبل الكرمل الذي اخذت المباني المستحدثة تقوم على
مدرجاته وفوق سطحه المبسوط وهو هناك الحى الارستقراطي وجل ملاكه من
اليهود . وهنا بدء سكة الحديد الى الجنوب وللبلدة محطتان محطة حيفا ومحطة
الكرمل . قمت عائدا الى بلدنا للعزيم في قطار الصباح فكان جل الطريق
يغالب البحر في سهول زراعية ثم اخذت الارض تتعفن وكثرت بها منابت
الفاكهة وبعد غزة سادت الرمال وكثبانها الناعمة الى الآفان ولما دخلنا
الحدود المصرية زادت كثافة وحنف النخيل شاطئ البحر كله وقد لبثنا
تجانبه طويلا ثم اوغلنا في طور سيناء حتى دخلنا القنطرة مساء

تمت الجولة بعون الله

فهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الى حلب	٥٨	المقدمة	٣
الى الاناضول	٦٢	خريطة الرحلة	٦
أنقرة	٧٠	الى فلسطين الارض المقدسة	٧
في أرض كردستان	٨٢	بيت المقدس	٨
العراق : نبذة تاريخية	٨٥	نبذة تاريخية	١٠
الموصل	٩٦	في القدس	١٥
اليزيديون عبدة الشيطان	١٠٠	طريق الآلام	١٦
نينوى	١٠٤	الحرم الشريف و قبة الصخرة	١٨
الى كرلوك و منابع البترول	١٠٨	المسجد الاقصى	٢٢
نمرود	١٠٨	مبكي اليهود و بيت لحم	٢٤
كرلوك	١١٠	جبل الزيتون	٢٦
الى بغداد	١١٢	الى البحر الميت	٢٨
إيوان كسرى	١٢٤	الى يافا	٣٢
الى الحلة	١٣٠	السامريون	٣٦
بابل	١٣١	الدروز	٣٩
الحدائق المعلقة	١٣٢	دمشق	٤٠
الى الكوفة	١٣٦	بعلبك	٥٢
الى النجف	١٤٠	زحلة	٥٦

فهرس

الموضوع	الصحيفة	الموضوع	الصحيفة
ضربح الامام الرضى	٢١٠	الشيعة	١٤٨
من خراسان إلى الأفيغان	٢٢٢	زواج المتعة	١٥٢
أفغانستان أرض الجبال	٢٢٥	إلى كربلاء	١٥٤
أسلام قلعة	٢٢٥	إلى البصرة	١٥٦
هيرات	٢٢٩	إلى القرنة جنة عدن	١٦٠
عود إلى مشهد	٤٤٤	الصابئة	١٦٢
عود إلى طهران	٢٤٩	هضبة ايران	١٦٩
ألى بحر الخزر	٢٥٤	نبذة تاريخية	
إلى أصفهان	٢٦٦	إلى كرمان شاه	١٧٣
أصفهان	٢٦٨	إلى طهران	١٨٠
ألى شيراز	٢٨٠	طهران	١٨٨
برسبولس	٢٨٠	إلى خراسان	٢٠٠
إلى بوشير	٢٨٤	مشهد مقدس	٢٠٨

صور الكتاب مائة وسبعة وثلاثون حسب هذه الموضوعات.

الجولات المطبوعة للمؤلف

(١) جولة في ربوع أفريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح
عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها واسرار همجها وأخطار
وحوشها

(٢) جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان بدائع الشرق الاقصى ومدهشاته
(اليابان والصين والهند الخ)

(٣) جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وايسلنده
ظرائف المدنية الاوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

(٤) جولة في ربوع الشرق الادنى

بين مصر وأفغانستان

114619659

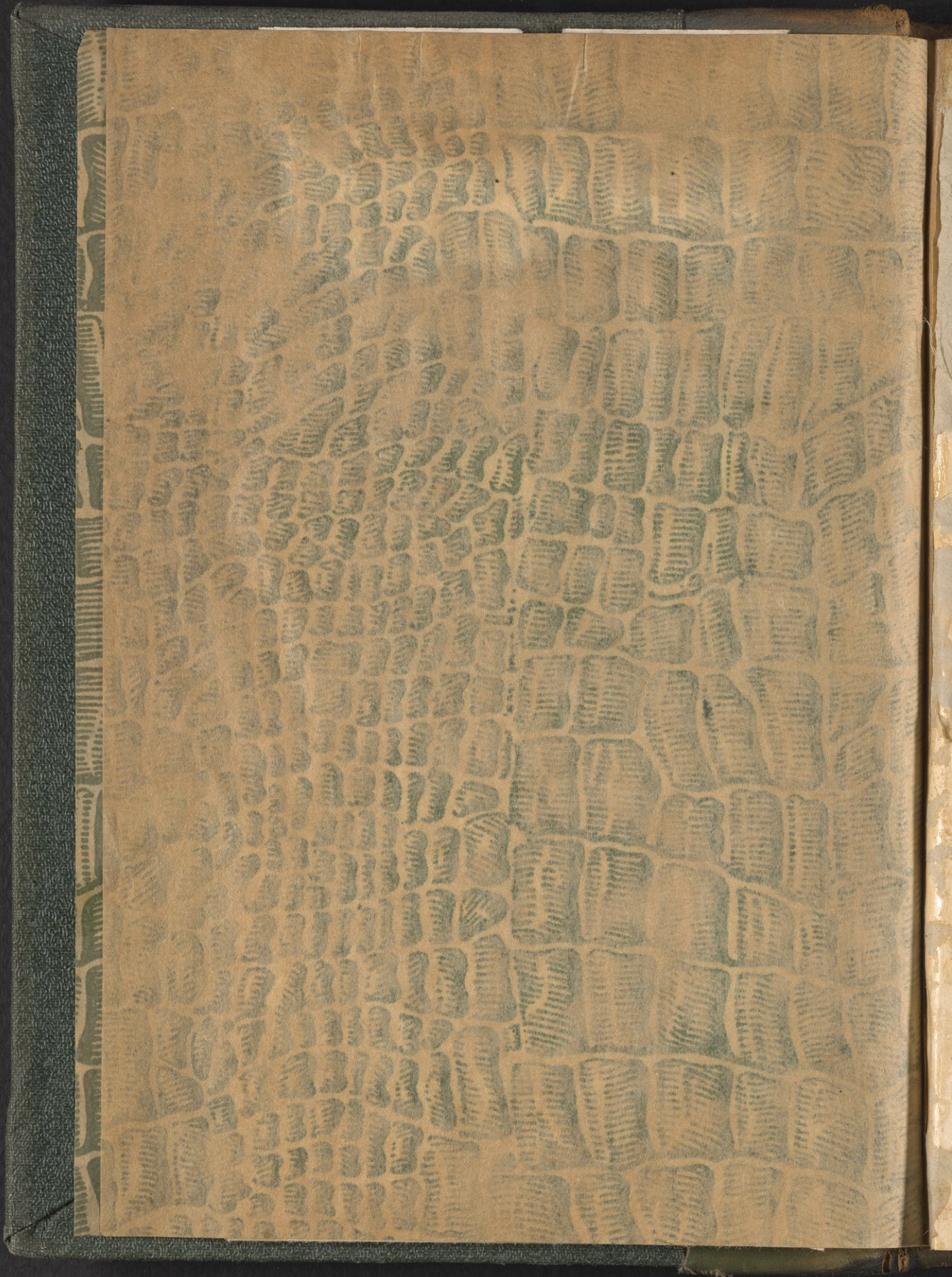
B12970596

نرجو ان يتفضل القارىء باصلاح الاخطاء الآتية وانا نعتذر عن بعض

الهفوات البسيطة التي لا تخفى عليه :

صواب	خطأ	سطر	صفحة
المال	المحال	١٩	١٢٠
سدى	سوى	٣	١٣١
خاصعتين	خاصعين	٩	١٣١
اجتاح	احتاج	١٣	١٧٢
وثلاثين	وثلاثون	٢	١٧٨
يدخلهما	يدخلها	٣	١٩٧
منهن	منهم	٤	٢١٩
وحولهما	وحولهم	٨	٢٤٠

١١٤٦١٩٦٥٩



DATE DUE

DS
49
T45
1934

1900
1901
1902
1903
1904
1905
1906
1907
1908
1909
1910
1911
1912
1913
1914
1915
1916
1917
1918
1919
1920
1921
1922
1923
1924
1925
1926
1927
1928
1929
1930
1931
1932
1933
1934
1935
1936
1937
1938
1939
1940
1941
1942
1943
1944
1945
1946
1947
1948
1949
1950



